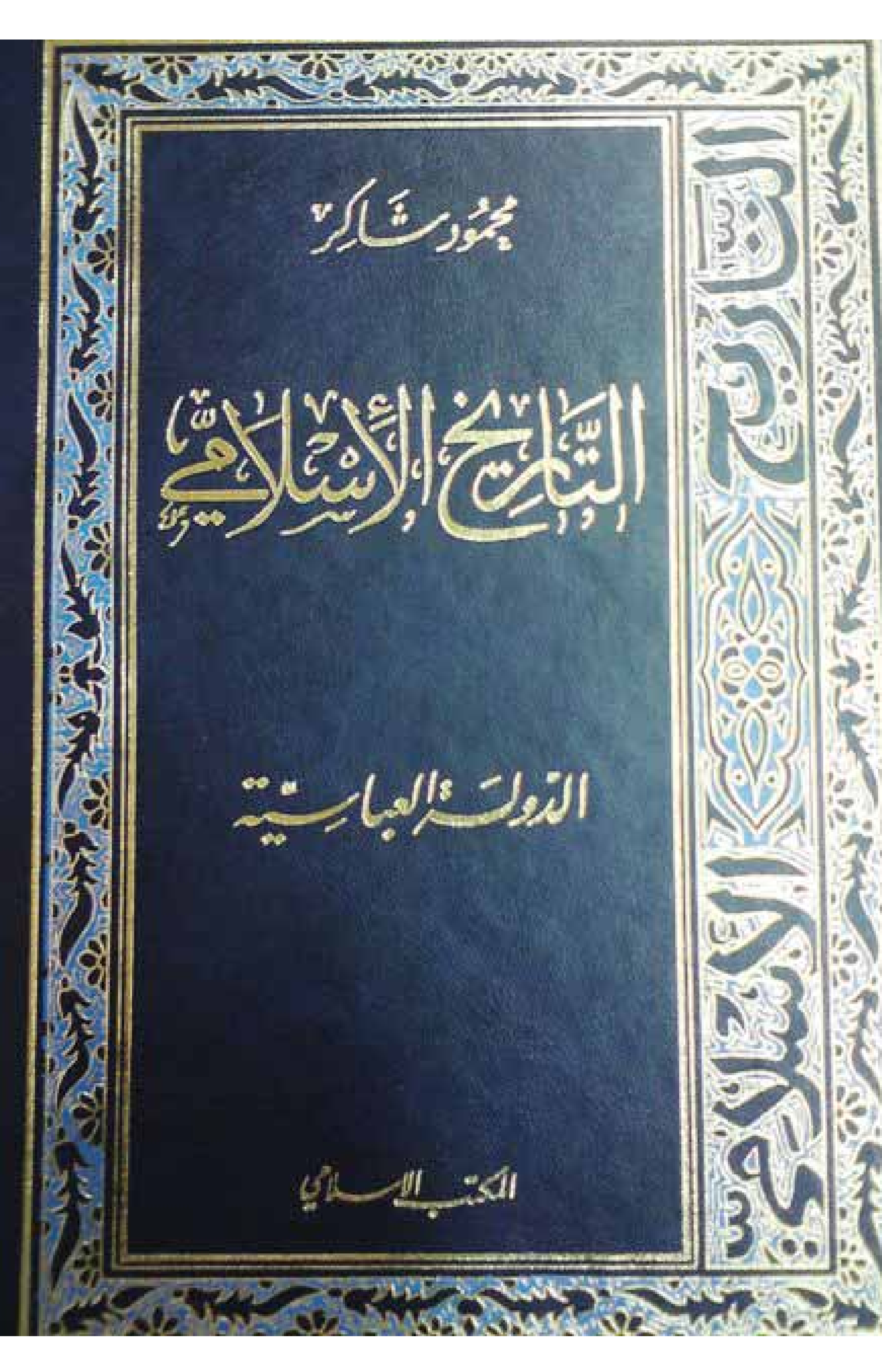

محمود شاكر
التاريخ الإسلامي
الدولة العباسية
المكتب الإسلامي

التاريخ الإسلامي

-٦-

الدولة العباسية

الجزء الثاني

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الخامسة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٦٤٨٥٢٣

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربه واهتدى بهديه الى يوم الدين وبعد :

فإنّ بداية العصر العباسي الثاني في بداية عهد الضعف الذي أصاب المسلمين واستمر مدةً زادت على عشرة قرون. ولم يكن هذا العصر عصر ضعفٍ فحسب وإنما يُعدّ زمناً مجهولاً بالنسبة إلى كثيرٍ من الناس، وذلك لأنه مرحلة ضعفٍ أولاً، ولظهور دويلاتٍ ذات شأن، وقد حملت هذه الدويلات على عاتقها مقاومة أعداء الإسلام فبرزت كآل زنكي والأيوبيين في بلاد الشام وقد قاوم كلاهما الصليبيين، والحمدانيين في شمالي بلاد الشام، في الموصل وحلب، وقد قاتلوا الروم، وكانوا على الثغور، والغزنويين في أفغانستان، وقد فتحوا أجزاء من بلاد الهند، وعملوا هناك على نشر الإسلام، فظهرت هذه الدويلات، وطغت في كثيرٍ من الأحيان على مركز الخلافة في بغداد رغم أنها كانت دويلاتٍ تابعةً لها.

وامتاز هذا العصر بنقاطٍ يحسُن بحثها مقدماً كي أتمكن من إعطاء صورةٍ واضحة عن هذه المرحلة التاريخية، ويُمكن بعدها أن أذكر الجوانب السياسية التي تطغى عادةً على بحوث المؤرخين فتترك الصورة السياسية بارزةً وتُهمل الميزات العامة الأساسية التي يمكن أن تشمل على أفكارٍ ومعايير مهمة بالنسبة إلى الفكر، ولعلّ أهم ما امتازت به هذه المرحلة التي تمتد من ٢٤٧ - ٦٥٦ أي على أكثر من أربعمائة سنة بـ :

١ ـ السيطرة العسكرية على مركز الخلافة.

٢ ـ نشوء دويلات نتيجة بروز قادة استقلوا في مناطقهم، ولم يكن للخليفة من أمر سوى الاعتراف بالواقع، واعتماد قيام القائد بأمر الولاية.

٣ ـ ظهور نتائج الحضارة الإسلامية السابقة لهذا العصر على شكل علم وعمران ورفاهية.

٤ ـ ظهور نتائج الرفاهية، وقيام حركات ردّ فعل بصبغة تحمل اسم الدين بادعاء النسب الهاشمي، وقيام الحركات الباطنية من وراء ذلك كله.

٥ ـ الغزو الصليبي لبلاد المسلمين.

٦ ـ الغزو المغولي، والقضاء على الخلافة العباسية، وسقوط بغداد عام ٦٥٦ كنهاية هذا العصر.

وسأتعرض لشرح هذه النقاط ـ إن شاء الله ـ كي أعطي الصفة العامة لهذه المرحلة، ثم أنتقل لدراسة الخلفاء، وما حدث في عهد كل واحد منهم، وفي هذه الدراسة لن تُدرس الدويلات التي نشأت بشكل تفصيلي ومتتابع وإنما على شكل متقطع، ويمكن جمعها من عهد كل خليفة عاصرته، وكذلك ستكون الغزو الصليبي والغزو المغولي فأرجو من الله أن أوفق في بحثي هذا، وأن يكون عملي خالصاً لله الذي أستعين به، وأتوكل عليه، وأطلب منه الهداية، وأبدأ باسمه.

١ ـ السَّيطرة العَسكَرية عَلى مَركَز الخلافَة

قد تختلف فكرة العسكرية في ذلك العصر وما قبله عمّا هي عليه اليوم إذ كان المجاهدون أو المقاتلون يُدعون حين الجهاد أو وقت الحاجة إليهم، وهم من يستطيع القتال، منهم من يندفع في سبيل الله إذا كان الغزو في بلاد الكفر، ومنهم من يرغب في الغنائم سواء أكان جهاداً أم قتالاً وذلك عندما ضعف الإيمان، ومنهم من يُجبر على الخروج إذا فُرض على منطقة معينة عدد من المقاتلين وذلك بعد أن توقفت الفتوحات وانتهى أمر الجهاد، وغدت الحروب تُشن على العصاة والخارجين على الحكم أو المتمردين وطالبي الزعامة، ومنتقدي الحكم، والخوارج و...... ويُعيّن الأمير أو الخليفة قائداً لهذا الجيش وينطلق. وبعد معركة أو الانتهاء من مهمة يتغير القائد، وفي مهمة جديدة قد يصبح قائداً من كان بالأمس جندياً، ويغدو قائد الأمس جندياً، وهكذا تتبدل القيادة ولا تبقى بيد شخص يُطاع بصورة دائمة. فإذا ما استمر رجل يحمل اللواء لشجاعة فيه، أو لفن في قيادته وشعر الجند دائماً أنهم تحت إمرته كانت له سيطرة ونفوذ عليهم، واضطر الجند لطاعته. فإذا كان هذا القائد من أصحاب الطموح فإن نفسه تحدثه في الحصول على السيطرة على الوضع أو الاستقلال عن مركز الخلافة، وتأسيس دولة تحمل اسمه، ولننظر إلى بعض الحوادث التاريخية.

كان خالد بن الوليد في الجاهلية قائد خيل قريش ونعرف دوره في غزوة أحد وفي الحديبية، ولما أسلم برز كقائد فذّ وبطل مغوار. واشترك بعد أن أسلم مباشرة في غزو مؤتة كجندي ولكن آلت إليه القيادة إذ اختاره المسلمون أميراً عليهم بعد استشهاد القادة الثلاثة رضي الله عنهم زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وقد تسلّم الإمرة فأحسن، واستطاع أن ينسحب بالجيش وينقذه من عملية سحق تكاد تكون مؤكدة، بعد أن بذل

مواقع الفرق وأخبر بعضها وجاء من بعيد شيئاً سحباً من غبار، والتحم مع العدو بقتال مستميت وأوهم الروم بأن نجدات قد جاءت من المدينة إلى المسلمين. وفي أيام الصدّيق رضي الله عنه برز خالد رضي الله عنه في حروب الردة، ثم في فتح العراق، وانتقاله إلى الشام بشجاعة فائقة، وفي معركة اليرموك، ونتيجة هذه المعارك التي خاضها والتي نجح فيها نجاحاً كبيراً، وتجلت فيها عبقريته الفذة في القتال أصبح كثير من المسلمين ينظرون إليه نظرة خاصة، ويطيعونه، ويرغبون في قيادته، ويتمنون القتال تحت إمرته، بل إن ذلك ليشجعهم في الانخراط في صفوف المجاهدين، وحتى ظنّ بعضهم أنه لا يُقهر، ولما خرج أحد قادة الروم الأشداء في معركة اليرموك وطلب المبارزة خرج له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وأبو عبيدة فارس مقدام وبطل صنديد قد يفوق خالداً، غير أن بعض المسلمين قد طلبوا منه أن يعود ويتقدم خالد للنزال فإن المعركة في بدايتها وقتل أحد القادة رفع لمعنوية الصديق كبير وهزيمة لمعنوية الخصم، وألحّ بعض المسلمين على خالد في ذلك حتى اضطروه أن يطلب ذلك من أبي عبيدة ـ وهو خجل منه ـ غير أن أبا عبيدة رفض وأصرّ على البقاء في موضعه، وتم النزال، وقتل أبو عبيدة خصمه، وخالد ممن يحترم أبا عبيدة كثيراً، ويعرف فضله ويقدّمه لما فيه من صفات ولسابقته، وكذا كل مسلم، وخالد مسلم. ولما تولى أمر المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف بفطرته ما آلت إليه نظرة المسلمين لخالد، فكان أول عمل عسكري قام به أن عزل خالداً رضي الله عنه عن القيادة، وولّى أبا عبيدة رضي الله عنه، ولم يُبد ما في نفسه، ولكن تكلم عن أحقية أبي عبيدة وأهليته وسابقته في الإسلام، وقوته وشجاعته التي لا تقل عن شجاعة خالد وقوته، وكان عمر رضي الله عنه يختار السابقين في الإسلام للإمرة ويقدّمهم، غير أن كثيراً من المؤرخين رجعوا إلى الماضي يفتشون عما كان بين عمر وخالد رضي الله عنهما ليجدوا فيه سبباً لهذا التصرّف، ولكنهم ابتعدوا عن الحق، ولم

يوفقوا في تعليل هذا التصرّف، فالماضي جاهلي يمحوه عمر رضي الله عنه والإسلام يجب ما كان قبله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي العصر الأموي نلاحظ أن بقاء المهلّب بن أبي صفرة والياً على خراسان مدة قد جعل له طاعة في المشرق عامة، وأن دوره الكبير في محاربة الخوارج قد جعل له مهابة واسعة في أرجاء الدولة الإسلامية واستمرت لأبنائه من بعده، فابنه يزيد وولايته على العراق وطاعة الناس له عند حركته وكذا بقية أولاده، ودور أحفاده عمر بن حفص في السند والمغرب، ويزيد بن حاتم وأبنائه المهلب وداود وخالد، وأخيه روح في المغرب. وما كان للمهلّب من أثر في المشرق كان لعقبة بن نافع في المغرب حيث يُعدّ قائد الفتح، ولقي الشهادة هناك، وورثت أسرته هذا المجد من بعده فبرز حفيده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، وابنه عبد الرحمن بن حبيب الذي سيطر على المنطقة بالقوة وفرض نفسه، وغزا صقلية، وقاتل الخوارج وخضد شوكتهم هناك، وأخوه إلياس، وابنه حبيب، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري في الأندلس. ونجد في العراق عمر بن هبيرة، وابنه يزيد، ويوسف بن عمر الثقفي، وخالد بن عبد الله القسري، وفي خراسان نصر بن سيّار. وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي، هؤلاء، كلهم بقي لهم أتباع وأنصار بعد ذهابهم بمدة وذلك لأن مدة ولايتهم قد طالت، فقد ثار أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي أيام السفاح ووجد له أعواناً دعموه وحموه، وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيار في سمرقند ولقي أنصاراً استمروا بجانبه مدة طويلة.

وفي العصر العباسي الأول نلاحظ أن عبد الله بن عليّ عم السفاح والمنصور قد ارتفع اسمه وعلا ذكره في بلاد الشام وخافه الناس حتى أطاعوه وذلك بعد الانتصار على مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وتتبعه في بلاد الشام من مدينة إلى أخرى حتى قضى عليه أخيراً في مصر، وما فعله ببني أمية عامة حتى في قبورهم، وهذا الخوف منه والطاعة له قد مكّن له في بلاد الشام حتى طمع

بالخلافة أو حدثته نفسه في ذلك فتحرك لها ووافقه الشاميون وساروا معه حتى قُضي عليه. والأمر نفسه بالنسبة إلى أبي مسلم الخراساني الذي اتخذ القتل وسيلة أرهب به الناس حتى خشيه أنصاره قبل أعدائه، واستمر في خراسان مدةً منذ سار إليها حتى قُضي عليه عام ١٣٧ أي ما يقرب من عشر سنوات، وهذا ما جعل له أتباعاً كثيرين ليس من بني جنسه فحسب كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصفوا ذلك وإنما من الناس الذين يعيشون في تلك الرقعة من الأرض جميعاً بل كان القادة العسكريون العباسيون كلهم يقرّون لهم بالطاعة ويخافونه حتى من كان منهم من بني هاشم بالذات.

ولكل حاكمٍ يصبح أتباع سواء أكانوا من الذين شعروا بعدله وإخلاصه فأحبّوه وساروا معه أم من الذين استفادوا منه أم من الذين يتوقعون الإفادة منه في المستقبل، فالأمويون قد بقي بعضهم يقوم بحركاتٍ حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويجد له الأتباع والأنصار يدعمونه في حركته، وأكثر حركات الأمويين على العباسيين كانت من قبل الأسرة السفيانية وذلك لأن العباسيين عندما قضوا على الأمويين إنما كان همّهم منصرفاً على الأسرة المروانية التي كانت بيدها السلطة والتي كان عدد أفرادها كبيراً بينما لم يهتموا بالأسرة السفيانية كثيراً لأنها تخلّت عن السلطة منذ مدةٍ طويلةٍ ولأن عدد أفرادها كان قليلاً وقد انصرفوا إلى أعمالهم الخاصة وتركوا الحكم وشأنه، وقد فرّ أكثر أبناء الأسرة المروانية أو قتلوا وبقي السفيانيون فقاموا بحركاتٍ ضد العباسيين ووجدوا من يدعو لهم ويؤيدهم لذا عرفت كل حركة لهم باسم «السفيانية». وإذا كان المروانيون الذين نجوا من العباسيين قد انتقلوا إلى الأندلس بعد وصول عبد الرحمن الداخل إليها ونجاحه فيها فإن السفيانيين قد انتقلوا إلى جهات أخرى سواء الذين هربوا من وجه العباسيين أو الذين كانوا يفرّون عندما تفشل حركاتهم فقد كانوا يتجهون إلى جنوبي جزيرة العرب حيث كان لهم شأن بعد ذلك في اليمن وعسير وفي الجهة المقابلة من البحر الأحمر حيث

السودان وبلاد النوبة. وإن سابق حكم بني أمية في الشام قد سهّل لعبد الرحمن الداخل في الأندلس لوجود من يساعده في مهمته، فليس كل إنسان يمكنه أن يذهب إلى منطقة نأت أرضها أم قربت ويجد له الأعوان ويتمكن من إقامة دولة له كما فعل عبد الرحمن هذا، ولو لم يكن للأمويين سابق مجد وعزّ لم يستطع أن يدخل الأندلس أبداً بغاية الزعامة وتسلّم الأمر فيها.

ومن هذا المنطلق فقد كان العثمانيون في الزمن الأخير يحرصون على تغيير الولاة باستمرار كي لا يتمكّن الواحد منهم في ولايته كثيراً، ويكتسب ودّ أناسها، ورغم ما في التغيير من أغلاط إلا أنها تبقى أخفّ بعرف الحاكم من الاستقلال بالولاية كالمماليك في مصر والمعنيين والشهابيين في لبنان، والأشراف في الحجاز، ومن هذا المنطلق بالذات يتم نقل الضباط القادة وتغيير مواضعهم في هذا الزمن في الدول غير المستقرة والتي تخضع لهزّات، أو التي اعتاد قادتها على التفكير في تغيير الأوضاع واستلام المسؤولية بين الحين والآخر أو كلما سمحت لهم الفرصة حتى أصبح هذا طموحاً أو أملاً عند الكثير منهم.

ويمكن أن نضيف إلى الزعامة العسكرية القيادة الدينية وإن كنّا لا نستطيع أن نفرّق بين هذه وتلك أو نفصل الأمور الدينية عن أية ظاهرة أو حادثة اجتماعية أو سياسية أو عسكرية، وإنما لنوضّح هنا بعض هذه الجوانب فآل البيت لهم منزلة خاصة بين المسلمين لذا يمكن لأحدهم أن يتبوأ مركزاً مهماً إذا كان صالحاً، ويصل إلى هدفه بشكلٍ سهلٍ حيث يجد له المؤيدين والمحبين، وهذا ما سهّل لادريس بن عبد الله بن حسن مهمته في تأسيس دولة له في بلاد المغرب، وهناك منطقتان عرف فيهما التأييد لآل البيت إحداهما المدينة المنورة حيث يقيم عدد منهم وخاصةً من أبناء الحسن بن علي رضي الله عنهما، وهم عادةً أهل دينٍ وصلاحٍ، وقامت لهم فيها حركات منها حركة محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وثانيتهما الكوفة وفيها تأييد لآل البيت أو نكاية بخصومهم من الأمويين والعباسيين أو فيها من

يحب آل البيت حباً بارداً، وكان أهل الكوفة يدعون آل البيت إليهم حتى إذا جاءوهم، وقاموا يطلبون الأمر تخلّوا عنهم وذلك منذ أيام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد خذلوه، وأكثر من الكلام عليهم في خطبه، ومن بعده أبناؤه الحسن والحسين رضي الله عنهما، ثم زيد بن علي بن الحسين رحمه الله.

وإذا كان العصر العباسي الأول قوياً فلم تقم فيه سيطرة عسكرية أو زعامة ذات قوة تعتمد عليها في حكمها للمنطقة، وإذا ما تم وحدثت نفس بعض القادة بذلك فقد كان يُقضى عليها بسرعة، وهذا ما حدث لعبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، ولم تقم في ذلك العصر سوى دولةٍ واحدةٍ هي دولة الأغالبة في تونس، إذ كان ابراهيم بن الأغلب أمير المنطقة واعتمد على نفوذه وجنده فأسس دولته، وسكت عنه العباسيون لتقف إمارته هذه في وجه الإمارات الأخرى الخارجة على العباسيين والمخالفة لهم، وهي إمارات الخوارج في «تاهرت» و«سجلماسة»، وإمارة الأدارسة في المغرب الأقصى في فاس، ودولة الأمويين في الأندلس، وبهذا فلم تقم سوى دولةٍ واحدةٍ في عصر القوة العباسي اعتمدت على الجند.

وشعر الخليفة المأمون أن بعض القادة الذين أصبح لهم نفوذ لم يعد بالإمكان وضع حدّ لهم بسهولة لذا فقد خاف مغبة الأمر، وفي الوقت نفسه فإنّ الجند لم يعد بالإمكان السيطرة عليهم بيسر لأن الناس قد خلدوا إلى الراحة، وركنوا إلى الأرض، وبقي أمر القوة بيد هؤلاء الجند لذا فقد طلب من أخيه المعتصم الإكثار من جلب الأتراك من بلاد ما وراء النهر على شكل مماليك فحياة المدن لم تفسد طباعهم بعد، ويمكن تدريبهم تدريباً عسكرياً كي يمكن تأمين الجند المطلوب عند اللزوم منهم، وتربيتهم تربيةً خاصةً كي يكونوا أداةً طيعةً بيد الخليفة يحمي بهم الثغور، ويضرب بهم خصوم الدولة في الداخل، وبدأت أفواج الترك تفد إلى بغداد حتى ضج منهم سكانها، وما أن أصبحوا جنوداً لهم

نفوذ حتى كثرت تعدياتهم فقد أفسدتهم حياتهم الجديدة، وحدث الخلاف بينهم وبين البغداديين، واضطر المعتصم إلى بناء مدينة «سامراء» والانتقال بهم إلى هناك، ومع الزمن أصبح منهم قادة اشتهر منهم «الأفشين» و«بغا» و«وصيف» وغيرهم، وزاد نفوذهم في الدولة، وأخيراً تآمروا مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل عام ٢٤٧ فانتهى العصر العباسي القوي وهو الذي تكلّمنا عنه في الجزء السابق من هذا الكتاب، وجاء عصر الضعف الذي نتحدث عنه في هذا الجزء ـ إن شاء الله ـ حيث سيطر العسكريون على الحكم.

ومع مجيء هؤلاء الجند إلى مركز السلطة أصبحت الأمور بأيديهم، وبقي الخليفة اسماً أو صورةً في قصره ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات في كثير من الأحيان أو إصدار الأوامر حسب رأي القادة حتى وصف الخليفة أحد الشعراء، فقال:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما تقول الببغا

وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي، والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة، والناس مجبرون على الخضوع سواء أكان الأمر حقاً أم باطلاً، وعليهم أن يقولوا عن كل شيء أنه حق وصحيح وجيد ما دام مفروضاً من القادة، ومن قال غير ذلك كان السيف أقرب إليه من إجابته بالرفض، وهذا ككل حكم عسكري. وقال أحد الشعراء:

لله درّ عصابةٍ تركيةٍ ... جعلوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمدٍ ... وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وهكذا فسد الوضع فلم يأمن الناس بعد ذلك على أرواحهم، ولا على أموالهم، ولا على أعراضهم، وهُدِرت الكرامة، وفقد الناس حريتهم، وضاعت العزة، وأصاب الأمة الذل ومتى وقع ذلك فقدت الأمة مقوماتها، ولم تعد

قادرة على القتال ولا على المجابهة، وأصبح المجتمع مضطراً للخضوع للقادة المتسلطين، وقبول كل رأيٍ يقوله العسكريون، وهذا ما يريدونه عادةً، ولم يعرفوا نتائجه، وإنما يعرفون مصالحهم وبسط نفوذهم وسيطرتهم وإشباع رغبات نفوسهم، هذا في الداخل وهو نفسه ما يريده أعداء الإسلام في الخارج، ولا يختلف الوضع العسكري في أي زمانٍ ولا أي مكانٍ عن هذا أبداً.

واستمر وضع الجنود الأتراك هؤلاء، ما يقرب من مائة سنة ٢٤٧ - ٣٣٤ وقوي بعد ذلك نفوذ جنودٍ من الفرس أو تجمعٍ لآل بويه، وهم من الشيعة، ولم يختلف الأمر كثيراً عن الوضع السابق، فكلا الوضعين عسكري، وأن ما في الوضع العسكري بيّن واضح، بل أستطيع أن أقول: إن الوضع قد زاد سوءاً، إذ عمّت الفوضى بشكل أكبر، وساد الفساد والمنكرات على نطاق أوسع، وكثر الخلاف بين السنة والشيعة، واضطر السنة إلى أن يحتفلوا بأعياد الشيعة، وأن يقوموا ببعض الخرافات والضلالات التي يقوم بها الشيعة في عاشوراء وغيرها. وظهرت إمارات ودول شيعية تطرفت بشكل أوسع من ذلك مثل: إمارة الحمدانيين في شمالي بلاد الشام، والدولة الفاطمية في مصر وفي المغرب من قبل، وسيطر القرامطة على أغلب الجزيرة العربية، وانتشروا في سواد العراق، ووصلوا إلى أطراف بلاد الشام وحدود مصر. وكثرت الدول في المشرق، فكانت الصفارية، والسامانية، والغزنوية، ولم تكن هذه الدويلات سوى صورة مصغرة عما كانت عليه الخلافة في بغداد، فالعسكريون المسيطرون سواء أكانوا أتراكاً أم فرساً.

واستمر وضع الجنود الفرس أكثر من مائة سنة أيضاً ٣٣٤ - ٤٤٧ حيث قوي نفوذ السلاجقة الأتراك الذين كانوا يقيمون في بلاد ما وراء النهر بعد مدينة بخارى بحوالي مائة كيلومتر، وجاءوا على شكل موجات من الجيوش

فسيطروا على البلاد، ودخلوا بغداد، وقضوا على نفوذ البويهيين، وكأن انقلاباً عسكرياً قد وقع على حكم عسكري سابق له، فلم يتغير الوضع كثيراً وإن تغير الأمر نسبياً، إذ كان السلاجقة من أهل السنة، فقضوا على ضلالات الشيعة، وتمكنوا من القضاء على القرامطة في جزيرة العرب وعلى أتباعهم الأخيضريين في اليمامة وسط بلاد العرب، كما قضوا على الدولة الفاطمية، وفي الوقت نفسه فقد انتصروا على الروم البيزنطيين، ووقفوا في وجه الصليبيين، وظهرت إمارة آل زنكي والدولة الأيوبية فأعطوا للخلافة الإسلامية شيئاً من الهيبة أمام أوربا، وإن كان وضعهم لا يختلف كثيراً عن الوضع العسكري إلا بوجود بعض الحكام الصالحين أمثال محمود نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، لكن لم يلبث أن يعود الوضع بعدهم إلى سابق عهده، وانتهى الوضع بالغزو المغولي، وسقطت بغداد عام ٦٥٦ تحت ضربات المغول، وخيانة الشيعة متمثلةً بالوزير ابن العلقمي

ويكمن الخطر والسوء في الحكم العسكري في العلاقات القائمة بين الناس، فعندما يكون الجند طرفاً ويقع خلاف بين الجانبين يكون فرق بين خصمين يحمل أحدهما السلاح والآخر أعزل، يتكلم الأول بسلاحه والثاني بعقله فينتصر السلاح، ويسكت العقل مرغماً، فتنعدم الحرية، ويقع الجور، ويتم كبت الفكر، ويحدث للناس الذل؛ فيكرهون المتسلطين، وتكون المفاصلة بين المسؤولين والرعية، ولكن لا يمكن للسكان أن يظهروا ذلك، وإنما يكون سراً، وتتأخر البلاد اجتماعياً، كما تتأخر اقتصادياً إذ يحرص الطغاة على الإفادة من وضعهم فيجمعون ما يمكنهم جمعه، ناهيك عن أعمال السلب والنهب والتعديات التي يقوم بها القادة العسكريون وأتباعهم سواء أكان عن طريقهم مباشرة أم عن طريق جندهم والذين يقلدونهم أيضاً، ويقل الإنتاج لأن السكان يهملون ذلك كي لا يتعرضوا للنهب أو الدفع، أو الطغيان عليهم، وتضعف المعنويات، فلا يمكن للناس أن يقاتلوا، فباسم من يقاتلون؟ ولمن يحاربون؟ ولماذا يسيرون

للغزو؟ وكيف يقاتل الذليل؟ وهل تفتح البلدان بقطعان من العبيد؟ لذا تضيع البلاد ويدخلها الأجنبي. وقد كان المغول هم الأعداء الداخلون للدولة العباسية، والمزلزلون لها، والقاضون عليها.

وقد لوحظ هذا الأمر من القديم لذا كان الجند يقيمون بعيداً عن أهل المدن في معسكرات خاصة بهم، نائية نسبياً عن تجمعات السكان كي لا يحدث هذا الصدام غير التكافئ، ويحدث عنه انشقاق، رغم أن الجميع في الماضي جند وغير جند كانوا مسلحين، وسلاحهم واحد، غير أن للجند مزية مهما يكن هي أنهم ذاهبون للقتال فلا بد من اللين لهم والتساهل معهم بل والدعاء لهم كي يذهبوا بمعنويات عالية لعله يكتب لهم النصر على أعدائهم، كما لا بدّ من تشجيع أمير الجند وإظهار محبته وطاعته، ويخشى جانبه إذا كان من الذين لا يخافون الله. وحرص الخلفاء في صدر الإسلام على أن يبقى المجاهدون في مدن خاصة بهم كي لا يميلوا إلى الدعة وحب الاستقرار، ومن هنا نشأت مدن الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها لتكون قواعد للجهاد وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم مُصّرت بعد ذلك. هذا مع علمي أن المسلمين في أول أمرهم كانوا على غير مستوى من المجتمعات الأخرى سواء في ماضيها أم في حاضرها إذ كان خوفهم من الله يجعلهم لا يتصرفون في أمر ليس فيه رضا لله، أو ليس فيه إخلاص لله ومراقبة له، ومن أولى بهم أن يُراعي هذا الجانب؟ وتكون المعسكرات أيضاً في العصر الحديث خارج المدن للأغراض نفسها، ويُحذر على العسكريين أن يدخلوا إلى التجمعات السكانية بسلاحهم بل وبزيهم العسكري كي لا يحدث ما تحدثنا عنه.

ولكن حين يكون الحكم عسكرياً فلا بدّ من أن يحمي نفسه بالجند المسلحين الذين يكونون بجانبه في المدن، في مقرّ الحكم، وفي الدوائر الرسمية، ودائماً بأسلحتهم، ويغدون ويروحون بها، وهنا يقع الخطر و.... بل وبلباسهم العسكري دائماً كي يُعرفوا فلا يُؤذون، بل ويُفضلون ذلك على طريقة الشباب

الذين يحبون التباهي، والجند شباب، وذلك كي يرهبهم الناس، ويتعرفون لما يحلو لهم، ويدعمهم قادتهم في كل شيء كي يضمنوا جانبهم، ويكسبوا طاعتهم، ويُنفذوا أوامرهم وقت الشدة وأثناء الملمات، وهنا يقع الفساد، وتعمّ المنكرات، ويحدث الصدام الشعوري والعملي.

كما يكمن الخطر في المسؤول نفسه فهو يملك الجند جميعاً، وعليهم طاعته سواء أكانت طاعة الأمير وأولي الأمر، أم طاعة الجندية التي تفرض ذلك، أم طاعة جبرية في الوقت الحاضر إذ ألزم الجند عليها سواء أكانت في غير معصية أم في معصية، فالقائد يبقى قائداً باستمرار والجندي يبقى جندياً على الدوام، ومعنى ذلك أن القائد يتصرّف بأمور الجندي، ويكلفه بما يحلو لنفسه، ولا يمكن ردّ أمر له، أو مخالفته، فإن ذلك يؤدي الى الموت وخاصة أثناء الحرب أو الحركة، وتكون أوامر القائد حسب الهوى، ويقلّد القائد الأقل رتبة من هو أعلى منه وهكذا.... والضابط قد تربّى على السيف وعاش معه فلا يُحكّم عقله، وإنما ينطق بالسيف، ويتعامل معه، وينفّذ به رأيه وهواه.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد قادة عسكريون صالحون على مدار التاريخ، فلقد وجد أمثال محمود نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي و.... كما ذكرنا، ولكن هذه نسبة قليلة، وما أن ينتهي الضابط الصالح حتى يرجع العرف العسكري، بل إن العسكري الصالح قلما يطول أمره لأنه يقف أمام أهواء الذين دونه، فيشعرون بالضغط والكبت فيعملون على إزاحته بصورة أو بأخرى. ومن هنا كان أصحاب القوة من العسكريين في العصر العباسي الثاني هم سبب الضعف الذي أصاب الأمة سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم فرساً، فالسيف واحد بأية يد كان، وذلك رغم تبجح أصحاب العصبيات الثلاثة سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم فرساً فإن ذلك تبجح لا يستند الى حقيقة وإنما هو فخر جاهلي بأقوامهم فالعرب يعدّون سبب الضعف الذي أصاب الدولة الإسلامية إنما يعود الى تسلّط الفرس والترك، والفرس والترك يعدّون سبب

ذلك الضعف إنما يعود إلى الزعامة العربية التي غدت ليست كفئاً لذلك المركز الذي تتبوأه.

٢- نشوء الدويلات

المسلمون أمة واحدة أينما كانت ديارهم، ولهم خليفة واحد، ولا يصح أن يوجد أكثر من خليفةٍ من آنٍ واحدٍ، وإنما توجد ولايات تتبع الخليفة، وليس لها حدود ثابتة، ومصلحة الدولة هي التي تُحددها، وبقيت الدولة الإسلامية على هذه الصورة أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده، واستمرت كذلك في العهد الأموي مع وجود خليفتين حقبةً قصيرةً من الزمن، ولكن نعدّ نحن أن أحدهما كان ثائراً على الخليفة الشرعي وهو عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، فلما جاء العهد العباسي، ولوحق الأمويون فرّ أكثر من نجا منهم من القتل إلى مناطق نائيةٍ أو حصينةٍ وعاشوا بتكتّمٍ شديدٍ كبقية أفراد المجتمع، وإذا وجد أحدهم الفرصة مواتية له ظهر وبرز، وكان أن وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، واستطاع أن يصل إلى إمرتها بعد صعوباتٍ تجاوزها، ولم يفكر في الانفصال عن الدولة الإسلامية وإن كان قد اعتصم فيما آلت إمرته عليه، بل بقي يدعو للخليفة العباسي مدة عشرة أشهر، ولو أن العباسيين أمهلوه لكان خيراً، ولما تجزّأت الدولة الإسلامية في وقتٍ مبكرٍ إلا أن محاولة أبي جعفر المنصور في تخليص الأندلس من الداخل وقتله وإرسال العلاء بن المغيث الجذامي لهذا الغرض عام ١٤٦ قد جعل الداخل يقطع الخطبة عن العباسيين أولاً ثم ينفصل عنهم، ولكنه لم يعلن نفسه خليفة وإنما احتفظ بلقب أمير، واستمر الأمر كذلك في أبنائه وأحفاده مدة مائة وثمان وسبعين سنة ١٣٨ - ٣١٦، وهي مدة طويلة بالنسبة إلى دولتين مختلفتين بل إن إحداهما انتزعت الحكم من الأخرى، وقتلت من أبنائها الكثير وشرّدت كثيراً، وفي عام ٣١٦ أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفةً، وذلك بعد أن حكم الأندلس مدة ستة عشر عاماً وهو أمير، كل ذلك في سبيل المحافظة على وحدة المسلمين، وتمشياً مع العقيدة الإسلامية التي

تقضي بعدم وجود خليفتين في وقتٍ واحدٍ. وكذلك قامت دولتان للخوارج في المغرب الأوسط حوالي عام ١٤٠ إحداهما للأباضيين في «تاهرت»، والأخرى للصفرية في «سجلماسة»، ورغم أن الخوارج يختلفون فكرياً مع أهل السنة إذ يكفّرون من لم ير رأيهم، ومع ذلك فلم تعلن هاتان الإمارتان الخلافة. وقامت دولة الأدارسة عام ١٧٢ في المغرب الأقصى على يد ادريس بن عبد الله ابن حسن ومع أنه كان قد نجا من معركة «فخ» عام ١٦٩ في أحد شعاب مكة، وقد قتل فيها كثير من أهله وذويه، وفرّ ناجياً بنفسه، خائفاً من تعقّب العباسيين وأنصارهم، وتحمّل الصعوبات، ووجد في طريقه المشقات، ولما تمكّن من أن يقيم دولة بما وهبه الله من إمكانات لم يُعلن نفسه خليفة. وتأسست دولة الأغالبة في المغرب الأدنى عام ١٨٤ ولكنها بقيت تتبع العباسيين، واستمرت إمارةً عباسيةً أو ولايةً تتبع بغداد ولكنها وراثيةً في ولاتها.

إذن مضى العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة، وجميعهم يتبعون خليفةً واحداً، وإن وجدت ولايات لا تقرّ بالخليفة القائم بالأمر، أو تختلف معه قليلاً أو كثيراً، ويمكن أن نعدّها إمارات على خلافٍ موقتٍ مع أمير المؤمنين، هذا رغم ما يقال عن العداء بين العباسيين والأمويين، وصلة العباسيين بالفرنجة أعداء الأمويين، وصلة الأمويين بالبيزنطيين أعداء العباسيين، لكنها في الواقع لم تكن أكثر من صلات مجاملة وتبادل هدايا، ووعود لم ينتج منها أي شيء من حروب، أو لقاء مؤمنين مع كافرين ضد مؤمنين آخرين.

وإذن وجدت إمارات في العصر العباسي الأول، وكانت هذه الإمارات محصورةً في مغرب الدولة الإسلامية، وقد أسس بعضها العرب كما هي الحال في دولة بني أمية في الأندلس ودولة الأغالبة في تونس، والأدارسة في فاس في المغرب الأقصى، كما أسس بعضها الآخر البربر كما هي حال دولتي الخوارج، أو يمكن أن نقول بأسلوب آخر: إن عناصر سكان الدولة الإسلامية في المغرب

هم الذين أسسوا هذه الدويلات، وهم من العرب والبربر، أو أن هذه الدول قد نشأت نتيجة طموحات عربية وبربرية.

أما في العصر العباسي الثاني فقد نشأت دويلات في مشرق الدولة الإسلامية إضافة إلى ما نشأ في مغربها، ولا شك فإن عناصر سكان هذا الجزء هم الذين أقاموا هذه الدويلات، ولما كانت أكثرية هذه العناصر من الفرس والترك لذا يجب أن نتوقّع مسبقاً قيام الفرس والترك بتأسيس هذه الدول، ويجب ألا نستغرب ذلك، ولا نضع اللوم على هؤلاء السكان باسم العصبية الجاهلية منا فهذا أمر طبيعي له مثيله في بلاد المغرب بل كان أسبق منه، وإن هذه الدول لم تقم حتى زاد ضعف الدولة العباسية، وعندما كانت قوية أو كان الحكم قوياً لم يقم الترك والفرس بمحاولاتٍ لتأسيس مثل هذه الدول وإنما الذي أقام الدول هم العرب والبربر فقط، وربما نعت بعضهم هذا التأخر بالجبن والضعف على حين كان العرب والبربر أكثر شجاعة في هذا الميدان، ولكن يمكن أن نقول: إنه لا داعي لقيام دولٍ صغيرة عندما يكون الحكم المركزي قوياً، ولكن إذا ضعف فقد يضطر بعض الطامحين للعمل على تأسيس دول تكون قويةً لتقف في وجه العدو أو لتعيد إلى الدعوة شبابها وانتشارها، وإعادة الفتح، ودبّ الروح المعنوية في حياة السكان من جديد كما كان في الدولة الغزنوية التي أعادت الفتح في بلاد الهند تارةً أخرى وعملت على نشر الإسلام هناك، وإذا كان عناصر السكان هم الذين يؤسسون الإمارات المستقلة إلا أنه يمكن أن يأتي غرباء عن المنطقة وينجحون في إقامة مثل هذه الإمارات وذلك إذا كان لهم شهرة سابقة أو حكم مثل عبد الرحمن الداخل في الأندلس، أو مركز ديني مثل ادريس بن عبد الله في المغرب الأقصى، أما الولاة الذي يستقرون في ولايةٍ مدةً من الزمن ثم يستقلون فيها وينفصلون مثل ابراهيم بن الأغلب فتعدهم من عناصر السكان الأصليين حيث أقام بين أظهر السكان مدةً، ثم أفاد من مركزه فتشكل حوله قوةٌ تحدثنا عن مثلها في الجانب العسكري.

قامت في الشرق الإسلامي الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠) إذ برز يعقوب بن الليث الصفاري بحربه ضد الخوارج، وزهده الذي عُرف به، وإذا كانت هذه الدولة قد قضت على الإمارة الطاهرية عام ٢٥٩ إلا أن الدولة الطاهرية تعدّ إمارة عباسية لأنها بقيت مدة بقائها تعترف بالخليفة العباسي وتدين بالولاء له على حين أن الدولة الصفارية قد قطعت الخطبة للخليفة وحاربته وقصدت بغداد، ولكن جيشها قد هزم عندما رأى الخليفة أن يخرج بنفسه لقتالها. وقامت الدولة السامانية الفارسية (٢٦١ ـ ٣٨٩) ومقرها سمرقند، وقامت الدولة الغزنوية التركية في غزنة (٣٥١ ـ ٥٨٢)، هذا إضافة إلى دول أخرى أكثر صغراً وأقل أهمية كالدولة الطاهرية التي تحدثنا عنها عرضاً وهي في خراسان، والدولة العلوية في طبرستان و.....

وكذلك زادت الدول المستقلة في مغرب الدولة وخاصةً في مصر، أو أن الدول المستقلة بدأت تتقدم نحو الشرق حيث قام المماليك يؤسسون لهم إمارات فالدولة الطولونية (٢٥٦ ـ ٢٩٢) التي أسسها مملوك تركي هو أحمد بن طولون، والدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨) التي أسسها محمد بن طغج الإخشيدي، وهو أيضاً من أصل مملوكي من فرغانة إذ كان يُلقب ملوك فرغانة بالإخشيد، ولا نستغرب تأسيس دول لهم في مصر إذ أن سكان هذه المنطقة من طبيعتهم أن يقرّوا لأي إنسانٍ بالطاعة إذا تسلّم الزعامة عليهم أو أظهر قوة أمامهم، ويدينون بالولاء له، ولم تقم حكومات للمماليك في أي جزء آخر من المنطقة العربية في الدولة الإسلامية، وصحيح أن دولة المماليك توسّعت حتى شملت أجزاءً كبيرةً من بلاد الشام والحجاز، ولكن كانت هذه المناطق ضمن توسّعها ولم تكن مقراً لها، كما لم يكن أهلها جندها الذين تُقاتل بهم، وتضرب خصومها بأيديهم.

وظهرت دول أيضاً وسط الدولة الإسلامية إذ قامت دولة بني حمدان في الموصل (٣١٧ ـ ٣٦٩) وفي حلب (٣٣٣ ـ ٣٩٢) وبنو حمدان من قبيلة بني

تغلب العربية. كما قام الأيوبيون في الشام (٥٦٧ ـ ٦٤٨) والأيوبيون جزء من سكان هذه المناطق فهم من الأكراد الذين يقيمون في جهات «اربيل» شمالي العراق، وقد تولوا مسؤولية الدفاع عن بلاد المسلمين، وقد كانوا أشداء بطبيعتهم سكان جبال، لم تفسد المدنية طباعهم بعد، بل إن صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ قد نقل أعداداً من سكان الجبال من هؤلاء الأكراد ووضعهم في المناطق المتاخمة للأجزاء التي سيطر عليها الصليبيون كخط للمواجهة، أو لقتال الصليبيين وحماية الأجزاء الأخرى من خطر هؤلاء الدخلاء، أو كي لا يتمكّن الصليبيون من التوغل إلى الداخل. وقد أسكن الأكراد في القلاع القائمة أو شيّد لهم قلاعاً خاصة بهم، ولا تزال بقاياهم قائمة إلى الآن في مدن هذه المناطق أو التي كانت خط دفاع، وفي قلاع تلك الجهات، والبقاع ذات الأهمية، وقد امتزجوا بالسكان، واستعربوا، ونسوا لغة الأكراد ونجد منهم في شمال اللاذقية، وحماه، ودمشق، ودرعا، وصفد، والكرك ويعرفون بذلك حتى الآن.

وقام القرامطة وهو تعريف لكل أولئك الذين حقدوا على الأغنياء المرفهين خاصة وعلى المجتمع عامة لوضعهم الاجتماعي الذي عاشوا فيه، فدعوا سراً إلى شيوعية المال والنساء، واستغلوا حقد زرّاع الأجزاء الجنوبية من العراق حيث كثر الزنج هناك، كما استغلوا جهل البداة، ومراهقة الشباب ومتطلبات الطرفين، وأسسوا على كواهل هذه المجموعات دولتهم التي شملت أغلب أجزاء جزيرة العرب، ووصلت إلى أطراف الشام وحدود مصر، ولا أستطيع أن أؤكد أصول زعماء هؤلاء، وإنما جمعتهم كلمة قرامطة، وهم أخلاط من أجناسٍ شتّى. وهكذا لم تبق رقعة من رقع الدولة الإسلامية من استقلال إمارة فيها حتى أن مركز الخلافة قد خضع للسيطرة عليه أو لمجموعة حكمت تحت اسم الخليفة وحل سيدها لقب أمير الأمراء، أو سلطان، أو ملك أو.....

ولا شك فإن قيام الدول المنفصلة عن جسم الخلافة كان على أطرافها أكثر

ـب في وسطها فنجد في المغرب دولة المرابطين (٤٤٨ - ٥٤١) ودولة الموحدين (٥٢٤ - ٦٦٧)، وفي اليمن دولة بني زياد (٢٠٤ - ٤٠٧) في زبيد، ودولة بني نجاح في زبيد أيضاً (٤١٢ - ٥٥٤)، ودولة الصليحيين في صنعاء (٤٢٩ - ٥٣٤)، وهم من الاسماعيلية، ودولة بني مهدي في زبيد (٥٥٤ - ٥٦٩)، ودولة بني زريع في عدن (٤٧٦ - ٥٦٩)، ودولة بني رسّ (٢٨٠ - ٧٠٠) وهم الأئمة الزيديون بصعدة وصنعاء، كما قامت دولة بني رسول عام ٦٢٦ واستمرت إلى ما بعد المرحلة التي نحن بصدد دراستها، وفي الهند دولة الغوريين (٥٤٣ - ٦١٢)، وفي بلاد ما وراء النهر الدولة الخوارزمية و.... هذه الدول كان لبعضها شأن لذا فقد درست منفصلة عن الخلافة الإسلامية لذا فقد حدث تشتت في تاريخ هذه المرحلة هذا من جهة، ومن جهة ثانية أهمل تاريخ مركز الخلافة، وعرف تاريخ هذه الدول المتناثرة فظهر الضعف بصورة أكبر وكأن تاريخ دويلات.

وإن أول مرة تمزقت فيه عرا الإسلام فوجد خليفتان في آن واحد عام ٢٩٧ عندما قامت الدولة العبيدية في المغرب، وادعت النسب الفاطمي كناحية دينية، وهي بذلك كغيرها من دول القرامطة لا تجد أساساً تستند عليه لتقف على أرجلها إلا ذلك الإدعاء، وآل البيت من هذا براء، وفي الوقت نفسه فإن النسب لا يُغني شيئاً، فلو كان رجل صحيح النسب وغير ملتزم بمنهج الله الذي سار عليه رسول الله وأصحابه فلا وزن له في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ونادى نوح ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (١). ولم تجد هذه الدولة العبيدية قاعدةً صلبةً لها في بلاد المغرب فاتجهت نحو مصر لا للتوسع فقط وإنما لتأخذ مصر

(١) سورة هود: الآيتان ٤٥ و٤٦.

حيث تجد هناك الخضوع التام من أهلها - كما عهدنا ذلك - وتمّ لها ما أرادت، وحصل ما توقعته من وداعة السكان وحبهم للسلم أو للاستسلام، هذا رغم ما كان يلقى العبيديون من مناهضة كلامية على شكل شعر أو قصص ساخرة فيها تبكيت وتجريح بنسبهم، وقد يصل ذلك إلى مسامع الخليفة دون معرفة مصدره. وأصبح في الدولة الإسلامية خلافتان إحداهما في بغداد والأخرى في المهدية وذلك مدة تسع عشرة سنة (٢٩٧ - ٣١٦)، ثم غدا ثلاثة خلفاء، إذ أضيفت خلافة في قرطبة عام ٣١٦، وبقي ذلك مدة سبع وثمانين سنة (٣١٦ - ٤٠٣) إذ انتهت خلافة قرطبة، وجاء دور ملوك الطوائف، وبقي خليفتان مدة أربع وستين ومائة سنة (٤٠٣ - ٥٦٧)، وعاد الأمر بعد ذلك إلى بقاء خليفة واحد في بغداد حتى سقوط الدولة عام ٦٥٦، وينتهي معها العصر العباسي الثاني الذي هو موضوع بحثنا في هذا الجزء من الكتاب.

ومع هذه الدول المتعددة إلا أنه لم يحدث من إحداها مساعدة كافر ضد أخراها، بل يمكن أن نقول: إنه كان يوجد تعاون حسب الإمكانات الضعيفة ونذكر على سبيل المثال مراسلة صلاح الدين الأيوبي في المشرق إلى يعقوب بن يوسف الموحدي في المغرب، وهديته له، وطلبه دعمه لمحاربة الصليبيين، وقد فعل ذلك وجهز المنصور يعقوب بن يوسف ثمانين ومائة سفينة، وحال دون وصول الصليبيين لقتال صلاح الدين، ويبرهن ابن خلدون بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[1]. كما يجب ألا ننسى أن الخلافة العباسية والعبيدية قد عملت كلاهما لقتال الصليبيين رغم ما بينهما من عداء.

وأخيراً يمكن أن نقول: إن وجود هذه الدويلات إنما يعود إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية، وإن وجود الدويلات قد زاد في الضعف، أو هو

(١) العبر: ابن خلدون الجزء السادس ص ٤٩٥.

ـب من أسبابه، ومرد كل ذلك إلى ضعف الإيمان في النفوس، وتراجع الفكر الإسلامي من العقول، وعدم فهم طبيعة الإسلام في الجهاد، وانصاف الأجراء فإن عدم إنصافهم قد دفعهم إلى السير وراء أصحاب المنكرات والأطماع مجرد ادعائهم الانتساب إلى آل البيت مع وضوح ضلالهم وضلالاتهم، كما دفعهم إلى القيام بحركات ضد الدولة استغلها أهل السوء، وقد تعيد ذلك إلى الجهل الذي يؤدي إلى ذلك، ولكن الجهل ليس هو إلا من ظاهرات ضعف الإيمان، وكل ذلك أدى إلى وجود أكثر من خليفة في بلاد المسلمين وتعدد الدول المنفصلة عن جسم الخلافة.

٣ ـ نتائج الحضارة الإسلامية

رفرف لواء العدل والحق فوق الأراضي التي حكمها المسلمون فعاش الناس في رغد ورخاء وأمن وطمأنينة، وهذا ما فسح لهم المجال كي يركبوا متن الحضارة، وهل الحضارة سوى تحقيق المعاني الإنسانية كي ينعم أفراده بالسعادة؟!

وعرف المسلمون من عقيدتهم معنى الحياة ومهمة الإنسان فيها فانطلقوا يؤدون دورهم فعملوا على إنهاء الظلم من وجه الأرض، وفي إخراج سكان هذا الكوكب من عبادة العباد، وعبادة المال، وعبادة الشهوات إلى عبادة الله الواحد القهار الذي لا شريك له ولا معبود سواه، وخرجوا صادقين مخلصين من مراكزهم الأول يدكون عروش الظلم، ويقدمون للمجتمعات المعاني الإنسانية فكانت الفتوحات الإسلامية الواسعة، وحصل المسلمون فيها على ما يريدون من تحقيق مهمتهم في الحياة فنال الشهادة منهم من نالها، وعاش بنعيم بعد النصر من كتب الله له الحياة، هذا بالإضافة إلى المغانم الدنيوية الأخرى والتي لا تذكر أمام ما ينتظر الإنسان من جنات النعيم في الآخرة، ومن هذه المغانم الأموال، والأملاك، والأرض، والخدم، والسبايا، وإذا كانت هذه كلها قد أفاد منها المسلمون في عصر صدر الإسلام إلا أنهم كانوا يُطبقون فيها شرع الله، فكانت الأموال تُنفق في سبيل الله، والأملاك والأرض يذهب جزء كبير من مواردها في سبيل الله، ويُعامل الخدم المعاملة الإسلامية الطيبة من حيث الحقوق والرفق بهم، وإطعامهم، وكسوتهم، ومبيتهم، وكل جوانب حياتهم حتى لم يعد يشعر هؤلاء الخدم أو الرقيق أنهم من طبقة خاصة، ولم يذكروا بعد ذلك حياتهم الأولى بشيء من الفارق، ولعلنا نذكر كيف رفض زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو فتى يافع أن يذهب مع أبيه وعمه وفضّل البقاء عند

مولاه محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والسلام لما رأى منه ومن معاملته، وصحب أبوه وعمه من إنسان يؤثر العبودية - بمفهومهم - على الحرية. وفي الإسلام لا توجد طبقات اجتماعية وإنما يشعر الناس جميعاً في ظل الإسلام أنهم متساوون ضمن أسرة واحدة سادَاتهم كأبائهم بهم رحماء، ويتزوجون ويعيشون مع زوجاتهم ككل أسرة في بيتهم لهم واجبات وعليهم حقوق، وككل أفراد المجتمع لا فرق بينهم ولا تمييز. وبهذا فقد استفاد المسلمون بما منحهم الله بالطريقة السليمة التي لا عوج فيها ولا اختلال والتي يجب أن ينعها بها الإنسان.

وتوقفت الفتوحات لأمرٍ يريده الله، ولم يُنه المسلمون مهمتهم كاملةً في الحياة إذ بقيت بعض عناصر الظلم متحكمّةً في مناطق كبيرةٍ، وبقيت بعض الطواغيت متسلّطة في بعض جهاتٍ من العالم، وانصرف المسلمون عندها إلى حياتهم الخاصة، منهم من انصرف إلى تجارته يُنمّيها فكان تاجراً أفاد من دنياه بما جنى من أرباح، وأفاد لأخراه بما عمل وقدم وبذل في سبيل نشر الإسلام، إذ انتشر الإسلام بالتجارة والدعوة كما انتشر بالجهاد والفتح، ومنهم من انصرف إلى أرضه فأحياها وعمرها فخدم نفسه بما حصل عليه وخدم الأمة بما قدم لها من خيرات الأرض وبركاتها، ومنهم من اتجه إلى العلم فنهل منه ما شاء الله له أن ينهل، ودفع بحركة العلم شوطاً إلى الأمام، فتُرجمت علوم السابقين وأضيفت إليها إضافات واسعة، وتفتقت عبقريات واستنبطت أحكاماً ووضحت أموراً على غاية من الأهمية، وتسابق الحكام إلى تقريب العلماء وتشجيعهم على البحث، وتأسيس المكتبات، وتقديم الدعم والعون لأهل العلم في كثير من الأحيان، وإن كان بعض هؤلاء العلماء يرفضون كل شيء، وأحياناً حتى الصلة، فكان نتاج ذلك العلم ثروة ويساراً وخيراً مدراراً، وكانت عواصم الدويلات ومراكز الخلافة مراكز إشعاع للعلم ومناراً يُنير درب السالكين، ومن الحكام من بنى وشيد، بنى للعلم دوراً وشيد قصوراً، وعمّر مساجد، وأسس

خانات[1] على طرق المسافرين لإيوائهم وراحتهم، وتنافس الأمراء في ذلك فكانت حواضرهم مُتعة.

هذه الثمار كانت نتاج الحضارة التي سبقت هذا العصر وليست هي الحضارة كما يُصوّرها لنا الماديون ويوهموننا بذلك.

وفي الوقت نفسه فقد انصرف بعض الناس إلى ترفهم ولهوهم فغنّوا وطربوا، وغنوا وشربوا، وعاشوا في دوامة الحياة يدورون معها أو تدور بهم، وعبّوا من الهوى ما شاء لهم هواهم أن يعبّوا كل هذا على حساب ما جُلب من رقيق كانوا بالأمس أحراراً، فكان هذا الرقيق أداة إنتاجهم وعملهم، وخدم لهم ومجونهم، إذ زرع لهم الأرض كما رغبوا، وصنع لهم ما بغوا، وعمل في مختلف مجالات العمل، يدور لهم كالرحى ويأخذون ما ينتج، وعاشوا هم على ما يبذل هذا الرقيق فكان يشقى ويسعدون، فنقم الرقيق على أسياده وتصرفاتهم وحقد عليهم، ثم تحرّك وثار فكانت الفتن وكان البلاء.

ويبرز هؤلاء اللاهون في المجتمع لنعيمهم أو شقائهم الذي هم فيه حتى أعطوا العصر سمتهم فأضيفت هذه الرفاهية - نتيجة الجهل - إلى نتاج ما سبق من حضارة، وظُنّ أنه جزء من نتاجها وثمارها والواقع أنه كان الترف والبطر، وكان الفساد، وكانت النتيجة الضياع والانهيار لا للحضارة التي ظهرت من قبل فحسب وإنما للأمة جميعاً، إذ من أخذ نعم الله وأدّاها حقها كانت له خيراً وكانت حضارةً، ومن بذل ذلك في سبيل هواه كانت النعمة نقمةً، وكانت العاقبة شراً ليس عليه فقط وإنما على أفراد الأمة جميعاً الذين لم يأخذوا

(١) الخان: مكان يبنى في المدن، وعلى طرق المسافرين الرئيسية، ينزل فيه المسافرون لمدة ثلاثة أيام، ويقدم لهم الطعام والشراب، والمأوى، وبالقرب منه مكان تأوي إليه الرواحل يقدم إليها العلف كل ذلك على حساب الدولة، وغالباً ما يكون بينه وبين الآخر مرحلة، وهي أربعون كيلومتراً تقريباً.

على يده وقبروا دعوته من قبله، وكان ذلك دماراً وبؤساً وشقاءً.

وجاء أمر الله الذي لا مرد له فالقتل من القتل، وطغى من طغى حتى تولى أمرهم جميعهم عدوهم ﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[1].

(1) سورة الأنعام الآية ١٢٩.

٤- الحركات الباطنية

الحركات الباطنية حركات سياسية تنشئها هدفها القضاء على الإسلام بأية صورة، ويُعد مُحركها بقايا الجماعات الدينية المتعصبة التي قضى الإسلام على نفوذها أو على دولها، ومن هذه الجماعات اليهود، والنصارى، والمجوس، فقد قضى الإسلام على نفوذ اليهود في المدينة المنورة أولاً ثم في الجزيرة العربية عامة، وأزال الوجود النصراني من أرض العرب وقاتل سادتهم الروم البيزنطيين وأزاحهم عن مواقعهم في بلاد الشام والشمال الإفريقي، وأنهى دولة المجوس في فارس وفي كل مناطق نفوذها، هؤلاء هم قطب الرحى بالنسبة إلى الحركات الباطنية، وإذا كان المجوس هم محورها فإن اليهود هم المخططون لها، وكان النصارى مؤيدين لها.

بدأت الحركات الباطنية في وقتٍ مبكر، ولكنها كانت ضعيفةً، وكان أثرها محدوداً للقرب من عهد رسول الله ﷺ، وللوعي الإسلامي الذي كان موجوداً. بدأت هذه الحركات تعمل على تهديم الإسلام من الداخل فادّعى عبد الله بن سبأ اليهودي الإسلام، وبدأ ينتقل في الأمصار يثير الفتنة، ويؤلّب على سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، الخليفة الراشدي، ولم يجد بُدّاً من يتخذ أحد الصحابة ستاراً يستتر به، ويدعو له، فكان يفضّل - على زعمه - سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم قال بألوهية عليّ - كرّم الله وجهه - ورجعة محمد ﷺ، فأحدث فتنة - قبّحه الله -، كما نشأت الكيسانية التي قالت بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) إلا أن أثر هاتين الحركتين قد بقي محدوداً وانتهى سريعاً.

فلما مضى وقت على بدء الإسلام، وبدأ الضعف يظهر على بعض أبنائه بدا حقد هؤلاء الأعداء واضحاً، ووجدوا فرصةً لهم في أن أحفاد صحابة رسول الله ﷺ قد كثروا وتفرّقوا في الأمصار فيمكن أن ينتحل بعضهم الانتساب

إلى أحدهم، ووجدوا في الانتماء إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مفيداً لهم ويحقق أغراضهم لما لسيدنا عليّ من مكانة في نفوس المسلمين، فهو ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره على ابنته فاطمة رضي الله عنها، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنة، ومن المقاتلين الأشداء، الذين بذلوا الكثير في سبيل الإسلام، وله شيعة وأنصار يمكن الإفادة منهم وتسخيرهم لأغراضهم، وكذا كان ابناه الحسن والحسين رضي الله عنهما من زوجه فاطمة رضي الله عنها، فهما حفيدا رسول الله ﷺ وعقبه في ذريتهما، وهما من المبشرين بالجنة. فبدأ الأعداء ينتحلون نسباً إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وخاصةً عن طريق ابنه الحسين رضي الله عنه لأن استشهاده في كربلاء كان له صدى واسع في نفوس المسلمين، فعززوا الحركة بأساليب كثيرة، واستفادوا من ذلك لذا كان أكثر أتباعهم من أنصار سيدنا علي رضي الله عنه أو كانت هذه الحركات تحمل صفة أنصار علي وليست هي كذلك، والتحق بها بالفعل الجهلة من أنصار آل البيت، وهم لا يدرون ماذا يُراد بهم!

ويجب ألا ننسى اتصال أحفاد الحسين رضي الله عنه بالنسل الفارسي، إذ أن ابنه علي زين العابدين الذي عقبه منه أمه أم ولد تدعى سلافة أو سُلافة أو غزالة وهي بنت ملك الفرس يزدجرد.

واتخذت هذه الحركات الباطنية كل وسيلة لتجميع الناس حولها سواء أكانت هذه الوسائل شريفة أم غير ذلك. كان زعماء الحركات الباطنية يظهرون الزهد في بداية أمرهم كي يُقبل عليهم الناس، ويدّعون الانتساب إلى أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنهما، إذ أن المجتمع الإسلامي لا يخضع غالباً إلا للذين يُعرفون بتقواهم أو على الأقل يخضع للأتقياء أكثر مما يخضع لغيرهم، حتى إذا ما دان لهم أتباعهم، ووثقوا بهم أخضعوهم لمرحلة ثانية فثالثة إلى أن يصلوا بهم إلى مرحلة يرفعون فيها عنهم التكاليف الشرعية، وأخيراً يحللون لهم ما حُرّم عليهم من أموال ونساء.

ووجدت الحركات الباطنية في إباحة النساء وسيلةً لها كي يلتف حولها الناس، وبهذه الوسيلة تستفيد من الشباب المراهقين الذين يسيرون وراء إرواء غرائزهم، ومن الزرّاع الذين يعملون لغيرهم وهم غرباء عن مناطقهم، ومن الأرقاء، والزنج الذين جلبوا للعمل في جنوبي العراق، وهؤلاء جميعاً يحقدون على الحكام والأثرياء، ويرون أنهم يحصلون على ما لا يحصلون هم، ويعيش أصحاب الأملاك في الظلال الوارفة ويُهيأ لهم كل شيء عن طريق الخدم، بينما يعيش الزنج في لظى الشمس اللافحة، ولا يحصلون على شيء، لذا فقد دعت أكثر الحركات الباطنية وخاصة القرامطة منهم إلى شيوعية النساء، ولكن سراً، ولم تثق بهم بعد أن يمرّوا بعدة مراحل كي لا يثور عليهم المجتمع الذي يعيشون فيه إذ في ذلك انتهاك للحرمة، ولأعراف المجتمع وتقاليده، وخروج على عقيدته وهذه الناحية المهمة.

وكذلك فقد عمل القرامطة على شيوعية المال للإفادة من الفقراء والبداة وجماعاتٍ كثيرة. وإضافةً إلى هذا فقد اعتمدت الحركات الباطنية على الإرهاب كي يخافها الناس ويرهبوها ويسيروا وراءها، كما نظمت نفسها تنظيماً دقيقاً، ليبقى أفرادها مجهولين وسط مجتمعهم الذي لا يؤمن بهذه المبادئ، فكانت التقية بصورةٍ عامةٍ سمةً لها، وأمكن ذلك لأتباعها أن يُظهروا غير ما يخفون أو أصبح بإمكانهم التلوّن بصورٍ شتى.

واستغلت الحركات الباطنية حقد الأرقاء على ساداتهم، والحالة الاجتماعية التي وصل إليها المجتمع من الضعف والتفكك والفوضى وسيطرة الجند فأعلنت نفسها وقامت بحركاتها، وكان أكثر أتباعها من الشباب الذين يُغريهم دقة التنظيم والقوة وإرواء الغرائز، وهم دائماً الوقود الرئيسي للحركات، لذا سخّر الباطنيون الشباب لتحقيق مآربهم.

٥- الغزو الصليبي

بعد أن تقدّم المسلمون في البلاد التي كانت تخضع للروم سواء في بلاد الشام أم في الشمال الإفريقي أم في الأندلس والتي تنتشر فيها النصرانية تحت تأثير حكامها سواء أكانوا من الرومان أم من البيزنطيين، وبعد أن بدأت الفتوحات الإسلامية تتوسع كل يوم وتضم أرضاً جديدة إلى ديار الإسلام، وبعد أن أحسّ النصارى بالهزيمة وخيبة الأمل بصورة لم يكونوا يتوقعونها، وشعروا بقوة المسلمين والروح المعنوية العالية التي يحملونها بشكل ما اعتادوا أن يروه، ولم يكونوا يحلمون به، بعد كل هذه آثرت النصرانية الهدوء ومحاولة الدفاع عن مواقعها التي تراجعت إليها في بلاد آسيا الصغرى، والقيام أحياناً ببعض الغارات لا بقصد الهجوم المعاكس ورد الفعل لاسترجاع ما فقدته، ودحر المسلمين عما أخذوه وإنما بغاية إثبات الوجود كي لا يندفع المسلمون بقوة أكبر لظنهم أن من أمامهم قد انتهى، أو ليبقوا على تخوّف وحذر من ردّ فعل فلا ينطلقون.

وانتظرت النصرانية مرور موجة الاندفاع الإسلامي كي تهدأ حتى تقوم برد الفعل، وفعلاً فقد توقفت الفتوحات الإسلامية، وبدأت الخلافات تظهر بين المسلمين وبدأ الضعف يبدو عليهم هنا وهناك فحاولت النصرانية عندها أن تقوم برد الفعل. وإذا كانت النصرانية منقسمة أيضاً بعضها على بعض فالأرثوذكس في بيزنطة ومقرهم القسطنطينية على خلاف مع الكاثوليك الذين يتبعون للبابا ومقرهم روما، ويقيم البابا في حاضرته الفاتيكان إلا أن كلا الفريقين يحاول القيام برد الفعل من جهته، فالبيزنطيون يحاولون التقدم في المشرق على حين تحاول روما التقدم في الأندلس، وكلاهما يساهم أيضاً بحرب المسلمين في جزر البحر الأبيض المتوسط التي وثبها تخضع للقوة الإسلامي

لما شعرت بيزنطة أن العباسيين ضعف أمرهم، وانفصلت الإمارات عنهم،

والبرى بعضها يقاتل بعضاً رأت أن الجو أصبح ملائماً لرد الفعل لكنها أحست بهذا الوقت بقوة جديدة تتقدم من الشرق، وتحمل روحاً قتالية كبيرة، وتندفع باسم الإسلام نحو الغرب تلك هي مجموعة السلاجقة الأتراك، وعندما أرادت بيزنطة أن تتصدى لهم وتقف في وجههم هُزمت هزيمة منكرة في «ملاذكرت» عام ٤٦٣ هـ، وهذا ما جعل امبراطور بيزنطة «ميخائيل السابع» يتجه نحو روما لتصفية الجو بين الكنيستين المختلفتين، أو يعقد اتفاقاً ودّياً بينهما، ويستغلّ مناسبة انتخاب الكاردينال «هيلد براند» بابا في روما، وهو الذي اتخذ لقب البابا «غريغوري السابع»، فأرسل الامبراطور عام ٤٦٦ وفداً للتهنئة، وكلّف الوفد بأن يعلن عن رغبة الامبراطور في توثيق الصلة بين روما وبيزنطة، ووافق البابا الجديد، وأرسل وفداً برئاسة بطريرك البندقية إلى القسطنطينية يحمل شكراً للتهنئة وإشارة للرغبة نفسها من قبله، وإن كان البابا الجديد ينوي في قرارة نفسه أن يبعث بقوات له إلى آسيا الصغرى لطرد السلاجقة المسلمين الذين كثرت غاراتهم على الحجاج النصارى إلى بيت المقدس، وحالت دون وصولهم إلى هدفهم عن طريق البر - على زعمه - وفي الوقت نفسه تتوطد أقدامه في آسيا الصغرى، ويقوى نفوذه، وينهي الخلاف مع بيزنطة بالقضاء عليها. وأراد أيضاً أن تزداد دعايته في أوربا كلها ليطيعه الناس بالقيام بعمله هذا لذا بدأ يحرّض على قتال المسلمين في الأندلس، ودعا إلى الهجوم عليهم، وقت الهجمات النصرانية على المسلمين في الأندلس ودعمتها أوربا بكل ثقلها ومن خلفها البابا، ولكن هذا لم يُفِده كثيراً إذ تقدم المرابطون من المغرب، واجتاز أميرهم يوسف بن تاشفين بنفسه بحر الزقاق، وانتقل إلى العدوة الأندلسية، وسار المسلمون معه لحرب النصارى فانتصروا عليهم انتصاراً كبيراً في معركة الزلاّقة عام ٤٧٩، وبذا فإن محاولة التفاهم بين روما وبيزنطة لم تفد النصارى شيئاً.

عادت العلاقات فساءت بين الكنيستين وخاصة بعد وفاة البابا «غريغوري

السابع، عام ٤٨٠، ودبّ الخلاف بينهما، وتحالف ملك ألمانيا المعادي للبابا مع امبراطور بيزنطة ضد روما.

وفي عام ٤٨١ اختير اربان الثاني بابا لروما، وقد زاد نفوذه كثيراً وأصبح السيد المطاع في أوربا، ومع أن النصارى في الأندلس قد بدأ وضعهم يتحسن فقد استولوا على وشقة عام ٤٨٩ وعلى مناطق ثانية، وبذل اربان الثاني كل ما يستطيع من دعم إلا أنه وجد أن يغزو المسلمين في عقر دارهم أو في قلب بلادهم فإن الإصابة في القلب أشدّ وقعاً وأكثر أثراً، وإذا ما نجح فإن الأطراف بطبيعة الحال تتداعى وتتساقط.

دعا البابا اربان الثاني إلى اجتماع لرجال الدين يعقد في «كليرمونت» بين [١٨ ـ ٢٨ تشرين الثاني] عام ١٠٩٥، ويوافق [١ ـ ١٠ ذي الحجة ٤٨٩]، وعقد المؤتمر في الموعد المحدد وحضره ثلاثمائة مندوب، ودارت المناقشات حول الأمور الكنسية، وقبل اختتام المؤتمر بيوم واحد يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة ألقى البابا خطبة بيّن فيها الهدف الأساسي من المؤتمر وهو الحرب الصليبية، ودعا الأمراء في أوربا إلى نبذ الخلاف فيما بينهم وتوجيه ذلك الجهد لحرب المسلمين والاستيلاء على بلادهم وامتلاكها وثرواتها متخذاً بقضية الحجاج إلى بيت المقدس والحيلولة دون وصولهم إلى مبتغاهم، وقد اتخذت هذه القضية ذريعة لكل من يريد أن يزيد من نفوذه في أوربا، وشجّع الأساقفة على القيام بدورهم في هذا العمل المقدس، وخاطب الجمهور بأن من يموت منهم هناك فله المجد إذ سيموت في المكان الذي مات فيه يسوع، وقدّم للحضور صليب الخلاص ليحملوه على كواهلهم أثناء حركتهم، وقال: إن الكنيسة ستحمي أملاك كل غائب، وسيحلل البابا الأمراء، وكل إنسان من العقوبات الدنيوية المترتبة على الذنوب التي ارتكبت إذا ما اشتركوا بإخلاص في هذه الحروب، وأن على كل منطلق أن يحمل إشارة الصليب، وعليهم الاستعداد

الذي يجب أن يكون تاماً في عيد العذراء [١٥ آب] من عام ١٠٩٦ م والموافق لعام ٤٩٠ هـ.

بدأ البابا يتنقل في مدن أوربا يدعو إلى هذه الحرب الصليبية، وطلب من الأساقفة أن يُبشّروا بذلك، وقام بطرس الناسك بدور كبير في هذا المجال إذ لبس رداء الزهد، وسار حافياً يدعو إلى الحرب الصليبية، وساعد الجميع في هذه المهمة انتشار الفقر في ذلك العام، واجتياح السيول المدمّرة عدة مناطق من أوربا.

دعا البابا إلى اجتماع الجيوش في مدينة القسطنطينية، وكلّف مندوباً عنه ليقودها وهو «أدهمار»، غير أن الجموع الشعبية التي انطلقت بدعوة بطرس الناسك قد سارت مُسرعةً كالسوائم لا يجمعها نظام ولا يتولّى قيادتها أحد يدفعها الحقد، ويُسيّرها الطمع في النهب والأسلاب، وكان البابا يأمل من هذه الجموع أن تنتظر ليقودها مندوبه والعسكريون ليدخلوا جميعاً مدينة القسطنطينية.

ولما رأى امبراطور بيزنطة «الكسيوس» هذه الجموع بهذه الصورة من الوحشية والفوضى وما أحدثته من خراب على طول الطريق التي سلكتها إلى القسطنطينية طلب منها أن تبقى خارج أسوار المدينة ريثما يصل بطرس الناسك، على حين أنه هو الذي قد سبق وطلب هذه القوات بسرعة لتقف في وجه السلاجقة، فلما وصل بطرس الناسك إلى القسطنطينية أكرمه ونصحه بالانتظار ريثما تصل إليهم جيوش الأمراء النظامية غير أن الحقد العارم والطمع والرغبة في النهب والأسلاب قد جعلها تتحرك نحو بلاد المسلمين، ولما لم تنج من اعتداءاتها البلدان الأوربية التي اجتازتها، كما لم تنج منها بلاد البيزنطيين فبشكل طبيعي أن يعمّ الدمار والخراب كل أرض تطأها من البلدان الإسلامية وفعلاً كانت في منتهى الوحشية والإجرام، وارتكاب الجرائم، وانتهاك الحرمات،

لم يسلم منها دار ولا حقل لا إنسان ولا حيوان، وتلتها جيوش الأمراء وكانت أقل فوضوية، ولكن لم تقل عن سابقتها سوءاً، ولم تختلف عنها فتكاً، وتوالت الحملات الصليبية، وأحرزت بعض النصر، وأسست إمارات لها، واستقرت بعض الوقت، ثم تحركت العاطفة عند المسلمين وبعض قادتهم فبدأوا يعملون لقتال الصليبيين، ولتوحيد جهود الأمة، وأخيراً تم النصر وأخرج الصليبيون من البلاد، وقد قاوم هؤلاء الدخلاء المسلمون في الأندلس، والفاطميون، والسلاجقة، والأتابكة، والأيوبيون، والمماليك، وقد طردوا الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ومصر، وجاء دور العثمانيين فأنهوا الأثر الصليبي في ليبيا وتونس والجزائر.

ونتيجة الحروب الصليبية فقد سادت الفوضى، وعمّ الخوف، وزاد تفكك المسلمين وضعفهم في بداية الأمر حتى قيّض الله لهم من جمع شملهم وخذل عدوهم.

٦- الغـزو المغـولي

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون في حالة احتضار نشأت قوة عنيفة في شرق بلاد المسلمين وسط الصحارى تلك هي قوة المغول التي تملك إمكانات قتالية كبيرة إذ أن أبناءها من أهل البوادي الأشداء الذين يندفعون إلى هدفهم من غير تفكير لا يصدّهم عنه مانع، وهم على غير دين، من الوثنيين، الذين يعبدون عدداً من الآلهة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدمون إليها القرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، وكان المغول يلجؤون إلى القسس، وهم الشامان والسحرة، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة[1]. وقد كانت حياتهم رعوية، ونظامهم قبلياً، مع طاعة لرؤسائهم، وحب للحرب والسلب والنهب، وكانت دياناتهم عبادة الكواكب، يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرّمون شيئاً، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير، وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه[2]. ويدين بعض أفراد من جنسهم بصورة سطحية بديانات الإسلام أو النصرانية أو البوذية وهم غالباً الذين يعيشون على أطراف ديار المغول.

نظر الصليبيون إلى هذه القوة نظرة خوف من شدتها، وخشوا أن تدخل في الإسلام باحتكاكها مع المسلمين كما حدث لغيرها من أبناء جنسها كالسلاجقة وغيرهم، وإذا ما تم هذا فإن أمر النصرانية في خطر ليس في الشرق فحسب وإنما قد يتعدى ذلك إلى الغرب وخاصة إذا ما اندفعت هذه القوة الجديدة نحو

---

(١) تاريخ الإسلام. حسن ابراهيم حسن، الجزء الرابع.
(٢) المصدر نفسه.

أوربا. لذا حاولوا أن يتداركوا الأمر قبل وقوعه فعملوا على جذب هؤلاء المغول نحو النصرانية هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد حرّضوا المغول ضد المسلمين، وبنوا على ذلك آمالاً بأنه إذا ما تم هذا فإن المسلمين سيقعون بين نارين، نار النصرانية من الغرب، ونار المغول من الشرق، واتخذوا لذلك عدة أساليب، اتخذوا طريقة النساء ليغروا المغول من ناحية، ولتحرّض هذه النساء أزواجهن من داخل بيوت المغول من ناحية ثانية، ولتحاول جذبهم نحو النصرانية من جهة ثالثة. فقد تزوّج «جنكيزخان» فتاة نصرانية من أسرة تتارية تدين بالنصرانية بطريقة ما، وتزوّج ابنه الثالث وخليفته «أوجتاي» فتاة نصرانية بالطريقة نفسها أو بالأحرى كانت عنده خليلة نصرانية. وكان «جغطاي» الابن الثاني لجنكيزخان من ألدّ أعداء الإسلام، وكذلك ابن أخيه «كيوك بن أوجتاي»، وذلك تحت تأثير النصرانية واليهودية. وتزوّج «هولاكو» فتاة نصرانية كانت الدافع الرئيسي في شرّه الذي حلّه في العراق والشام، وتزوّج ابنه وولي عهده على الأسرة «الايلخانية» «اباقاخان» ابنة امبراطور القسطنطينية، ونشأ ابن هولاكو الآخر «تكودار» على النصرانية، وذلك قبل أن يدين بالإسلام، ونتيجة إسلامه قُتل بيد ابن أخيه «ارغون»، وكان ارغون هذا «ابن اباقاخان» من أشدّ أعداء الإسلام وأعنفهم على أهله. كما اعتنق عدد من المغول النصرانية في جورجيا وارمينيا عن طريق الإغراء.

وفي الوقت نفسه كان اليهوديون من جهة أخرى يحرّضون المغول على المسلمين، وكلاهما يصف لهم جنّات بلاد المسلمين وأنهارها، وفواكهها، وإنتاجها الوفير، وخيرها العميم، والمغول أهل صحارى تتوق نفوسهم لهذا، وتتعطش لتلك.

وساعد على هذا ما علمه جنكيزخان عن اختلاف المسلمين وقتال بعضهم بعضاً، وأثاره قتل شاه خوارزم لرسله فبينما كان مُيمّماً وجهه نحو الشرق يُقاتل خصومه توقف واتجه نحو الغرب، وسارت وراءه جموعه كالذئاب الجائعة، وبأعداد الجراد، فلم تأت على شيء إلا تركته كالرميم، فخافها الناس، وفرّت من وجهها القبائل، وذُعرت الأهالي فتركت مدنها وقراها وتحركت نحو الغرب، وتخاذلت الجند عن قتال المغول، ورهب القادة نزالهم، وتقدّمهم الرعب مسيرة شهر لما فعلوه من فسادٍ وقتلٍ وتمثيل تقشعر له الأبدان وتعجز عن وصفه الأقلام.

وهذا ما زاد المسلمين ضعفاً على ضعف فمنهم من رغب في مهادنة المغول، ومنهم من فضّل التفاهم معهم، ومنهم من فكر في الخضوع لهم، وهرب بعضهم من وجههم، وحاول بعضهم الوقوف أمامهم وجهادهم، وهذا التفرق ما ساعد المغول على اقتحام البلاد، ودخول مدينة بغداد بعد خيانة ابن العلقمي الذي تهاون في الدفاع عن المدينة وترك فيها ثغرات، ودلّ الأعداء على هذه الثغرات، وترك جماعته مواقعهم، وشجّع الخليفة على مقابلة هولاكو والسير إليه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فسقطت الدولة العباسية على أيدي هؤلاء المغول، وانتهى أمرها.

وهكذا فإن ضعف الدولة العباسية إنما يعود إلى:

- تسلّط العسكريين على الحكم.
- نشوء الدويلات.
- الترف.
- الحركات الباطنية.
- الغزو الصليبي.
- الغزو المغولي.

ويمكن أن نُضيف اختلاف العباسيين بعضهم مع بعض، وولاية العهد لأكثر من واحدٍ الأمر الذي يؤدي الى الخلاف، وتولية الصغار أحياناً، وهذا ما يؤدي إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فينتج تسلّط غيرهم عليهم.

وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة فصول حسب سيطرة القادة العسكريين، فالفصل الأول شمل المدة كانت فيه السيطرة للقادة الأتراك، وكان الفصل الثاني للمرحلة التي سيطر فيه بنو بويه، أما الفصل الثالث فقد شمل مرحلة سيطرة السلاجقة.



الخلفاء العباسيون في الدور الثاني:

الترتيب	الخليفة	مدة الخلافة	المتنفذون
١١	المنتصر	٢٤٧ - ٢٤٨	الأتراك
١٢	المستعين	٢٤٨ - ٢٥٢	
١٣	المعتز	٢٥٢ - ٢٥٥	
١٤	المهتدي	٢٥٥ - ٢٥٦	
١٥	المعتمد	٢٥٦ - ٢٧٩	
١٦	المعتضد	٢٧٩ - ٢٨٩	
١٧	المكتفي	٢٨٩ - ٢٩٥	
١٨	المقتدر	٢٩٥ - ٣٢٠	
١٩	القاهر	٣٢٠ - ٣٢٢	
٢٠	الراضي	٣٢٢ - ٣٢٩	
٢١	المتقي	٣٢٩ - ٣٣٣	
٢٢	المستكفي	٣٣٣ - ٣٣٤	
٢٣	المطيع	٣٣٤ - ٣٦٤	البويهيون
٢٤	الطائع	٣٦٣ - ٣٨١	
٢٥	القادر	٣٨١ - ٤٢٢	
٢٦	القائم	٤٢٢ - ٤٦٧	
٢٧	المقتدي	٤٦٧ - ٤٨٧	السلاجقة
٢٨	المستظهر	٤٨٧ - ٥١٢	
٢٩	المسترشد	٥١٢ - ٥٢٩	
٣٠	الراشد	٥٢٩ - ٥٣٠	
٣١	المقتفي	٥٣٠ - ٥٥٥	
٣٢	المستنجد	٥٥٥ - ٥٦٦	
٣٣	المستضيء	٥٦٦ - ٥٧٥	

الترتيب	الخليفة	مدة الخلافة	المتنفذون
٣٤	الناصر	٥٧٥ - ٦٢٢	السلاجقة
٣٥	الظاهر	٦٢٢ - ٦٢٣	
٣٦	المستنصر	٦٢٣ - ٦٤٠	
٣٧	المستعصم	٦٤٠ - ٦٥٦	

الفصل الأول

عصر سيطرة العسكريين الترك

تمتد هذه المرحلة مدة سبع وثمانين سنة (٢٤٧ - ٣٣٤)، وقد تعاقب عليها اثنا عشر خليفة من المنتصر الخليفة العباسي الحادي عشر إلى الخليفة المستكفي الثاني والعشرين من خلفاء بني العباس، وكانت مدة حكم الخليفة الواحد قصيرة في بداية الأمر تراوحت بين السنة الواحدة والأربع سنوات أيام الخلفاء الأربعة الأوائل، ثم زادت حتى وصلت إلى ثلاث وعشرين سنة أيام الخليفة الخامس، وهو المعتمد، وإلى خمس وعشرين سنة أيام الخليفة الثامن وهو المقتدر، ثم عادت إلى التناقص أيام الخلفاء الأربعة الأواخر فكانت بين سنة واحدة وسبع. وكان أوسطهم وهو الخليفة السادس المعتضد أفضلهم من حيث الصلاح والقوة والتقوى حتى عده بعضهم من الخلفاء الراشدين.

كان الخلفاء في هذه المرحلة ضعفاء يخضعون لسيطرة ونفوذ العسكريين الأتراك فلم يكن بيدهم من الأمر شيء، فالعسكريون هم القوة أو الذين بيدهم القوة، ويتسلطون على الأمر، يخلعون خليفة ويبايعون آخر كعادة كل العسكريين إلا من رحم ربك، وليس معنى هذا الضعف أن السوء كان يرافق ذلك بل كان أكثرهم من الفضلاء، كالمهتدي والمعتضد والمتقي، ولكن صلاحهم لأنفسهم أما للرعية فلم يملكوا شيئاً ولم يقدموا شيئاً. وكذلك كان أكثر الولاة فالصلاح سمة عامة وما خلاف بعضهم مع بعض إلا في إجتهادات لإصلاح الأوضاع التي يبدو عليها التدهور، وكل منهم يرى أنه بإمكانه إصلاحها.

وما يبالغ فيه من كثرة الجواري وفساد القصور فهذا أمر مبالغ فيه كثيراً، أجرى أعداؤهم فيه ألسنتهم وأقلامهم حتى أصبح بهذه الصورة التي تمقتها النفس، والجواري كانت موجودة في القصور وبأعداد مقبولة، وهي عادة ذلك العصر الذي كانت تسود فيه الجواري نتيجة الحروب وما تعارف عليه أهل ذلك الزمان في كل بقاع الأرض. ومع كل ما يقال فهو أفضل من ملوك الأمم الأخرى الذين يرتعون في بنات الرعية كلهن تارة بشكل مكشوف وأخرى بشكل مستور ودون أن يتكلم أحد في ذلك. أفضل لأن الجواري كان عملها معروفاً ومعاملتها معروفة، وطريقتها متبعة وفوق كل هذا فقد أباح الله ذلك. أما بنات الآخرين الأحرار فقد حرمهن الله، ومن المعلوم أن ما خلق الله في أرحام الجواري معروف آباؤهم، وعندما يولدون يعطون الحرية لأمهاتهم فتصبحن أمهات أولاد لا يصح بيعها، وأما ما في بطون الأحرار من السفاح فهو غير معروف الأب، وكثيراً ما تلجأ تلك الفتيات إلى عمليات الإسقاط والإجهاض، وإذا ما ولدت المرأة كان الولد بلا نسب، ممتهن ممقوت وفي أدنى درجات السلم في المجتمع الذي يعيش فيه، ومع كل هذا فالألسنة تلوك ما كان في بيوت الخلفاء، وتسكت عما في بيوت الملوك الآخرين وذلك لأن الأوائل مسلمون يتعرضون لحرب العالم الكافر الطاغي الظالم المستبد والملوك الآخرين من الكفار من أية أمة كانوا، وخاصة في هذا الوقت، الذي تكالب فيه العالم على الإسلام، فكتبت الروايات، وسجلت القصص، ومثلت الأفلام وتحدثت عن قصور الخلفاء وترك للخيال أن يسرح فيها ما شاء له أن يسرح... وأخذ بعض المسلمين هذا عن قصد أو عن غير قصد للتسلية والفكاهة، أو للنكتة والإثارة فشوه بذلك التاريخ الإسلامي أيما تشويه.

ولما كانت السيطرة للعسكريين فقد كثرت حوادث النهب والسلب من قبلهم ناهيك عن التعديات وارتكاب المنكرات هذا بالإضافة إلى الصراع الذي كان يحدث بين القادة العسكريين فيقتل بعضهم بعضاً، ويسير جيش وراء أمير

ليقضي على قائد، فضعف الحكم وقل الأمن وعمت الفوضى وهذا ما فسح المجال للحاقدين من الأعداء أن يقوموا بحركات ضد الدولة ولهم أهداف سياسية فتحرك المجوس، وتحرك اليهود واستغلوا فقر الفقراء، وانتشار الفوضى والحقد من الضعفاء وادعوا النسب الهاشمي فهدموا وخربوا، وحاولوا انتزاع لبنات من بناء الإسلام أو فتق عروات من عراه ولا يزال أثرهم قائماً إلى هذا اليوم الذي نعيش فيه، حتى لقد وضعوا أسس التشيع يومذاك فنسبوا لأئمة صالحين أقوالاً لم يقولوها وأفعالاً لم يفعلوها بل ادعوا الإمامة لهم، ووضعوا لهم ترتيباً، بل خرقوا لهم عصمة وتأويلاً ما خطر على بال أولئك الأعلام، فالتشيع قد وضعت أسسه في تلك المرحلة وبأيد غريبة عن أبناء الاسلام، ولما كانت الأيام فوضى، والحركات سرية لذا فقد قامت ادعاءات لنسب هاشمي كثيرة وأسست لها جماعات عملت ضد الدولة مدة تختلف من جماعة إلى أخرى، ومن هذه الجماعات من زال وانتهى، ومنها من بقيت جذوره راسخة على مدى الأيام ما دامت تعتمد على المرأة وتستهوي الشباب.

الخلفاء في هذه المرحلة:

١ - المنتصر	٢٤٧ - ٢٤٨
٢ - المستعين	٢٤٨ - ٢٥٢
٣ - المعتز	٢٥٢ - ٢٥٥
٤ - المهتدي	٢٥٥ - ٢٥٦
٥ - المعتمد	٢٥٦ - ٢٧٩
٦ - المعتضد	٢٧٩ - ٢٨٩
٧ - المكتفي	٢٨٩ - ٢٩٥
٨ - المقتدر	٢٩٥ - ٣٢٠
٩ - القاهر	٣٢٠ - ٣٢٢
١٠ - الراضي	٣٢٢ - ٣٢٩
١١ - المتقي	٣٢٩ - ٣٣٣
١٢ - المستكفي	٣٣٣ - ٣٣٤

- ١١ -
المنتصر بالله
محمد بن جعفر المتوكل
٢٤٧ - ٢٤٨

هو محمد المنتصر بن جعفر المتوكل، ولد عام ٢٢٢ بسامراء، وأمّه أمّ ولد رومية، تُدعى حبشية، يُكنّى أبا جعفر، وقيل: أبا عبد الله. وكان مليح الوجه، أسمر، أعين، أقنى، ربعة، جسيماً، بطيناً، مليحاً، وافر العقل، مهيباً، راغباً في الخير، قليل الظلم، محسناً إلى العلويين، وصولاً لهم، أزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، وردّ على آل الحسين، فدك»[1]. وكان أعين أقنى قصيراً جيد البضعة. وكان - فيما ذكر - مهيباً[2].

بويع بالخلافة بعد قتل أبيه في الرابع من شوال من عام ٢٤٧، واتهم الفتح ابن خاقان بقتل أبيه، لذا فقد قتله بأبيه. كان يحب الأتراك قبل توليه الخلافة فلما تولاها أصبح يسبّهم، ويقول عنهم: قتلة الخلفاء.

وقد حرّضه أحمد بن الخصيب وزيره، والقائدان التركيان وصيف وبغا على عزل أخويه: المعتز، والمؤيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه عبد الوهاب، ولم يزالوا يلحّون عليه حتى فعل، وقد وافق المؤيد خوفاً، ورفض المعتزّ فأعيى ثم أقنعه أخوه المؤيد فوافق. ولم يلبث المؤيد أن وُجد مقتولاً على فراشه بيد

(١) تاريخ الخلفاء. السيوطي.
(٢) تاريخ الطبري.

خادمه، وفي رواية أنه بقي حتى خُلع وقُيّد وضُرب فمات في خلافة أخيه المعتز.

وأرسل القائد وصيف التركي لغزو بلاد الروم عن طريق ملاطية بمكر أحمد ابن الخصيب، وطلب الخليفة من وصيف أن يبقى في الثغور أربع سنوات يغزو كلما حان وقت الغزو.

وخرج محمد بن عمرو الشاري بالجزيرة في ناحية الموصل، فأرسل إليه المنتصر القائد إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره، وأرسله الى الخليفة حيث قتل مع بعض أنصاره الذين أخذوا أسرى معه.

ومات المنتصر في الخامس من ربيع الثاني أي أن مدة حكمه لم تزد على ستة أشهر سوى يوم واحد، وقد اختلف في سبب موته، فقيل: إنه مات بالذبحة التي أصابته في الخامس والعشرين من ربيع الأول وبقي فيها عشرة أيام ثم مات، وقيل: إنه سُمّ بالكمثري، وقيل: إنه فُصد بمبضع مسموم و...... وهو أول خليفة من بني العباس - فيما بعد - عُرف قبره؛ وذلك أن أمه طلبت إظهار قبره[1].

وبويع بعده ابن عمه المستعين.

أما الإمارات فلم يتغير وضعها بعد عن العصر العباسي الأول وخاصة أن خلافة المنتصر لبست سوى ستة أشهر، وبقيت الإمارات محصورة في المغرب، أما في المشرق فلا تعد إمارة الطاهريين دولة أو دويلة لأنها لم تخرج على العباسيين أبداً، وبقي الوالي يُعيّن من قبل الخليفة، وإن كانت الإمرة محصورة في أبناء طاهر بن الحسين. وأما الإمارة الصفّارية فلم تظهر كدولة بعد إذ لم تخرج على الخليفة وإن كان مؤسسها يعقوب بن الليث الصفّار قد بدأ يتوسع فانطلق من سجستان نحو هراة وضمّها إلى إمرته.

(1) المصدر السابق.

وفي الأندلس كانت الإمارة لمحمد بن عبد الرحمن الثاني منذ عام ٢٣٨، وقد سار المسلمون في هذه الأونة إلى برشلونة فملكوا ضواحيها، ودخلوا قلعتين من قلاعها، ثم عادوا، ولم يستطيعوا اقتحامها، وكانت قد أصبحت بيد النصارى.

وكانت إمارة الأدارسة في خلافاتٍ شديدة إذ كانت تخضع تارة لحكم صاحب الريف علي بن عمر بن ادريس وتارةً لحكم أولاد القاسم بن ادريس إضافةً إلى ثورة عبد الرزاق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية الذي أجبر علي بن عمر بن ادريس من الفرار إلى أوربا، ولكن أهل فاس استدعوا ابن أخيه، وهو يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس وبايعوه وبقي طيلة وقته يقاتل الخوارج حتى قتله الربيع بن سليمان عام ٢٩٢.

وأمّا إمارة الخوارج الصفرية في سجلماسة فكان إمامها ميمون بن بقية، وقد استمر حكمه لها من ٢٢٤ - ٢٦٣، وكانت منصرفةً إلى أمورها الخاصة بها.

وإمارة الخوارج الأباضية في تاهرت كان إمامها أفلح بن عبد الوهاب والذي دام حكمه من ٢٠٨ - ٢٥٨ وكذلك فهي إمارة قد اهتمت بقضاياها الداخلية.

وإمارة الأغالبة في القيروان يحكمها أحمد بن محمد الأول أبو العباس (٢٤٢ - ٢٤٩)، وكان الفتح الإسلامي يسير في جزيرة صقلية، وقد توفي القائد العباس عام ٢٤٧ فولّى الناس عليهم ابنه عبد الله، وقد تمكّن من فتح عدة قلاع، وبعد خمسة أشهر أرسل الأغالبة أميراً على الجزيرة خفاجة بن سفيان.

وإمارة بني زياد في اليمن وقاعدتها زبيد كان أميرها ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد، وحكم الإمارة (٢٤٢ - ٢٨٩).

وإمارة بني يعفر في صنعاء، وقد بدأت في (شبام) ثم استولت على صنعاء أيام أسعد بن أبي يعفر الحوالي من بني زياد، وأسس هذه الدولة ابراهيم بن يعفر (٢٢٥ - ٢٦٠).

-١٢-

المستعين بالله

أحمد بن محمد المعتصم

٢٤٨ - ٢٥٢

بعد وفاة المنتصر خشي القادة الأتراك أن يتولى الخلافة أحد أبناء المتوكل فينتقم منهم لقتلهم أباه لذا فقد اختاروا المستعين أحمد بن محمد المعتصم فهو عمّ المنتصر.

وُلد المستعين عام ٢٢١، وأمّه أمّ ولد اسمها مخارق، وكان مليحاً أبيض، بوجهه أثر جُدَريّ، ألثغ، خيّراً، فاضلاً، بليغاً، أديباً، وهو أول من أحدث لبس الأكمام الواسعة.

استوزر المستعين القائد التركي «أتامش»، كما أوكل إليه مهمة تربية ابنه العباس، فبذّر الأموال وتطاول فحسده بقية القادة الأتراك وعملوا على التخلّص منه فقتلوه. وعيّن المستعين القائد وصيفاً على الأهواز، وبغا الصغير على فلسطين. ثم اجتمع رأي المستعين ووصيف وبغا الصغير على قتل «باغر» التركي، وكان من القواد الكبار الذين باشروا قتل المتوكل فقُتل عام ٢٥١، أما بغا الكبير فقد توفي عام ٢٤٨، وأصبح ابنه موسى قائداً مكانه، كما مات في العام نفسه طاهر بن عبد الله بن طاهر فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر على خراسان، ولمحمد بن عبد الله بن طاهر على العراق.

وتنكّر القادة الأتراك للخليفة المستعين فانتقل إلى بغداد، فبعث الأتراك إليه يعتذرون منه، ويسترضونه فلم يقبل، فأظهروا الشغب في سامراء، ودخلوا السجن وأخرجوا من فيه ومنهم المعتز وأخوه المؤيد، وبايعوا المعتز وقوي

أمره، أما بغداد فقد بقيت على بيعتها للمستعين، وأرسل المعتز أخاه أبا أحمد لقتال المستعين، وجرى القتال بين أهل بغداد بإمرة محمد بن عبد الله بن طاهر ابن الحسين وأهل سامراء بإمرة أبي أحمد بن المتوكل، وطالت الحرب حتى أقنع محمد بن عبد الله بن طاهر الخليفة المستعين بأن يخلع نفسه ويشترط فوافق، واستسلم وكتب شروطه وبايع للمعتز، وبايعت بغداد، وطلب المستعين أن ينتقل إلى مكة فلم يوافقوه ولا إلى البصرة، فانتقل بعدها إلى واسط، فأرسل إليه المعتز من قتله بعد تسعة أشهر (٣ شوال ٢٥٢)، وكان قد خلع نفسه (٤ محرم ٢٥٢).

أما بالنسبة إلى الغزو فقد غزا وصيف بلاد الروم عام ٢٤٨، وسار إليها أيضاً جعفر بن دينار على رأس صائفة عام ٢٤٩، واستأذن عمر بن عبد الله ابن الأقطع بالغزو فسار على رأس قوة، والتقى بالروم إلى القرب من «ملاطية»، فاقتتلوا في يوم الجمعة منتصف رجب من عام ٢٤٩، فاستشهد في هذه المعركة أمير المسلمين ابن الأقطع، واستشهد ما يقرب من ألفي من المسلمين، ووصل الخبر إلى علي بن يحيى الأرمني، وكان عائداً من أرمينيا فانطلق على رأس قوة من المسلمين إلى بلاد الروم فاستشهد ومعه أربعمائة مسلم، وثارت العامة في بغداد لتهاون الخليفة والجيش في شأن الثغور وانصرافهم إلى مشكلاتهم الخاصة، وجمع أصحاب اليسر من أهل بغداد أموالاً كثيرة للنهوض إلى ثغور المسلمين بعد الذي حدث.

وكثرت الحركات نتيجة ضعف الخليفة وتسلط القادة على أمور الدولة واستبدادهم بها وبالخليفة نفسه، فشغب أهل حمص على عاملهم عام ٢٤٨، وتكرر شغبهم فأخرجوا عاملهم عام ٢٤٩، ثم خرجوا على عاملهم الجديد عام ٢٥٠ فسار إليهم موسى بن بغا الكبير فاقتتلوا بأرض الرستن عام ٢٥١، وقد أسر في هذه المعركة أشراف حمص وخلدوا بعدها إلى الهدوء.

وظهر بالكوفة أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي

ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأخذ ما في بيت مال الكوفة، وكان قليلاً، وأخرج السجناء، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وتبعه أناس كثير، ولكنه هزم في النهاية وقتل عام ٢٥٠.

وظهر بناحية طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسين بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك أن الخليفة أقطع محمد بن عبد الله ابن طاهر بن الحسين أرضاً بتلك الجهات، فأراد محمد أن ينتزعها بالقوة من أيديهم فثاروا ودعوا الحسن وبايعوه، فاجتمع حوله جماعة من الديلم، ثم تقدم فانتصر على سليمان بن عبدالله بن طاهر أمير طبرستان من قبل الخليفة المستعين، ثم دخل الري وأخرج من بها من آل طاهر بن الحسين.

وخرج بناحية قزوين وزنجان الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو المعروف باسم الكوكبي.

وخرج بالري يوم عرفة أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وصلّى بالناس العيد، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وهزم محمد بن علي بن طاهر، ثم عاد إلى الري عبد الله بن عزيز فأسر أحمد بن عيسى، وأرسله إلى نيسابور حيث قتل وذلك في خلافة المعتز.

وخرج بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولكنه لم يلبث أن هزم وقتل.

وخرج بمكة اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، وظلم الناس، وانتقل إلى المدينة فخرج منها عاملها وفعل فعله بمكة فكرهه الناس جداً، وسار إلى جدة فنهب أموال التجار، وسلب ما وصلت إليه يده، ومنع الناس من الوقوف بعرفة، فلم يقف عامها إلا اسماعيل ابن يوسف هذا وعدد من جماعته، وارتكبوا المنكرات.

أما الإمارات فلم يتغير في وضعها شيء.

-١٣-

المعتز بالله
محمد بن جعفر المتوكل
٢٥٢ - ٢٥٥

وُلد بسامراء عام ٢٣٢، وأمّه أم ولد روميّة تُدعى «قبيحة»، كان أبيض، أسود الشعر كثيفه، حسن العينين والوجه، ضيّق الجبين، أحمر الوجنتين، حسن الجسم طويلاً، أقنى الأنف، مدور الوجه، حسن الضحك، وقد أثنى عليه الإمام أحمد في جودة ذهنه وحسن فهمه وأدبه حين دخل عليه في حياة أبيه المتوكل[1]. وروى الخطيب عن علي بن حرب قال: دخلت على المعتز فما رأيت خليفةً أحسن وجهاً منه. وقال الزبير بن بكار: سرت إلى المعتز وهو أمير فلما سمع بقدومي خرج مُستعجلاً إليّ فعثر فأنشأ يقول:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ
فعثرتُهُ مِنْ فيه ترمي برأسه ... وعثرته في الرِّجْلِ تبرأ على مَهْلِ[2]

بُويع المعتز بالخلافة بعد خلع المستعين، وله تسع عشرة سنة، ولم يلِ الخلافة قبله أحد أصغر منه، وخُطب له على المنابر يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم من مطلع عام ٢٥٢، وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب، وكان الخلفاء قبل يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة[3]. وكانت خلافته أربع سنوات

---

(١) البداية والنهاية - الجزء ١١ - ابن كثير.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) تاريخ الخلفاء - السيوطي.

وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وتوفي وعمره أربع وعشرون سنة.

وأما وضع كبار القادة فقد مات «أشناس» عام ٢٥٢ وهو الذي استخلفه الواثق على السلطنة، وغضب المعتز على وصيف وبغا وهما في بغداد، وكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يقتلهما، وخافا، واستعدا للمواجهة، ثم كلمه أخوه المؤيد في وصيف، وكانت سعاد أخت وصيف مربية المؤيد، وكلمه أخوه أبو أحمد في بغا، فرضي عنهما. ثم شغب الجند الأتراك، وقُتل وصيف عام ٢٥٣ فجعل المعتز ما كان لوصيف لبغا الشرابي، وألبسه تاجاً ووشاحين، ولكنه قتل عام ٢٥٤. وقُتل بندار الطبري عام ٢٥٣ في قتاله للخوارج. وعقد المعتز لبايكباك على مصر فأرسل إليها نائباً عنه أحمد بن طولون عام ٢٥٤. وكان المعتز يخاف من صالح بن وصيف، وجاءته جماعة من قادة الجند الأتراك وقالوا له: إعطنا أرزاقنا ولنقتل صالح بن وصيف، فلم يجد عنده ما يعطيهم، فجاءوا إليه ثانية إلى دار الخلافة ومعهم صالح بن وصيف ومحمد بن بغا فأخرجوه وأهانوه، وكان ذلك سبب عزله.

خلع المعتز أخاه المؤيد وقيده حتى مات، كما سجن أخاه أبا أحمد. وتوفي محمد بن عبد الله بن طاهر في بغداد فعقد المعتز لأخيه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على العراق من بعده، كما تولى أخوه الآخر سليمان بن عبد الله بن طاهر شرطة بغداد والسواد.

خرج عن طاعة المعتز بناحية همذان عبد العزيز بن أبي دلف، فسار إليه موسى بن بغا الكبير فهزم ابن أبي دلف، وقُتل عدد كبير من أصحابه.

أغار صاحب الديلم ابن جستان على الري، ومعه أحمد بن عيسى، والحسين ابن أحمد الطالبيين، فقتلوا وسبوا، وهرب منها أميرها عبد الله بن عزيز، غير أن أهل الري صالحوا ابن جستان على ألفي درهم فارتحل عنهم، وعاد ابن عزيز إليها، وتمكن من أسر أحمد بن عيسى فبعث به إلى محمد بن طاهر

بنيسابور فقتله.

وتحرك الحسن بن زيد الطالبي في طبرستان فسار إليه مفلح وتمكن من هزيمته فلحق الحسن ببلاد الديلم.

وخرج مساور بن عبد الحميد الخارجي والتف حوله ما يقرب من سبعمائة رجل فسار إليهم بندار الطبري فقُتل من الخوارج خمسون، وقُتل من أصحاب بندار مائتان بينهم بندار نفسه، وسار مساور بعد ذلك إلى حلوان فقاتله أهل حلوان والحجاج الخراسانيين الذين كانوا في طريقهم إلى مكة، فقتل الخارجي منهم ما يزيد على أربعمائة رجل.

واستولى يعقوب بن الليث الصفّار على كرمان عام ٢٥٤، ثم اتجه إلى فارس واستولى عليها.

انطلق موسى بن بغا إلى ناحية قزوين لقتال الحسين بن أحمد الطالبي المعروف بالكوكبي فهزمه، ولحق الكوكبي ببلاد الديلم.

وغزا محمد بن معاذ بلاد الروم في شهر ذي القعدة من عام ٢٥٣ من ناحية ملاطية فهُزم المسلمون وأسر أميرهم محمد بن معاذ.

ولما أخذ القادة العسكريون المعتز وأهانوه، وخلعوه، وألزموه على البيعة لابن عمه المهتدي بالله محمد بن الواثق. وكان المهتدي قد أبعده المعتز من سامراء إلى بغداد، فأحضروه من بغداد إلى دار الخلافة بسامراء فسلّم المعتز إليه الخلافة وبايعه وذلك في ٢٩ رجب من عام خمس وخمسين ومائتين، ثم أخذ القادة المعتز بعد خمسة أيام من خلعه وعذّبوه حتى مات في أوائل شهر شعبان.

-١٤-
المهتدي بالله
محمد بن هارون الواثق

٢٥٥ - ٢٥٦

هو محمد بن هارون الواثق أي ابن عم المعتز، أمه أم ولد تسمى «وردة»[1]، ولد بسامراء عام ٢٠٩ أيام خلافة جده المعتصم، يكنى أبا إسحاق وقيل: أبا عبد الله.

كان أسمر رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً، متعبداً، عادلاً، بطلاً، قوياً في أمر الله، شجاعاً، لكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً. أقام ببغداد إذ أبعده ابن عمه المعتز من سامراء، فلما غضب القادة العسكريون على المعتز أحضروا المهتدي من بغداد، وأرادوا بيعته فرفض بيعة أحد حتى أُتي بالمعتز، فقام له المهتدي وسلّم عليه بالخلافة، وجلس بين يديه فجيء بالشهود فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن الخلافة، فاعترف بذلك ومدّ يده فبايع المهتدي، فارتفع حينئذٍ المهتدي إلى صدر المجلس، وكان ذلك لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.

قال الخطيب: لم يزل صائماً منذ ولي إلى أن قتل، وقال هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدي عشية من رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لي: اجلس، فجلست، وتقدّم فصلّى بنا، ثم دعا بالطعام، فأحضر طبق خلاف وعليه رغيف من الخبز النقي، وفيه آنية فيها ملح وخلّ وزيت، فدعاني إلى الأكل،

---

(١) تسمى «قرب» عند ابن جرير الطبري.

فابتدأت آكل ظاناً أنه سيؤتى بطعام، فنظر إليّ وقال: ألم تك صائماً؟ قلت: بلى، قال: أفلست عازماً على الصوم؟ فقلت: كيف لا وهو رمضان؟ فقال: كُلْ واستوف فليس هاهنا من طعام غير ما ترى، فعجبت، ثم قلت: ولِمَ يا أمير المؤمنين وقد أسبغ الله نعمته عليك؟ فقال: إن الأمر ما وصفت، ولكني فكرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز - وكان من التقلل والتقشف ما بلغك - فغرت على بني هاشم، فأخذت نفسي بما رأيت.

وقال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشيء، فقلت له: كان أحمد ابن حنبل يقول به، ولكنه كان يُخالف - أشير إلى من مضى من آبائه - فقال: رحم الله أحمد بن حنبل! والله لو جاز لي أن أتبرأ من أبي لتبرأت منه، ثم قال لي: تكلم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبُل في عيني.

وقال نفطويه: حدثني بعض الهاشميين أنه وجد للمهتدي سفط فيه جبة صوف وكساء كان يلبسه بالليل ويصلي فيه، وكان قد أطرح الملاهي، وحرّم الغناء، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين، يجلس بنفسه، ويجلس الكتّاب بين يديه، فيعملون الحساب وكان لا يخل بالجلوس الاثنين والخميس، وضرب جماعة من الرؤساء، ونفى جعفر بن محمود إلى بغداد، وكره مكانه، لأنه نُسب عنده إلى الرفض[1].

وعندما أخذ المهتدي من بغداد إلى سامراء لمبايعته بالخلافة لم يدر أهل بغداد سبب ذلك إلا أنهم قد عرفوا استبداد القادة العسكريين بالأمر، وضعف المعتز، فقاموا بأعمال الشغب، وساروا إلى أمير الشرطة سليمان بن عبد الله بن طاهر، وطالبوا ببيعة أحمد بن المتوكل أخي المعتز خليفة، إذ لم يدروا ما حدث في سامراء فلما علموا ببيعة المهتدي سكنوا وسكتوا.

وظهرت قبيحة أم المعتز في شهر رمضان، وقد كانت قبل ذلك مختفية

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

عند صالح بن وصيف عدو ولدها، ثم تزوجت به، وكانت تدعو عليه تقول: اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري، وقتل ولدي، وبدد شملي، وغربني عن بلدي،[1] وكانت من قبل تملك أموالاً كثيرة، وتجمع جواهر ثمينة، فتسلّط عليها صالح بن وصيف وأخفاها عنده، ولما طلب ولدها المعتز خمسين ألفاً ليعطيها للعسكريين أظهرت الفقر والحاجة، وقتل صالح بن وصيف ولدها، وسطا على أموالها، ثم التفت إلى الوزير أحمد بن اسرائيل فأخذ أمواله وضربه حتى مات، وإلى عيسى بن ابراهيم كاتب قبيحة فضربه وأهانه حتى دلّه على كل ما تخبئه قبيحة، ثم مات بالعذاب، واستبد صالح بن وصيف كثيراً وطغى، ولم يستطع الخليفة أن يفعل شيئاً معه، ولم تكن أعماله لترضي عنها.

كان موسى بن بغا في قزوين يقاتل الحسين بن أحمد المعروف بالكوكبي، وقد هزمه، ولحق الكوكبي ببلاد الديلم فأراد موسى مطاردته غير أن الخليفة استدعى موسى ليتقوّى به على صالح بن وصيف، وكان موسى قد غضب من صالح لاستئثاره بأموال قبيحة، وقتله المعتز، وزواجه من أم المعتز، وتصرفاته. ولما وصل موسى إلى سامراء طلب الإذن من المهتدي فلم يأذن له لأنه كان جالساً في دار العدل، فهجم بمن معه عليه، وأقاموه من مجلسه، وحملوه على فرس ضعيفة، وانتهبوا القصر، وأدخلوا المهتدي إلى دار أخرى وهو يقول: يا موسى اتق الله، ويحك! ما تريد؟ فقال موسى: والله ما نريد إلا خيراً فاحلف لنا أنك لا تمالىء صالح بن وصيف، فحلف لهم، فبايعوه حينئذ.

وطلب موسى بن بغا صالح بن وصيف ليناظروه فيما قام به من أعمال وما أخذ من أموال فاختفى. وطلبهم المهتدي للصلح على أن ينصرفوا للمصلحة العامة بدلاً من الخلاف بينها والعمل كل لمصلحته، فاتهمه موسى ومن معه من

(١) البداية والنهاية.

القادة أنه يعرف مكان صالح، وتكلموا وحاولوا التهديد فخرج إليهم المهتدي من الغد متقلداً بسيفه، وقال لهم: قد بلغني شأنكم، ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط، وقد أوصيت، وهذا سيفي، والله لأضربن به ما استمسكت قائمته بيدي، أما دين، أما حياء، أما رعة؟ لم يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟ ثم قال: ما أعلم علم صالح، فرضوا وانفضوا.

وأعلن موسى أن يعطي عشرة آلاف دينار لمن يأتي بصالح، فلم يظفر ثم وُجد وقُتل. وغضب المهتدي من هذه الأفعال التي لا يستطيع أن يقاومها، ولم يأخذ قائد رأيه فيما يقوم به، فليس قتل القائد بالأمر السهل، وليست هذه الاعتداءات بالذي يرضى عنه، وفكر الخليفة بأن يتخلص من كبار العسكريين الذين يستبدون بالناس وبالحكم، وذلك بأن يضرب أحدهم بالآخر.

وسار موسى بن بغا ومعه «بايكباك» و«مفلح» لقتال الخارجي مساور بن عبد الحميد، فكتب الخليفة المهتدي إلى القائد «بايكباك» أن يقتل موسى بن بغا، ومفلح القائد التركي الآخر، وأن يتولى هو قيادة الترك جميعهم غير أن «بايكباك» قد أطلع موسى بن بغا على الكتاب، وفهم القادة العسكريون أن الخليفة يريد القضاء عليهم واحداً إثر واحد فساروا إليه فقاومهم بمن معه غير أنه هُزم وقُتل في منتصف رجب من عام ٢٥٦ فكانت خلافته أقل من سنة بخمسة عشر يوماً. ولما قام العسكريون على الخليفة ثارت العامة تؤيد المهتدي، وكتبوا رقاعاً وألقوها في المساجد: يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه[1]. وقتل أيضاً بايكباك إذ دخل على الخليفة مظهراً الطاعة فقتله الخليفة وألقى رأسه إلى

(١) تاريخ الخلفاء.

الأتراك، فأرهبهم واجتمعوا حول أخي بايكباك.

وبعد قتل المهتدي انطلق العسكريون إلى أحمد بن المتوكل وأخرجوه من السجن وبايعوه خليفة باسم المعتمد على الله.

مع هذه الفوضى التي عمّت بسبب تسلّط القادة العسكريين واستبدادهم، وعدم إمكانية أحد للوقوف في وجههم ما داموا يملكون القوة من الجند الذين يطيعونهم بسبب ما يقدمون لهم من بعض الأعطيات بعد السلب والنهب الذي يقومون به. وهذا ما حرّك في نفوس الطامعين القيام بحركات أو الثورة على السلطة الشرعية، ولم يجد هؤلاء الطامعون بدّاً من انتحال نسب هاشمي حيث يمكن أن يجتمع حوله أناس كثيرون من ناقمين على السلطة أو حاقدين على الأوضاع القائمة الاجتماعية والاقتصادية أو مستغلين فرص الفوضى للقيام بالسلب والاعتداء على الحرمات، ولعلّ أخطر حركة قامت في هذه الأونة هي حركة الزنج، وصاحبها هو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس، وهو أجير من الأجراء، وأمّه قرة بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، من ساكني قرية من قرى الريّ يقال لها «ورزنين» وفيها ولد وبها نشأ. ويقول عن نفسه أن جده (لأمه) محمد بن حكيم من أهل الكوفة وكان أحد الذين خرجوا على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، فلما قُتل زيد هرب جده محمد بن حكيم فلحق بالري، ولجأ إلى «ورزنين» فأقام بها. وأما جده (لأبيه) عبد الرحيم فهو رجل من بني عبد القيس ولد في «الطالقان» من أعمال خراسان، وانتقل إلى العراق وأقام بها، واشترى جارية سندية، فأولدها أباه محمداً، ويفهم من هذا الكلام أن محمداً أباه قد انتقل إلى «ورزنين» وتزوج قرة بنت علي فولد هو، فهو من بني عبد القيس. وكان أجيراً حاقداً صاحب أطماع، وعنده إمكانات التلوّن.

انتقل علي بن محمد العبدي هذا إلى البحرين فظهر فيها عام ٢٤٩ وادّعى

أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسين بن عبد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس في «هجر» إلى طاعته فأيدته جماعة، وخالفته أخرى فحدث قتال بين الطرفين بسببه فتحوّل من تبعه عنه فخرج من هجر والتجأ إلى حيّ من بني تميم بالإحساء ومشت معه فئة وأبغضته ثانية فاقتتلوا من أجله ووقع عدد كبير من القتل بينهم فتنكّر له من سار معه في البداية، فسار إلى البادية، وادعى هناك أنه أبو الحسين يحيى بن عمر الذي خرج بالكوفة وقتل، فنصره أقوام وقاتل بهم خصومهم فقُتل منهم عدد كبير فازوروا عنه، فاتجه ببصره إلى البصرة فسار نحوها عام ٢٥٤، وزعم هناك أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأراد أن ينضمّ إلى بعض فئاتها فلم يقدر فرحل إلى بغداد، وأقام بها ما يقرب من سنة، ثم عاد إلى البصرة في رمضان من عام ٢٥٥، وأقام بظاهرها واجتمع إليه الزنج الذين يعملون في الأرض لساداتهم، فيشقون ويعيش الملاك على أتعابهم ولا يعاملونهم المعاملة الطيبة التي أمر بها الإسلام، الأمر الذي نشأ عندهم حقد عليهم استغله هذا الدعي، فحرّضهم عليهم ومنّاهم الأماني فتركوا أعمالهم، والتفوا حوله، وبدأ بأعمال النهب والتعديات، ويقدّم لهم مما يأتون به من هذه الأعمال اللصوصية. وخرجت جيوش الدولة فبدأ ينتصر عليها إذ كانت في شغل شاغل بين القادة العسكريين والخليفة، وبينهم بعضهم مع بعض، وبين الدولة والحركات الثائرة في طبرستان، وقزوين و..... وما كان يربحه من هذه المعارك يجهّز به جماعته ويقوّيهم، ثم تمكّن من دخول الأبلّة وعبادان، فدخل الأول خمس بقين من شهر رجب من عام ٢٥٦ فقتل عدداً كبيراً من أهلها وحرقها فخاف أهل عبادان من ذلك ودخل الرعب إلى قلوبهم فاستسلموا للزنج الذين دخلوا مدينتهم، ثم انتقل الزنج إلى الأهواز فدخلوها وفعلوا بأهلها الأفاعيل، ولم ينتصف شهر رمضان من ذلك العام.

-١٥-

المعتمد على الله
أحمد بن جعفر المتوكل
٢٥٦-٢٧٩

هو أحمد بن جعفر المتوكل، وُلد عام ٢٢٩، وأمه أم ولد تُعرف باسم «فتيان»، بويع بالخلافة لأربع عشرة بقيت من رجب من عام ٢٥٦ فكان عمره يوم ولي الخلافة سبعاً وعشرين سنة. وولّى أخاه أبا أحمد الموفق الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن، ثم أضاف له بغداد والسواد وواسط والبصرة والأهواز وفارس، وفي عام ٢٥٨ ضم إليه أيضاً الجزيرة وقنسرين، وسُمّي الخليفة المعتمد على الله.

جلس المعتمد على الله عام ٢٦١ في دار العامة وولى ابنه جعفراً العهد من بعده وسمّاه المفوّض إلى الله وولاّه المغرب وضمّ إليه موسى بن بغا، وولاّه إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينيا، وولّى أخاه أبا أحمد الموفق العهد بعد ابنه جعفر وولاّه المشرق وضمّ إليه مسرور البلخي وأعطاه جزيرة العرب والأهواز وفارس والريّ وخراسان وطبرستان وقزوين وسجستان والسند.

وفي ٢٦٤ ردّ المعتمد على الله إلى الوزارة الحسن بن مخلد وعزل سليمان بن حرب دون علم أخيه الموفق، فسار إليه أخوه الموفق من بغداد واقتحم عليه سامراء ولم يقع بينهما قتال إذ اصطلحا غير أن الحسن بن مخلد قد ترك الوزارة وهرب من سامراء، وأعيد سليمان بن حرب الى الوزارة من جديد. ومع هذا الصلح فقد بقي المعتمد على الله يتخيل أن أخاه الموفق يريد أن يضغط عليه

ويكفّ يده لذا فقد أراد اللحوق بمصر إلى عند الطولونيين غير أن أخاه الموفق قد أمر نائب الموصل اسحاق بن كنداج أن يردّ المعتمد عن غيّه فردّه، ولم يكن إليه مع أخيه شيء من الأمر حتى أن المعتمد طلب في بعض الأيام ثلاثمائة دينار فلم يصل إليها فقال الشاعر في ذلك:

ومن العجائب في الخلافة أن	ترى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ الدنيا باسمه جميعاً	وما ذاك شيء في يديه
إليه تُحمل الأموال طرّاً	ويُمنع بعض ما يُجبى إليه

وفي عام ٢٧٨ مات الموفق أخو الخليفة، وهو أصغر منه بستة أشهر، وبويع ابنه أبو العباس أحمد بن الموفق ولياً للعهد باسم المعتضد بالله. وبعد عام خلع المعتمد على الله ابنه جعفراً المفوّض إلى الله من ولاية العهد وأعطاها لابن أخيه حيث كان العسكريون يؤيدونه، وفي العام نفسه توفي الخليفة.

كان المعتمد أول خليفة انتقل من سامراء إلى بغداد، ثم لم يعد إليها أحد من الخلفاء بل جعلوا إقامتهم ببغداد. وكان عمره يوم توفي خمسين سنة، فكانت خلافته بذلك ثلاثاً وعشرين سنة، وقد انصرف في أكثر هذه المدة إلى اللهو، وكان قائماً بأمر الدولة أخوه الموفق الذي تلقّب بناصر دين الله، وصار إليه العقد والحلّ والولاية والعزل، وإليه يُجبى الخراج، وكان يُخطب له على المنابر، فيقال: اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفق بالله، ولي عهد المسلمين، أخا أمير المؤمنين، وكان غزير العقل، حسن التدبير، يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم، وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جداً(١). وهو الذي قاد الجيوش ضد الزنج، وعلى يديه - بإذن الله - تمت هزيمتهم. وتوفي قبل أخيه الخليفة بستة أشهر بمرض النقرس فتورمت رجلاه حتى عظمت جداً،

(١) البداية والنهاية.

واستمر في مرضه حتى ملّه أهله والقائمون عليه.

وفي أيام المعتمد على الله كثرت الحركات، وزادت غارات الروم، وقامت إمارات جديدة غير التي قامت من قبل، وعمت تعديات القادة العسكريين ولولا أن قبض الموفق على زمام الأمر لانهارت الدولة أو لاستبدل الخليفة.

الحركات:

فقد ظهر بالكوفة علي بن زيد الطالبي، فوجه الخليفة إليه جيشاً فهزم جيش الخليفة، وقتل عدد كبير من أفراده، ونجا أميره. وتمكن علي بن زيد من دخول الري.

وخرج محمد بن واصل بن ابراهيم التميمي بفارس، وغلب عليها، لكنه عاد في عام ٢٥٨ فدخل في طاعة الخليفة، وحمل إليه الخراج، لكنه لم يلبث أن عاد إلى خلافه، وخلع طاعته عام ٢٦١ غير أنه هُزم أمام يعقوب بن الليث الصفّار، ثم فرّ من فارس أمامه عام ٢٦٢.

ودخل محمد وعلي ولدا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدينة المنورة عام ٢٧١ وعملا بها نهباً.

وثار ابن عيسى بن الشيخ بالقرب من دمشق غير انه هُزم أمام القائد «أماجور»، ورضي الخليفة عنه بعد ذلك، وعيّنه نائباً على أرمينيا.

الخوارج:

وأزعج مساور بن عبدالحميد الخارجي البلاد، واستمرت الدولة في قتاله، وهو في تعدياته حتى توفي عام ٢٦٣. وفي عام ٢٦٧ استولى أحمد بن عبدالله الحجابي على خراسان، وكرمان، وسجستان، وضرب السكة باسمه، وفي نهاية العام قتله أحد جنوده، وأراح المسلمين منه.

وكذلك فقد سيطر الخوارج على مدينة هراة أو استمرت سيطرتهم على

هذه المدينة والتي دامت ثلاثين سنة حتى أنقذها منهم يعقوب بن الليث عام ٢٥٩ حيث ظفر بأميرهم الذي انتحل الخلافة طيلة هذه المدة.

وسببت الإمارات التي قامت مشكلات للدولة وخاصة الدولة الصفارية، والطولونية، والطالبية. غير أن أصعب الحركات وأشدها كانت حركة الزنج.

الزنج:

كلّف سعيد بن الحاجب بقتال الزنج فسار إليهم في رجب من عام ٢٥٧ وهزمهم في أول معركة غير أنه هُزم أمامهم في المعارك التي تلت، وفقد قسماً كبيراً من جيشه، وقُتل هو، واشتدت شوكتهم، واستطاعوا دخول مدينة البصرة في شوال من العام نفسه، وكان أهلها قد أصابهم الرعب والخوف بسبب ما كانوا يسمعون من أعمال هؤلاء الزنج الحاقدين، فغادرت البصرة أعداد كبيرة من أهلها، واتجهوا إلى عدة جهات، ولما دخل الزنج المدينة هدموا دورها وأحرقوها، ثم نادى ابراهيم بن المهلبي بالأمان لأهلها فاجتمع منهم عدد كبير فلما رآهم أمر بقتلهم فأبيدوا.

وفي مستهل ذي القعدة من عام ٢٥٧ أرسل الخليفة جيشاً كثيفاً بقيادة الأمير محمد - المعروف بالمولد -، وأردفه بجيش آخر في ربيع الأول من عام ٢٥٨ بإمرة أخيه الموفق، ومعه القائد مفلح، فقُتل مفلح، كما أسر أحد قادة الزنج، وهو يحيى بن محمد البحراني، وحدث بين الطرفين قتال عنيف في شهر رجب، وانتقل الموفق بعد ذلك إلى واسط حيث اتخذها مقراً لقيادته، ورجع بعدها إلى سامراء، وعهد للأمير محمد بتولّي مهمة القتال.

وتوالت الجيوش إلى حرب الزنج فسار موسى بن بغا نحو البصرة، ومعه اسحاق بن كنداج، وابراهيم بن سيما، كما سار عبدالرحمن بن مفلح نحو الأهواز وذلك عام ٢٥٩، واستطاع عبدالرحمن بن مفلح أن ينتصر على قائد الزنج في منطقة الأهواز، وهو علي بن أبان المهلبي في عدة معارك، وأن يأسر

من أتباعه عدداً كبيراً، وفرّ نتيجة ذلك المهلبي إلى صاحب الزنج، وملك عبدالرحمن بن مفلح الأهواز.

وفي عام ٢٦٠ دخل الزنج الكوفة، وقتلوا علي بن زيد الطالبي الذي امتلكها، كما أن الزنج قد تمكنوا في العام التالي من العودة إلى الأهواز فقتلوا، وسبوا، وسلبوا، وانتهبوا ما شاء لهم هواهم ثم أحرقوا الدور.

وكانت سنوات حالكات على الدولة، فالطولونيون يحاربونها من الغرب، والصفاريون يقاتلونها من الشرق، والروم يغزون أطرافها من الشمال، والذعر ينتشر في جنوب العراق بسبب أعمال الزنج وأفعالهم الدنيئة، وعندها شمّر الموفق عن ساعد الجدّ فخلّص واسط من الصفاريين عام ٢٦٢ غير أن الزنج قد دخلوها بإمرة سليمان بن جامع، ولكن تمكّن أبو العباس بن الموفق من استرجاعها عام ٢٦٧، ثم سار الموفق بنفسه إلى صاحب الزنج، وهو بالمدينة التي أنشأها، وسمّاها «المنيعة»، فدخلها الموفق عنوة، فقتل وأسر كثيراً، وغنم من (المنيعة) أموالاً وفيرة، وأنقذ خمسة آلاف امرأة مسلمة كانت بيد الزنج. ثم سار الموفق إلى بلدة صاحب الزنج الثانية، واسمها «المنصورة»، وبها سليمان بن جامع قائد الزنج، وتمكّن الموفق من دخولها بعد أن قاتل الزنج دونها قتالاً عنيفاً، وكان لها خمسة أسوار، وأنقذ منها عشرة آلاف امرأة مسلمة جلّهم من أهل البصرة.

وكان الموفق - رحمه الله - يدعو الزنج إلى الرجوع إلى الحق، والتوبة عما قاموا به، ويبذل الأمان لمن عاد واستنكر فعل صاحب الزنج الدعيّ، ومن أبى قتله، وفوق كل هذا فقد عمل الموفق على إزالة الأسباب التي دعت إلى حقد هؤلاء الزنوج بإزالة الفوارق التي وجدت، والمعاملة الإسلامية التي يجب أن تسود، وإكرام الخدم كل هذا أدى إلى عودة الكثيرين، ومن ثم وجّه كتاباً إلى صاحب الزنج يدعوه فيه إلى التوبة والرجوع عما ارتكبه من منكرات ومحارم،

ودعوى النبوة، واستحلال ما حرّم الله وبذل له الأمان، فلم يردّ عليه صاحب الزنج، فعدّها الموفق إهانة واستخفافاً، وسار من فوره على رأس خمسين ألفاً نحو مدينة صاحب الزنج «المختارة»، وحاصرها، وقدّم ابنه أبا العباس بين يديه فهزم من خرج إليه، ووثب «بهبوذ» كبير أمراء صاحب الزنج. ثم نادى الموفق بالأمان لأصحاب الدعيّ فطلبه كثيرون، وانتقلوا إلى صفّ الموفق، وأصبحوا على صاحب الزنج بعد أن كانوا معه. وبنى الموفق مدينة تجاه مدينة «المختارة» وجلب إليها الأرزاق كافة. وجرت الحروب بين الطرفين طيلة عام ٢٦٧، وفي العام التالي دخل المسلمون المختارة دون رأي الموفق، ووصلوا إلى وسط المدينة، فخرجت إليهم كمائن الزنج من حيث لا يدرون فاضطروا إلى الفرار. وظفر أبو العباس بجماعة من الأعراب كانوا يجلبون الطعام والمؤن إلى الزنج فقتلهم، كما ظفر ببهبوذ بن عبدالوهاب فقتله وهو كبير أمراء صاحب الزنج. وتمكّن الموفق بعد أن عوفي من سهم أصابه أن يجدّد القتال، وأن يدخل المختارة عام ٢٦٩، وهرب صاحب الزنج إلى مدينة أخرى فتحصّن بها فأرسل الموفق وراءه لؤلؤ مولى أحمد بن طولون الذي جاءه مُفارقاً سيّده، فكان طليعة لجيش الموفق، وفرّ صاحب الزنج من المدينة التي تحصّن بها، فبعث الموفق السرايا خلفه فأتوا برأسه، وأسروا قائده سليمان بن جامع، وعاد الموفق إلى مدينة الموفقية، ثم جيء له بابن صاحب الزنج «انكلاي»، وعلي بن أبان المهلبي أسيرين، وانتهت بذلك حركة الزنج بعد أن دامت أكثر من أربعة عشر عاماً ٢٥٥ ـ ٢٧٠.

وتحرك الزنج ثانية في مدينة واسط عام ٢٧٢، ونادوا «انكلاي يا منصور» فاستدعى الموفق أسرى الزنج، وكانوا في سجن بغداد، وقتلهم، وفي مقدمتهم انكلاي، وسليمان بن جامع، وعلي بن أبان المهلبي فانقطع أمل الزنج، ثم ضرب الثائرين ضربة قاصمة سكنوا بعدها نهائياً.

القرامطة والاسماعيلية:

في الوقت الذي كانت حركة الزنج تحتضر ظهرت دعوة الاسماعيلية ودعوة القرامطة، وكلها تنبع من معين واحد وهو إطلاق العنان للشهوات واصطياد الشباب، وهم في سن المراهقة، وهم وقود الحركات عادة، ثم تنفيذ الأهداف والمرامي السياسية والدينية من وراء ذلك كله. وفي هذه الأونة ظهر أدعياء كثيرون انتسبوا للبيت الهاشمي وما هم كذلك، ولما كان عدد من أصحاب الوجاهة من الهاشميين قد اختفوا من وجه العباسيين كي لا ينالهم أذى بسبب ما يفعله آخرون من الهاشميين سواء أكانوا من طالبي السلطة أم من الذين يدخلون المدن ويعيثون فيها فساداً أم من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ومما سهّل ادعاء كثيرين للبيت الهاشمي اختفاء عدد من الهاشميين فعلاً.

أشيع في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أن أسرة محمد بن اسماعيل ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد انتقلت إلى السلمية في بلاد الشام إلى الشمال الشرقي من حمص، وفي الوقت نفسه فقد انتقلت أسرة ميمون القداح إلى السلمية، وميمون القداح قد عاصر محمد بن اسماعيل السابق الذكر، وكان والد ميمون وهو ديصان يهودياً فأسلم ميمون أو أظهر الإسلام وله أهداف سياسية ودينية وانتسب إلى الدعوة الإسماعيلية، ولما مات ميمون خلفه ابنه عبد الله المتوفى عام ١٨٠ هـ، وأوصى ميمون أن يَسمّي أحفاده بأسماء أحفاد محمد بن اسماعيل كي يختلط الأمر، وفعلاً كان لميمون عبد الله، ولعبد الله أحمد، ولأحمد الحسين، وللحسين عبيد الله وعبيد الله هو المهدي الذي ظهر في المغرب. كما كان لمحمد بن اسماعيل الأسماء نفسها لولده وأحفاده ومما زاد اختلاطاً أن أبناء محمد بن اسماعيل كانوا يحملون ألقاباً وأحياناً أسماء حركية تخفي حقيقتهم، ويبدو أن السلمية أصبحت مركزاً لدعوة هذه الأسرة القداحية أو الميمونية وربما كان صاحب الدعوة يضع

شخصاً يلتقي بالدعاة زيادة في الحيطة على نفسه أو خوفاً على دعوته، وربما يكون قد وجد شخصان أحدهما فعلاً ينتمي إلى أسرة محمد بن اسماعيل وعندها لا يكون انتقال تلك الأسرة إلى السلمية دعاية وشائعة ويقوم بالدعوة لنفسه، وآخر يحمل الاسم نفسه وينتمي إلى الأسرة الميمونية ويعمل لنفسه ويترقب نشاط الأول كي يستغله في الوقت المناسب. وبالجملة فقد كان النشاط قائماً والدعاة ينتشرون في مناطق كثيرة وكان من جملتهم شخص حمل اسم «أبو عبد الله الشيعي» وقد وجد في جنوبي العراق يدعو لأبناء محمد بن اسماعيل، ومن أنصاره «رستم بن الحسين بن حوشب»، وكان في اليمن رجل يُدعى «محمد بن الفضل» كثير المال والعشيرة، ويعد من رؤوس الشيعة هناك، وقد سافر إلى كربلاء ليزور قبر الحسين، فرآه أبو عبد الله الشيعي ورستم بن الحسين ابن حوشب وهو يبكي بكاء مرّاً بجانب القبر، فأحبا كسبه إلى دعوتهما، أو وجدوا فيه ما يصلح لأن يكون من أتباعها، ففاتحاه بالموضوع ولقيا عنده استعداداً كبيراً، وسارا معه إلى اليمن، وهناك بدأت الدعوة تنطلق، والتجأ إليها عدد من الذين كانوا يعيشون جنوبي العراق فكثر الأتباع، وكان من قادتها «رستم بن الحسين بن حوشب»، وقد زار أبو عبد الله الشيعي السلمية والتقى بالإمام المستور - على حد تعبيرهم - ووصلت الأخبار إلى أن المغرب أرض صالحة لبث الدعوة فيها فسار إليها أبو عبدالله الشيعي كما سار إليها قبله رجل اسمه «الحلواني»، وآخر يُدعى «أبو سفيان»، ولعل هذه الكنية وجدت لإبعاد الشبهة إذ لا يمكن للرافضة وما تفرّع عنها أن تكتني بهذه الكنية، وبدأت الدعوة تأخذ طريقها نحو النجاح. أما في اليمن فقد أسس «رستم بن الحسين بن حوشب» إمارة له، وعرف عندهم باسم منصور اليمن، وكان من قادته الكبار علي بن الفضل.

وكان من الدعاة في جنوبي العراق «مهرويه» وهو أحد الذين يُخفون عقيدتهم المجوسية، وهو من أصل فارسي، وكذلك كان «حسين

الأهوازي»، وهو من الفرس أيضاً، وربما كانت نسبته إلى الأهواز لإخفاء شخصيته إذ كان رسولاً متنقلاً لإمام الاسماعيلية المستور، وقد يكون على صلة وثيقة بصاحب الدعوة الأول. وكان عبد الله بن ميمون القداح رأس الدعوة الاسماعيلية الفعلي، وكان يريد أن يُعمّي عن نفسه، فوزّع دعاته في الأمصار، وخاصة أبناءه حتى لا تتجه الأنظار إلى مكان إقامته، فأرسل ابنه أحمد ليقيم في الطالقان من بلاد خراسان، وطلب من دعاته أن يراسلوه إلى هناك، كما أعلن أحمد عن موت ابنه «حسين»، ولم يمض وقت طويل حتى خرج من الأهواز حسين هذا، وعُرف باسم «حسين الأهوازي»، وربما كان هو بالذات حسين ابن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، كما يقال: إن حسين الأهوازي هو رسول الإمام أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل، وهنا يبدو تشابه الأسماء بين أسرة حسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل وأسرة حسين بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون القداح، ومن هنا جاء الاختلاف وادعاء النسب القداحي إلى آل البيت.

عرف حسين الأهوازي كداعية اسماعيلي في جنوبي العراق بغض النظر عن أصله ونسبه، وقد التقى مرة بـ «حمدان بن الأشعث» الذي عرف باسم «قرمط»، وهو في طريقه إلى السلمية حسبما تذهب الرواية القرمطية، وقد استطاع «حسين» استمالة «حمدان» إلى دعوته، وسار معه إلى قريته حيث بدأ العمل هناك بنشاط إذ أن حمدان كان صاحب علاقات اجتماعية كثيرة، وناقماً على المجتمع لوضعه، وكثير الكلام عن الأوضاع، وكان المحيط الذي يعيش فيه حاقداً أيضاً على الحكم العباسي فيستمع إلى كل ناقد، فتوسعت الدعوة بحيث لم يعد أحد ينكر مركزها، وترقى حمدان في سلم الدعوة، ووصل إلى مكان مرموق فيها، وهناك من يقول: إن أصل حمدان يعود إلى الفرس المجوس الذين كانوا يكثرون في ذلك الوسط، ويخططون للعمل ضد الدولة، ويعملون على تهديم الإسلام، وهناك من يقول: إن أصل حمدان يرجع إلى

قد التزموا بالخط تماماً وأنهم أصبحوا مرتبطين به بشكل أكيد، وقد آن له أن يفاتحهم بالأمر.

عاد الرسول إلى سواد الكوفة ونقل الخبر إلى قرمط الذي أدرك اللعبة وترك الصلة بالسلمية، وبدأ العمل وحده منفرداً ولنفسه. وعندما حدث هذا التغير في طريقة (قرمط) حضر أحد أبناء أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من (الطالقان) إلى الكوفة، وهو كبير الدعاة، وصلة الوصل بين السلمية ودعاتها فعاتب (عبدان) ابن عم (قرمط)، وهو مفكر القرامطة، عاتبه على السير على نهج خاص والعمل على انفراد، وشقّ عصا الطاعة إلا أن (عبدان) قتله، وطرده من منطقة السواد، غير أن (زكرويه بن مهرويه) قد استقبله، وتآمر الاثنان معاً على قتل (عبدان)، فثار أهل السواد لأن أكثرهم من أتباع (عبدان)، فخرج القداحي خائفاً يترقب، واختفى (زكرويه). وهنا يبدو اتفاق (زكرويه) و(السلمية) كمرحلة من مراحل العمل، ولكن يبدو أن كلاً منهما يريد الاستقلال والعمل لنفسه، ويبغي استغلال الطرف الآخر لمصلحته، إذ أن (زكرويه) يريد أن يكسب السلمية مركز الدعوة إلى جانبه كي يربح الأنصار، ويبقى على رأس العمل، وتريد السلمية ألا تخرج منطقة السواد من قبضتها وإنما تريد أن تحافظ على بعض الدعاة أمثال (زكرويه) الذي يمكنه كسب تأييد المجوس المستترين ودعم اليهود المادي. ومع هذا الاتفاق المرحلي حرص كل طرف على كسب أنصار له في منطقة نفوذ الآخر، ففي الوقت الذي حرصت فيه السلمية على وجود أعوان لها في جنوبي العراق رأى (زكرويه) أن بلاد الشام منطقة خصبة للعمل إذ أن ضعف الطولونيين يساعد على النشاط هناك بينما هو محصور في مخبئه في منطقة السواد خوفاً من أنصار (عبدان).

الروم؟

ونستطيع أن نقول: إن الروم في هذه المرحلة قد بدأت كفتهم ترجح على المسلمين وإن لم يكن رجحاناً واضحاً إلا أنهم قد تشجعوا على دخول بلاد المسلمين، أو أن هيبة المسلمين قد قلت في أعين الروم بعد أن كانت كبيرة. وخاصة بعد حركة الزنج واستفحال أمرها، وانشغال الدولة بها، وبقتال الإمارات الأخرى.

وثب بسيل الصقلبي عام ٢٥٧ على ميخائيل بن تيوفيل ملك الروم وقتله وغلب على الملك، وكان ميخائيل قد حكم بلاد الروم مدة أربع وعشرين سنة.

وهاجم الروم سميساط، وغلبوا عليها، وانتقلوا إلى (ملاطية) فحاصروها فنفر عليهم أهلها وأعانهم الله فانتصروا عليهم وردوهم على أعقابهم خاسرين. غير أن الروم تمكنوا في عام ٢٦٠ من أخذ (لؤلؤة) من أيدي المسلمين وهي إحدى قلاع الثغور. ودخل المسلمون بلاد الروم عام ٢٦٤ في أربعة آلاف مقاتل بإمرة عبد الله بن رشيد بن كاوس غير أنهم هزموا وأسر أميرهم. وفي العام التالي (٢٦٥) خرج بطارقة الروم في ثلاثين ألفاً إلى بلاد المسلمين من جهة (أذنة) ووصلوا إلى مصلّى المدينة، وقد أسروا والي الثغور، أرخوز، ومعه أربعمائة مسلم، وقضى البطارقة أربعة أيام بالقرب من (أذنة)، ثم عادوا إلى بلادهم، وكرّر البطارقة هجومهم في العام التالي (٢٦٦) ووصلوا إلى ديار بكر، وأسروا مائتين وخمسين مسلماً، فنفر لهم أهل نصيبين فرجع الروم وقد قُتل بطريق البطارقة.

وغدا بعد ذلك جزء من ثغور بلاد الشام يتبع الطولونيين فسار عام ٢٦٦ ثلاثمائة من أهل طرسوس، ودخلوا بلاد الروم، فخرج عليهم أربعة آلاف من أعدائهم فانتصر المسلمون رغم قلتهم، وقتلوا عدداً كبيراً من الروم.

وجاء مائة ألف من الروم فنزلوا قرب طرسوس عام ٢٧٠، وكانوا بإمرة

بطريق البطارقة، فخرج عليهم المسلمون، وهزموهم، وقتلوا الكثير منهم، ومنهم بطريق البطارقة.

وفي عام ٢٧٣ قُتل بسيل الصقلبي ملك الروم بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، وقد عدا عليه أولاده، فقتلوه، واستلم الأمر بعده أحدهم.

وفي عام ٢٧٤ غزا نائب طرسوس «يازمان» بلاد الروم، وأوغل فيها، وقتل كثيراً، وغنم.

الإمارات

بقيت الإمارات القديمة كما هي ليست على صلاتٍ كبيرة أو على تماس مع الخلافة، وإن بدأ الوهن والضعف يظهر عليها بشكلٍ أكبر أو أنها أصبحت في مرحلة الهرم، ونشأت إمارات جديدة دخلت في صراع مع الخلافة وإن كانت أحياناً تتحسن العلاقات بينهما، ويُعطي الأمير الولاية أو يُضاف إليه مقاطعات أخرى إرضاءً له.

١ ـ الدولة الأموية في الأندلس:

كان أمير الأندلس الأموي محمد الأول بن عبدالرحمن الثاني، وقد حكم منذ عام ٢٣٨، واستمر حتى وفاته عام ٢٧٣ حيث خلفه ابنه المنذر، وفي أيام محمد الأول توطد الأمن، وأرسل حملاتٍ إلى الإمارات النصرانية، وقد تكللت أكثر حملاته بالنصر. ولم تطل أيام المنذر إذ لم يدم حكمه سوى سنتين توفي بعدها عام ٢٧٥ وقد أحبه الناس، وكان عادلاً، وخلفه أخوه عبد الله، وكان قاسياً، انتشرت الفوضى في أيامه، وخرج الولاة عليه، وأعلنوا استقلالهم عنه، واستمر حتى عام ٣٠٠هـ حيث خلفه حفيده عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله.

٢ ـ دولة الأدارسة:

كان الخلاف يعمّ منطقة المغرب الأقصى، إذ يتنازع على الحكم أبناء الأسرة الواحدة ويستعين بعضهم بغيرهم على بعض.

٣ ـ دولة الخوارج الأباضية الرستمية:

توفي أفلح بن عبدالوهاب عام ٢٥٨، وخلفه ابنه أبو بكر، وفي أيامه استبد محمد بن عرفة بالأمر، أو كان هو المتنفذ، واستاءت قبيلة نفوسة من هذا

باستثناء بطن منها وهو «هوارة»، وتسلّم أخو الإمام أبي بكر بعض المسؤوليات وهو «أبو اليقظان محمد بن أفلح، فأحسن فيها العمل، ولما ارتفعت أسهمه وخاصة عند قبيلة نفوسة، وعلا أمرته بالذات بدأ يحرّض أخاه أبا بكر على قتل محمد بن عرفة، وتمّ هذا، واعتزل أبو بكر الإمامة عام ٢٦٠، وتولى أمرها أخوه أبو اليقظان، فحدثت خلافات عصبية اضطر إثرها أبو اليقظان أن يغادر «تاهرت»، وتسلّم الجند الأمر بعد أن سيطروا على المدينة، ولكن لم يلبث أن اقتحم بدو «هوارة» المدينة، ونصبوا عليها محمد بن مسالة، وقد اتسم حكمه بالهدوء، ووقع خلاف بين قبيلتي «هوارة» و«لواته» فأخرجت الأخيرة من المدينة فانضمت إلى أبي اليقظان فاستطاع من العودة إلى حكم تاهرت عام ٢٦٨، واستقر له الأمر حتى عام ٢٨١.

٤ ـ دولة الخوارج الصفرية المدرارية:

كان أمير بني مدرار ميمون بن بقية أو إمام الصفرية في «سجلماسة»، وبقي حتى عام ٢٦٣، وكان قاسياً، وقد اضطر إلى هذا السلوك لمواجهة الخوارج الأباضيين في إمارته، والذين يدعمون أخاه ابن الرستمية، وقد هجر أكثر الأباضيين مدينة «سجلماسة»، واتجهوا نحو وادي «درعه»، وخلفه ابنه محمد بن ميمون، وقد طارد الأباضيين، وبقي حتى توفي عام ٢٧٠، وخلفه اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن أبي القاسم، ولقّب بالمنتصر واستمر حتى مقتله على يد العبيديين عام ٢٩٧.

٥ ـ دولة الأغالبة:

كان يحكم دولة الأغالبة (٢٥٠ ـ ٢٦١) محمد الثاني بن أحمد، ويُلقّب بأبي الغرانيق، وتابع فتح جزيرة صقلية، كما حاول مدّ الفتح إلى جنوبي إيطاليا، وعندما توفي خلفه ابنه، لكن لم يلبث بالإمرة سوى عدة أيام حتى أخذ عمه الإمارة منه، وهو ابراهيم الثاني، الذي فتح المسلمون في عهده مدينة

«سرقوسة» في صقلية عام ٢٧٤، واستمر حكمه حتى عام ٢٨٩، وقد قاتل العباس بن أحمد بن طولون الذي خرج عن طاعة أبيه، واتجه نحو الغرب، وراسل ابراهيم الثاني هذا، وادّعى أن الخليفة قد قلّده أمر المغرب، وطلب أن يُدعى له على منابرها، وسار العباس حتى وصل إلى مدينة (لبدة) فاستقبله أهلها فاستباحها، وغرّته نفسه فتابع السير نحو الغرب فقاتله ابراهيم الثاني أمير الأغالبة وهزمه واضطره إلى العودة إلى برقة، وكان ابراهيم الثاني حازماً عادلاً في أموره، أمّن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين، يسمع شكوى الخصوم وينصر عليهم، وينصف بينهم... وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان، تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها[1].

٦ ـ دولة بني زياد:

وكان يحكمها ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد (٢٤٢ ـ ٢٨٩) أي مدة سبع وأربعين سنة، وكان مقره زبيد، وقد كانت اليمن كلها تحت نفوذهم ثم استولى بنو يعفر على صنعاء عام ٢٢٥، وبنو الكرندي على جند.

٧ ـ دولة بني يعفر:

وكانت في صنعاء واستمر حكم مؤسسها ابراهيم بن يعفر ٢٢٥ ـ ٢٦٠، وجاء ابنه عبدالرحيم الذي خلفه ابنه يعفر ودام ملكه ٢٦٠ ـ ٢٨٢.

٨ ـ الدولة الطولونية:

تقلّد القائد «بايكباك» مصر فأرسل إليها من قبله أحمد بن طولون[2]

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير.

(٢) ولد أحمد بن طولون عام ٢١٤، وكان أبوه طولون قد أهدي إلى الخليفة المأمون عام ٢٠٠ من قبل صاحب بخارى نوح بن أسد الساماني. وتوفي طولون عام ٢٣٠، وقد نشأ ابنه أحمد ـ

فدخلها عام ٢٥٤. وقُتل «بايكباك» عام ٢٥٦، وتولّى أمر مصر «يارجوخ»، وهو صهر أحمد بن طولون فكتب إليه «تسلّم من نفسك لنفسك» وبذلك أقرّه على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها فقوي مركزه وتغلّب على منافسيه. وفي عام ٢٥٩ مات «يارجوخ» صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه، ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فتوطّدت قدمه في هذه البلاد، وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة مباشرة، وفي عام ٢٦٣ كتب الخليفة المعتمد إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج، فردّ عليه «لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري»، فقلّده خراج مصر، وولاه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده[1].

كان الخليفة المعتمد على الله يميل إلى أحمد بن طولون غير أن أخاه الموفق كان لا يرغب فيه وأمور الدولة بيد الموفق، وهذا ما أجبر الخليفة على عزله عن الثغور الشامية، ولكنه عاد فردّها إليه مستفيداً من انشغال أخيه الموفق بحرب الزنج ومحتجاً باضطراب تلك الثغور بعد إبعاد ابن طولون عنها. وعندما توفي والي الشام «ماجور» سار إليها فدانت له مدنها، ودُعي له على منابرها عام ٢٦٥ ودخل انطاكية وخافه الروم فأرسلوا له الهدايا، ثم اضطر إلى الانسحاب منها بعد خلع طاعة ابنه العباس إذ رجع إلى مصر، فانسحب ابنه إلى برقة، فأرسل إليه جيشاً أعاده فسجنه والده حتى مات.

ترك مولى ابن طولون «لؤلؤ» سيّده، وكان واليه على الرقة وحمص وحلب وقنسرين وانحاز إلى جانب الموفق فسار ابن طولون إلى بلاد الشام، وأراد الخليفة المعتمد على الله الالتجاء إليه، والتخلّص من أخيه الموفق الذي شعر

* نشأة دينية فكان يعيب على الأتراك ما يرتكبونه من منكرات، وكان من حفظة كتاب الله، ويكرم أهله. كثير الصدقات، كريماً عادلاً في الرعية.

(1) تاريخ الإسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ الجزء الثالث.

بأن كل شيء في الدولة أصبح بيده، غير أن والي الموصل والجزيرة اسحاق بن كنداج قد ردّ الخليفة إلى سامراء، وأعلن الخليفة عن عزل ابن طولون عن مصر واعطائها إلى اسحاق بن كنداج فضعف مركز ابن طولون وهُزمت جيوشه في طرسوس، كما هُزمت في مكة، غير أن ابن كنداج لم يستطع الوصول إلى مصر فبقيت لابن طولون الذي توفي في العام التالي، فاختار الجند ابنه خمارويه والياً على مصر، ولم يكن للخليفة إلا أن يوافق على ذلك.

تحركت جيوش الخليفة من بغداد وجيوش خمارويه من مصر، وانتصرت جيوش الخليفة ودخلت دمشق بعد معركة الطواحين عام ٢٧١ فسار خمارويه بنفسه على رأس جيش فدخل دمشق عام ٢٧٣، وواصل التقدم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ووافق الخليفة وأخوه الموفق على اعطاء مصر لخمارويه وأولاده لمدة ثلاثين سنة.

واختلف اسحاق بن كنداج صاحب الموصل وابن أبي الساج صاحب قنسرين فدعا ابن أبي الساج إلى خمارويه فدعمه وحارب اسحاق بن كنداج الذي فرّ إلى قلعة ماردين، وأخذ ابن أبي الساج الموصل والجزيرة وخطب على منابرها لخمارويه، ثم عاد فاختلف معه عام ٢٧٥، واقتتلا عند ثنية العقاب (الثنايا) شمال شرقي دمشق فهزم ابن أبي الساج، ولاحقه خمارويه من كل جهة حتى فرّ إلى الخليفة، وعاد اسحاق بن كنداج إلى الجزيرة. ثم زادت سلطة خمارويه بعد موت الموفق واسحاق بن كنداج عام ٢٧٨ ثم موت الخليفة المعتمد على الله عام ٢٧٩، وبيعة المعتضد بالله إذ أقرّه الخليفة الجديد والياً على الأرض الممتدة من الفرات إلى برقة هو وأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً، كما تزوج من ابنة خمارويه «قطر الندى»، وتوفي خمارويه ٢٨٢.

٥ ـ الدولة الصفارية:

احتل يعقوب بن الليث عام ٢٥٩ نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية على غير

رأى الخليفة مدعياً أن أهل خراسان طلبوه بسبب الضعف الذي آل إليه الطاهريون، كما حارب ملوك الترك الذين يجاورون سجستان حتى أذعنوا له. وكان قد تولى أمر بلخ وطخارستان وكرمان وسجستان والسند بكتاب من الموفق أخي الخليفة على أن يعود عن فارس عندما اتجه إليها عام ٢٥٧ فوافق ورجع.

وسار يعقوب إلى طبرستان فدخلها وهزم الحسن بن زيد الطالبي، ثم عاد فانسحب منها فرجع إليها الطالبي وذلك عام ٢٦٠، وفي العام التالي سار إلى الأهواز فدخلها ورغب في الاتجاه إلى بغداد حيث حصل بينه وبين رجال الدولة خلاف ثم أرسل رسله إلى الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وكل ما كان تحت يد طاهر بن الحسين وشرطتي بغداد وسامراء وولاية كرمان وسجستان، وأن يُقرأ خلاف ما قرئ من قبل من لعن له فوافق الموفق أخو الخليفة، ومع هذا فقد زادت أطماعه فاتجه نحو بغداد ودخل واسطاً قهراً فالتقى بجند الدولة وقد تقدمهم الخليفة المعتمد على الله فثار الجند على يعقوب وهزم وذلك عام ٢٦٢، ولكنه في العام نفسه دخل فارس، واستولى على جنديسابور عام ٢٦٣ وأخذ الأهواز من صاحب الزنج بعد معارك عنيفة. ومات يعقوب بن الليث عام ٢٦٥ بالأهواز، وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي كتب إلى الخليفة بالسمع والطاعة فأقرّه الموفق على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد فأناب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عنه في شرطة بغداد وسامراء.

عاد الخليفة فعزل عمرو بن الليث عن خراسان عام ٢٧١ وأمر بلعنه على المنابر، وولّى محمد بن طاهر على خراسان غير أن هذا قد آثر البقاء في بغداد وأناب عنه رافع بن هرثمة، وانتصرت جيوش الخلافة على جيوش الصفاريين، وخرج الموفق لحرب عمرو بن الليث عام ٢٧٤ غير أنه لم يستطع دخول كرمان

وسجستان واضطر إلى العودة، وبقي الوضع على ما آل إليه طيلة أيام المعتمد على الله الباقية.

١٠ ـ الدولة السامانية:

ينتسب السامانيون إلى أحد رجالات الفرس المسمى «سامان»، والذي كان مجوسياً واعتنق الإسلام في أواخر عهد الدولة الأموية، وسمّى ابنه أسداً باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في ذلك الحين، وظهر أولاد أسد كزعماء، في عهد المأمون فولي أحمد بن أسد «فرغانة»، ونوح بن أسد «سمرقند»، ويحيى بن أسد «الشاش» و«أشروسنة»، والياس بن أسد «هراة»، وذلك حوالي عام ٢٠٤، ولما آل حكم خراسان والمشرق إلى طاهر إلى الحسين أقرّ أولاد أسد بن سامان على ما تحت أيديهم، ولما توفي أحمد بن أسد خلفه ابنه نصر فحكم فرغانة أو أقره الطاهريون عليها، وفي عام ٢٦١ ولاّه الخليفة المعتمد على الله بلاد ما وراء النهر كلها فجعل قاعدة ملكه مدينة «سمرقند»، وولّى أخاه اسماعيل مدينة بخارى، ولكن وقع الخلاف بينهما فسار نصر لحرب أخيه اسماعيل عام ٢٧٢ غير أنهما تصالحا، ثم عادت الحرب بينهما عام ٢٧٥، وانتصر اسماعيل على نصر الذي وقع في الأسر، وحُمل إلى أخيه اسماعيل فلما وصل إليه ترجّل اسماعيل وقبّل يديه، وأعاده إلى سمرقند وعدّه هو الوالي أما هو فعدّ نفسه نائباً لأخيه على بخارى، وبقي الأمر هكذا حتى مات نصر عام ٢٧٩ فآلت زعامة السامانيين إلى اسماعيل.

١١ ـ الدولة الطالبية في طبرستان:

أصاب أهل طبرستان حيف فحدثت فوضى فاستدعى أهلها الحسن بن زيد فجاءهم فبايعوه، واستطاع أن يُخرج منها واليها سليمان بن عبد الله بن طاهر، ثم وجه جيشاً إلى الريّ فدخلها وأخرج منها الطاهريين غير أن أهل الريّ كرهوا واليهم، فوجّه محمد بن طاهر جيشاً أخذ الري التي استمر الطرفان

يستاز عليها ، وفي العام التالي دخل سليمان بن عبد الله طبرستان وفرّ منها الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم، وبعد مدة عاد إليها ، وفي عام ٢٥٥ دخل مفلح طبرستان والتجأ الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم لكن رجع إليها لأن مفلح تركها وسار نحو بغداد. وأراد الحسن بن زيد أن يتوسع في بلاد خراسان فحاربه موسى بن بغا وانتصر عليه، وبقي الحسن هذا شأنه حتى توفي عام ٢٧١ بعد أن حكم طبرستان تسعة عشر عاماً وستة أشهر وخلفه فيها أخوه محمد بن زيد ، وقد هزم أمام جند الخليفة عام ٢٧٢ وخرج من الري.

- ١٦ -
المعتضد بالله
احمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل
٢٧٩ - ٢٨٩

هو أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل، أبو العباس، ولد في ذي القعدة من عام اثنين وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد تدعى « صواب »، بويع بالخلافة لعشر بقين من رجب من عام تسعة وسبعين ومائتين بعد عمه المعتمد على الله. كان ملكاً شجاعاً، مهيباً، ظاهر الجبروت، وافر العقل، شديد الوطأة، من أفراد خلفاء بني العباس، وكان يقدم على الأسد وحده لشجاعته، وكان قليل الرحمة إذا غضب على قائد أمر بأن يلقى في حفيرة ويطمّ عليه، وكان ذا سياسة عظيمة. قال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت. وقال لاسماعيل القاضي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وكان المعتضد شهماً، جلداً، موصوفاً بالرجولة، وقد لقي الحروب، وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس، ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته.

وكانت أيامه طيبة، كثيرة الأمن والرخاء. وقد أسقط المكوس، ونشر العدل، ورفع الظلم عن الرعية. وكان يسمّى « السفاح الثاني »، لأنه جدّد ملك بني العباس، وكان قد خلق وضعف، وكاد يزول، وكان في اضطراب من وقت قتل المتوكل.

وفي أول سنة استخلف فيها منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما

شاكلتها، ومنع القصّاص والمنجمين من القعود في الطريق[1]. وكان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، فلهذا كان بعض الناس يبخّله، ومن الناس من يعده من الخلفاء الراشدين المذكورين في الحديث، حديث جابر بن سمرة فالله أعلم[2].

كان أسمر، نحيف الجسم، معتدل القامة، قد وخطه الشيب، في مقدم لحيته طول، وفي رأسه شامة بيضاء. وكان أمر الخلافة قد ضعُف في أيام عمه المعتمد، فلما ولي المعتضد أقام شعارها ورفع منارها، وكان شجاعاً فاضلاً من رجالات قريش حزماً وجرأة وإقداماً وحزمة. وكذلك كان أبوه[3].

وتوفي ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي سنة ٢٨٢ أمر بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بترك افتتاح الخراج في النيروز الذي هو نيروز العجم، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران، وسمّي ذلك النيروز المعتضدي، فأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد بها، وورد كتابه بذلك على يوسف بن يعقوب يعلمه أنه أراد بذلك الترفيه على الناس، والرفق بهم، وأمر أن يُقرأ كتابه على الناس، ففعل[4].

وسار الخليفة المعتضد إلى هارون الشاري بناحية الموصل عام ٢٨٣، وأرسل إليه الحسين بن حمدان بن حمدون الذي اشترط شروطاً لحمله إليه منها: إطلاق سراح والده حمدان بن حمدون المسجون في سجن الخليفة، وقد ظفر به، وحُققت شروطه. وسار عام ٢٨٥ إلى آمد فوصل إليها في العام التالي وحاصر فيها محمد بن أحمد بن عيسى الذي تحصّن فيها، وجرت حروب بين الطرفين

---

(١) تاريخ الخلفاء.
(٢) البداية والنهاية.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ الطبري.

أجبر محمد بن أحمد بعدها أن يطلب الأمان، ونزل للخليفة من قلعته.

وفي أيام المعتضد بالله زاد الغزو في بلاد الروم سواء أكان عن طريق الثغور الشامية وخاصة طرسوس التي غالباً ما كانت بأيدي الطولونيين أم عن طريق ثغور الجزيرة. وكذلك فقد كان غزو بلاد الترك التي بعد ما وراء بلاد النهر حيث كان يقوم السامانيون بالغزو، وقد سار اسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني عام ٢٨٠ إلى بلاد الترك وأسر ملكهم وزوجته «خاتون»، وجرى تبادل الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٣، وكان عدد الأسرى من المسلمين أربعة وخمسمائة وألفين.

القرامطة:

نشطت الحركات القرمطية، وتعددت جماعاتها، وإذا كانت قد نُسبت في أول أمرها إلى قرمط وهو حمدان بن الأشعث إلا أنه قد أصبحت كل جماعة تحمل فكرة قرمط تُنسب إليه، وهي تعتمد على إطلاق العنان للشهوات البهيمية لاستغلال الشباب واستغلال المحرومين من الحياة الزوجية لبعدهم عن مواطنهم وعدم إمكاناتهم من الزواج، والحاقدين في الوقت نفسه على المتزوجين المتعمين، كما تعتمد على شيوعية الأموال واستغلال الفقراء والناقمين على الأثرياء، أو استغلال الأرقاء على ساداتهم، ثم الإفساد بالأرض بكل وجوهه وأساليبه.

ففي جنوبي العراق وجد زكرويه بن مهرويه شدةً عليه فمن ناحية ينقم عليه أتباع قرمط وابن عمه عبدان، ومن ناحية ثانية فقد اشتد الخليفة المعتضد في ملاحقة أتباع هذه الأفكار الكافرة من جهة والدنيئة من جهة أخرى، فأما الناحية الأولى فقد انتهى منها بالتخلص من «عبدان» بقتله ويبدو أن يحيى بن زكرويه هو الذي تولّى عملية القتل، ثم تلاه التخلص من حمدان. أما الناحية الثانية وهو ضغط الخليفة فلم يستطع التخلص منه بل اشتدت وطأته عليه لذا

فقد بقي في مخبئه وظن أنه يمكنه أن يضمّ إليه أتباع قرمط في المستقبل بزوال رئيسهم حمدان، ومفكرهم عبدان ما دامت الفكرة واحدةً، ورأى أن بلاد الشام تعمها الفوضى والحكم الطولوني فيها قد أصبح ضعيفاً لذا يمكن أن تكون مجالاً لنشاطه فأرسل أولاده، بعث يحيى بعد أن بايعه أتباع أبيه زكرويه في سواد الكوفة عام ٢٨٩، ولقبوه بالشيخ، كما كان يعرف بأبي القاسم. ادعى يحيى نسباً اسماعيلياً فزعم أنه محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، وادعى لجماعته أن ناقته مأمورة، فإن تبعوها ظفروا، وأظهر لهم عضداً ناقصةً وزعم أنها آية، وقد تسمّوا بالفاطميين، وأرسل لهم هارون بن خارويه جيشاً بقيادة «طغج بن جف» فهزمته القرامطة، وسارت نحو دمشق بعد أن انتهبت وانتهكت البلاد التي مرّت عليها كلها، وحاصرت دمشق عام ٢٩٠ ولكنها عجزت عن فتحها، وأرسل الطولونيون لها جيشاً بقيادة بدر الكبير غلام أحمد بن طولون، فانتصر على القرامطة وقتل زعيمهم يحيى بن زكرويه.

أرسل زكرويه بن مهرويه من مخبئه ابنه الثاني «الحسين» وادعى الآخر نسباً اسماعيلياً فزعم أنه أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، ووضع شامة على وجهه لذا عرف باسم (صاحب الخال) أو (أبو شامة) وذكر لأصحابه أنها آية له، وسار في إثر أخيه قبل أن يقتل.

لما شعر يحيى بن زكرويه أنه عاجز عن فتح دمشق إذ جاءت لأهلها نجدات من بغداد ومن مصر، وأحسّ أنه مقتول لا محالة ادعى أنه سيطلع إلى السماء غداً، وأنه سيبقى فيها أربعين يوماً، ثم يعود، وأن أخاه «الحسين» سيأتي غداً في نجدة ـ وكان قد بلغه ذلك ـ فعليهم بيعته والقتال معه والسير وراءه، وفي اليوم التالي جرت معركة قرب دمشق قتل فيها يحيى بن زكرويه وكان قد عرف يومذاك بصاحب الجمل حيث كان يمتطي جملاً خاصاً.

وكما اشتدت وطأة المعتضد على القرامطة في جنوبي العراق اشتدت في كل

مكان، ففي السلمية في بلاد الشام زاد الطلب على أسرة ميمون القداح التي تزعم أنها تعمل لأبناء محمد بن اسماعيل، وتريد في الواقع أن تعمل لنفسها وتخفي في الباطن ما تدعو له، ولها هدف سياسي واضح من أصلها اليهودي، وبسبب هذا الطلب فقد فرّ عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح من السلمية وهو رأس هذه الأسرة واتجه نحو الجنوب حيث اختفى بالرملة، وفي هذا الوقت كان الحسين بن زكرويه في طريقه من الكوفة إلى أخيه يحيى بدمشق، فعرّج الحسين إلى الرملة وعرف مكان عبيد الله، والتقى به، وحاول استرضاءه وإظهار الطاعة له عسى أن يستفيد منه، وأظهر عبيد الله رضاءه عنه وموافقته على عمله خوفاً من أن يقتله أو يرشد عليه عامل العباسيين، حيث كان آل زكرويه يريدون التفرد بالسلطة ويرجعون بأصولهم إلى المجوسية، وإن عبيد الله أقوى من يقف في وجههم، وما أن غادر الحسين ابن زكرويه الرملة، حتى انصرف منها أيضاً عبيد الله متجهاً نحو مصر.

سار الحسين من الرملة إلى دمشق، فوجد أخاه يحيى قد قتل، فالتف القرامطة حوله، وحاصر بهم دمشق، لكنه عجز عن فتحها، فطلبه أهل حمص فسار إليهم، فأطاعوه، ثم انتقل الى السلمية فامتنعت عنه، ثم فتحت أبوابها له بعد أن أعطى أهلها الأمان، وما أن دخلها حتى نكّل بقاطنيها، فأحرق دورها، وهدّم القلاع فيها، وقتل الهاشميين فيها دلالةً على الحقد الذي يغلي في صدور هذه الفئة على آل البيت رغم ادعاء زعمائها بالانتساب إلى آل البيت، ودلالةً أيضاً على كراهية الإسلام الذي قضى على المجوسية في فارس، ثم قتل من استطاع قتلهم من آل محمد بن اسماعيل الذين يدّعي العمل لهم، كما قتل آل عبيد الله بن الحسين القداحي حيث كل منهم يعمل لنفسه وكان عبيد الله قد رفض اعطاء آل زكرويه مراكز مهمةً في الدعوة التي يعمل لها. ثم سار الحسين ابن زكرويه من السلمية على رأس قرامطته إلى حماه، والمعرة، وبعلبك وعمل القتل في أهل كل بلدٍ وصل إليها، وأغارت جماعته على حلب، غير أن

القرامطة قد هزموا في جهات حلب لذا عادوا فاتجهوا إلى جهات الكوفة وهناك قاتلهم الخليفة (المكتفي) فوقع الحسين بن زكرويه أسيراً فحمل إلى بغداد حيث قتل وصلب فيها عام ٢٩١. وعندما قُتل ولدا زكرويه يحيى والحسين خرج أبوهما من مخبئه الذي اختفى فيه مدة تقرب من ثلاث سنوات، وعندما خرج سجد له أنصاره المقربون الذين يعرفون أهداف الحركة، وسار بأتباعه نحو بلاد الشام فأمعنوا في القتل، واعترضوا طريق القوافل والحجاج، وارتكبوا من الفواحش ما يصعب وصفه، واتجه نحو مدينة دمشق فحاصرها، ولكنه عجز عن فتحها، وأخيراً هزم وقتل عام ٣٠١ بعد أن عاث في الأرض الفساد، وتشتت أتباعه فمنهم من انتقل إلى البحرين، ومنهم من سار إلى بلاد الكلبية وبهراء في بلاد الشام فاختلط مع أهلها الذين يعيشون في قلاعهم ومعاقلهم في الجبال الشمالية الغربية من بلاد الشام والذين يلتقون معهم ببعض الأفكار وإن كانوا أقرب إلى الأسرة القداحية حيث الأصل اليهودي، ومنهم من اختفى في البوادي ثم تحالف مع القبائل الضاربة فيها أو سار إلى أماكن نائية حيث ضاع فعله بين السكان الآخرين. وهكذا انتهى القرامطة من جنوبي العراق، واتجهوا إلى بلاد الشام فهزموا وذابوا.

أما عبيدالله بن الحسين القداحي فقد علم ما حلّ بأهله بالسلمية، وما نزل بآل محمد بن اسماعيل فيها أيضاً، فنسب نفسه إلى آل محمد بن اسماعيل، وعلم كذلك أن الدعوة الشيعية قد قويت في بلاد المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي الذي سار من اليمن عن طريق رستم بن الحسين بن حوشب الذي يدعو إلى آل البيت عن طريق آل محمد بن اسماعيل فيمم عبيد الله القداحي وجهه نحو المغرب على أنه عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق.

أما في اليمن فقد كان نجاح رستم بن الحسين بن حوشب واضحاً إذ أسس دولة الاسماعيلية وبدأ يرسل الدعاة إلى عدة جهات ومنها المغرب، وكان من

أكبر أعوانه وقادته علي بن الفضل الذي اختلف معه، واقتنل بالنفاق الناس حوله، فسار شوطاً بعيداً في الفساد فحكم البلاد، ودخل زبيد وصنعاء، وادعى النبوة، وأباح المحرمات، وكان المؤذن في مجلسه يؤذن، أشهد أن علي ابن الفضل رسول الله»[1]، وأنشد شاعره:

خذي الدف يا هذي والعبي ... وغني هزازيك واطربي
تولى نبيّ بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرُب
لكل نبيّ مضى شرعة ... وهذي شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلّوا فلا تنهضي ... وإن صوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب[2]

ثم امتد به عتوّه، فجعل يكتب إلى عماله: «من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان». ثم مات مسموماً عام ٣٠٣[3]، ولم تلبث دولة القرامطة في اليمن أن دالت.

أما في البحرين فقد قدم إليها عام ٢٨١ رجل يقال له يحيى بن المهدي نزل القطيف ودعا أهلها إلى بيعة المهدي فاستجاب له رجل يقال له علي بن العلاء ابن حمدان الزيادي وساعده في الدعوة إلى المهدي، وجمع الشيعة الذين كانوا بالقطيف فاستجابوا له، وكان من جملة من استجاب له أبو سعيد الجنابي واسمه الحسن بن بهرام، ويعود في أصله إلى بلدة (جنّابا) قرب سيراف، وقد نزل إلى البحرين منفياً فعمل سمساراً في الطعام يبيعه، ويحسب للناس الأثمان، ثم بدأ يعمل بالفراء ويتنقل بين البحرين وسواد الكوفة، وصحب عبدان أو

(١) الأعلام - الزركلي.
(٢) [illegible] - مختصر التحفة.
(٣) الأعلام - الزركلي.

حمدان وتأثر به، وعندما رجع إلى القطيف برز بين جماعته بدعوته. أما يحيى بن المهدي فقد ادعى النبوة وانفرد بمجموعة، وتزعم أبو سعيد الجنابي بقية المجموعة وأجابه عدد من السوقة ومن ساءت حالتهم المعاشية، وعدد من الشباب الذين أغراهم بالنساء التي جعلها مباحة بينهم، كما منّاهم بالمال وامتلاك الأرض، وهيأ لهم طريق الشهرة بالقوة التي أظهرها إذ زاد عددهم، وبدا لهم أنهم أصبحوا جماعة يخشى جانبها فظهروا عام ٢٨٦ فعاثوا في الأرض الفساد إذ قتلوا وسبوا في بلاد هجر كثيراً ثم ساروا إلى القطيف فقتلوا الكثير من أهلها، وأظهر أبو سعيد الجنابي أنه يريد البصرة فجهز له الخليفة جيشاً قوامه عشرة آلاف بإمرة العباس بن عمرو الغنوي، فانتصر القرامطة وأسروا الجيش العباسي كله، وقتل أبو سعيد الجنابي الأسرى جميعهم باستثناء أمير الجيش الغنوي الذي أطلق سراحه. واستمر نشاط القرامطة حتى عام ٣٠١ حيث قُتل الجنابي على يد خادمه بالحمام، ثم قتل خمسة آخرين من كبارهم وحتى فطن الباقون إلى أمرهم فاجتمعوا على الخادم وقتلوه. ويبدو أن قرامطة البحرين كانوا من أنصار حمدان القرمطي وابن عمه عبدان، لذا لم يدعموا أبناء زكرويه عندما قاموا بحركاتهم، وإنما عملوا منفردين في منطقة البحرين.

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في عهد الخليفة المعتضد.

١ - الأمويون في الأندلس:

كان الأمير عبد الله بن محمد مكروهاً، فكثرت الفوضى في أيامه، وانفصلت مقاطعات عن الدولة، واشتدت وطأة النصارى في الشمال، ولعل أبرز ما في الأندلس حركة عمر بن حفصون الذي ارتد إلى النصرانية، وأثار سكان الجبال في مقاطعة غرناطة، وهزم جيوش الأمير عبد الله أكثر من مرة، وأصبحت اشبيلية تنافس قرطبة.

٢ - دولة الأدارسة:

وكانت في فوضى واضطراب بسبب القتال بين أبناء ادريس والخوارج من الصفرية وبسبب هذه الحروب فقد ساءت الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

٣ - دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

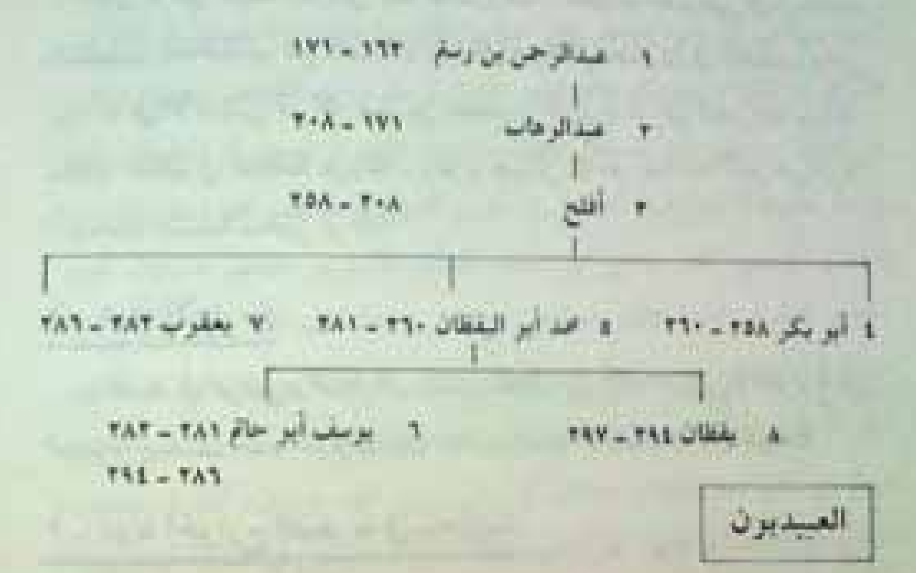
وكان أميرها المنتصر اليسع بن ميمون بن اليسع بن أبي القاسم وقد بدأ يقاتل الأدارسة لأن قبيلة «مطغرة» كانت تحت حكم الأدارسة، وعدد غير قليل من أبناء هذه القبيلة يحمل الفكر الخارجي، وبدأ الادارسة يضطهدون الخوارج الصفرية فاستنجدوا بالمنتصر اليسع حيث يعد إمام الصفرية، فأخذ على عاتقه حرب الأدارسة.

٤ - دولة الخوارج الأباضية في تاهرت:

كان أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان إمام الخوارج الأباضية وقد عمّ الخلاف وكثرت الفوضى، وطُرد أبو حاتم من المدينة ومعه أسرته وأعوانه من قبيلة نفوسة غير أنه لجأ إلى قبائل صنهاجة ولواتة وجمع منها ومن أنصاره

إمارة الخوارج الأباضية الرستمية

١٦٢ - ٢٩٧



السابقين وهاجم مدينة تاهرت وحاصرها وكادت المدينة تستسلم لولا تعنت أبي حاتم وطلبه بتسليم زعماء المدينة، وعندها رفض أهل المدينة الاستسلام، واستدعوا عمه يعقوب بن أفلح من (زواغة) وبايعوه بالإمامة عام ٢٨٢. وعمل أبو حاتم على استمالة بعض زعماء المدينة عن طريق الأموال فانحازوا إلى جانبه، ولما شعر عمه يعقوب بن أفلح بذلك غادر المدينة بعد أن حكمها مدة أربع سنوات، ودخل أبو حاتم مكانه عام ٢٨٦، وأصدر عفواً عاماً عن الأهالي،

وأصبح زعماء العامة يتدخلون في شؤون الدولة، وكذلك فإن يعقوب بن أفلح قد عمل في دعم الطيب بن خلف بن السمح في زواغة في منطقة طرابلس، وحدث احتكاك بين زواغة ونفوسة فهما متجاورتان وأصبحتا لزيدان رغبتين متنافستين كل واحدة منهما تدعم واحداً منهما. حتى قبض على الطيب وسجن بجبل نفوسة من قبل الياس بن منصور عامل أبي حاتم على الجبل، وأخيراً قتل أبو حاتم عام ٢٩٤ على يد أبناء أخيه، وآلت الإمامة إلى يقظان بن أبي اليقظان، وعده الاباضية مغتصباً، واتسم عهده بالفتن والفوضى التي كانت تثيرها الفرق غير الأباضية أو أبناء أخيه أبي حاتم للأخذ بثأر أبيهم حتى إن دوسر بنت أبي حاتم وأباها قد توجها إلى أبي عبدالله الشيعي ودعواه إلى تاهرت ودخولها انتقاماً من قتلة أبيها، كما أن الشيعة، والصفرية تضايقوا من أمرهم ووجدوا في أبي عبدالله منقذاً لهم

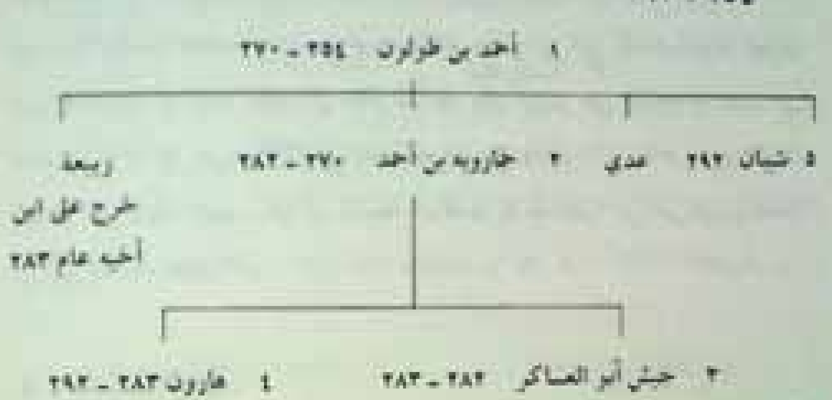
٥ - دولة الأغالبة:

كان ابراهيم الثاني أمير الأغالبة (٢٦١ - ٢٨٩)، وكان عادلاً، وعندما توفي خلفه ابنه عبد الله الثاني، ولم يدم حكمه أكثر من سنة.

٦ - الدولة الطولونية:

حكم خمارويه بن أحمد بن طولون ٢٧٠ - ٢٨٢، وكان صلته بالمعتضد جيدة، إذ تزوج الخليفة قطر الندى بنت خمارويه، وكانت الثغور الشامية تحت إشراف الطولونيين، ويقوم الغزو إلى بلاد الروم منها، وبإمرة أمراء من قبل الدولة الطولونية. وقتل خمارويه عام ٢٨٢ بيد أحد خدامه وهو نائم، وكان يومذاك بدمشق، وسار ابنه جيش أبو العساكر بجنده إلى مصر، وتولى الأمر إلا أن الناس قد أخذوا عليه أموراً أثارتهم عليه، كما تنكر له كبار الأمراء العسكريين وخلع طاعته (طغج بن جف)، ووثب عليه الجند وخلعوه،

٢٥٤ - ٢٩٢



العباسيون

وسجنوه فمات بالسجن بعد أيام ٢٨٣، كما تبرأ العلماء من بيعته، وبايعوا أخاه هارون بن خارويه أبا موسى، وكان صغيراً لم تزل سنه دون الخامسة عشرة، غير أن بعض الجند استقدموا عمه ربيعة بن أحمد بن طولون من الاسكندرية ووعدوه بالنصر فسار ربيعة بجيش إلى الفسطاط فلما اقترب منها خرج إليه جند هارون بن خارويه وغلبوه، وأسروه، وضربوه حتى مات تحت العذاب وذلك عام ٢٨٤.

أرسل هارون جيشاً إلى الشام لقتال القرامطة لكن حلّت به الهزيمة وذلك عام ٢٩٠، وعندها فكرت الدولة العباسية باتجاه الدولة الطولونية واستعادة السيطرة عليها وأرسلت جيشاً بإمرة محمد بن سليمان فوصل إلى فلسطين ودخلها واتجه نحو مصر، وفي الوقت نفسه سار أسطول عباسي، وخرج الأسطول المصري لملاقاة الأسطول العباسي والتقيا في تنيس وهزم الجيش المصري والأسطول على يد محمد بن سليمان ومولاه أحمد بن قضلان بن العباس، وفرّ هارون بن خارويه إلى العباسة وهو منشغل باللهو فقتله عمّاه شيبان وعدي ولدا أحمد بن طولون، ولم يناهز الثانية والعشرين من عمره. ورجع شيبان ليتولى أمر الفسطاط إلا أن العسكريين قد غضبوا عليه لما فعل وكتبوا إلى محمد ابن سليمان يستقدمونه إلى الفسطاط، فسار إلى العباسة وهناك استقبله طغج بن جف بجموع القادة. وانتهت الدولة الطولونية.

٧ - دولة بني زياد في زبيد:

كان ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد أمير الدولة إلى نهاية أيام المعتضد بالله عام ٢٨٩ حيث مات، وخلفه ابنه اسحاق بن ابراهيم، وفي أيامه هاجم علي بن الفضل القرمطي مدينة زبيد وانتهبها.

٨ - دولة بني يعفر في صنعاء:

كان يعفر بن عبدالرحيم يحكم صنعاء ٢٦٠ - ٢٨٢، وخلفه أسعد بن أبي يعفر حيث دام أمره حتى عام ٣٣١، وقد هاجم صنعاء علي بن الفضل القرمطي، وأخرجه منها عدة مرات منها عام ٢٩٣، و٢٩٨ هـ. كما كان في حرب مع الهادي الزيدي الذي أنشأ له إمارة في صعدة عام ٢٨٤.

٩ - الدولة الزيدية في صعدة:

كان يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب يقيم بالمدينة المنورة فجاءه وفد من اليمن يدعوه إلى بلادهم ليقوم بأمرهم فسافر إليهم عام ٢٨٠ غير أنه لم يجد ما كان يتوقعه لذا رجع إلى المدينة المنورة، فجاءه ثانية وفد آخر ووعدوه بالنصر، واعتذروا إليه عما كان منهم من تقصير فوافق ورجع إلى اليمن عام ٢٨٤ فأقام في صعدة، والتف حوله أهلها، فأراد التوسع فاصطدم بمقاومة حكام اليمن وكان أشدهم عداء له بنو يعفر في صنعاء التي أراد غزوها عام ٢٨٥، غير أنه عجز عن دخولها، ولكنه دخلها عام ٢٨٨ بمساعدة أبي العتاهية الطريفي(١) الذي قتل في معركة حدين قرب صنعاء وهو يقاتل مع الزيود عام ٢٨٨.

١٠ - الدولة الصفارية:

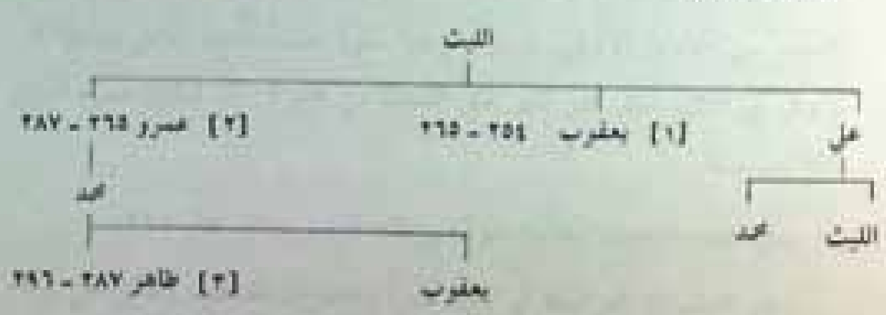
عندما تولى المعتضد بالله أمر الخلافة العباسية عزل رافع بن هرثمة عن خراسان وكان محمد بن طاهر قد أنابه عليها، وأعادها إلى عمرو بن الليث، غير أن رافع قد رفض ذلك وشق عصا الطاعة وحارب عمرو بن الليث إلا أنه هزم ودخل عمرو بن الليث نيسابور عام ٢٨٠، وخرج عمرو منها فرجع إليها رافع وخطب لمحمد بن زيد الطالبي فرجع عمرو إلى المدينة وحاصرها وأخيراً قتل رافعاً عام ٢٨٣.

وطلب عمرو بن الليث ولاية ما وراء النهر وكانت بيد اسماعيل بن أحمد الساماني، ولم يجد الخليفة بُدّاً من موافقته غير أن اسماعيل بن أحمد الساماني حاول صدّه عن هذا الطلب، وأن يقنع بما تحت يده فلما لم يقبل جرت الحرب

(١) أبو العتاهية الطريفي: من آل طريف الذين ثاروا على بني يعفر ودخلوا صنعاء بإمرة أبي العتاهية عام ٢٦٥، غير أن أبا العتاهية هذا قد دخل في طاعة الإمام الزيدي، وقاتل آل يعفر، وآل الضحاك، وقومه آل طريف الذين قاوموا الزيود.

بين الطرفين ووقع عمرو بن الليث أسيراً بيد اسماعيل بن أحمد الساماني الذي سيره إلى الخليفة، ولم يلبث أن مات، فآل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث عام ٢٨٨، وكان صغيراً فاستبد بالسلطة (سبك السبكري) غلام عمرو بن الليث ودخلت جنوده فارس. ثم إن السبكري قد قبض على طاهر وأخيه يعقوب وبعث بهما إلى بغداد عام ٢٩٦. ولكن الليث بن علي بن الليث الصفاري قد طرد السبكري من فارس عام ٢٩٧، فاستنجد السبكري بالخليفة فأمده بجيش فحلت الهزيمة بالليث. واستبد السبكري بما تحت يده واستعصى على الدولة فأرسلت له الجيش إثر الجيش حتى استطاع أحمد بن اسماعيل الساماني من القبض على السبكري ومحمد بن علي بن الليث الصفاري وإرسالها إلى بغداد عام ٢٩٨ وزالت الإمارة الصفارية.

الإمارة الصفارية
٢٥٤ - ٢٩٨



الدولة السامانية

١١ - الدولة السامانية:

أصبح اسماعيل بن أحمد الساماني سيد السامانيين بعد وفاة أخيه نصر عام ٢٧٩، وكان خيراً يحب أهل العلم ويكرمهم، كما كان عاقلاً عادلاً حسن

السيرة في رعيته، حليماً. وطمع محمد بن زيد الطالبي صاحب طبرستان بخراسان وسار إليها فأرسل إليه اسماعيل جيشاً بإمرة محمد بن هارون وفي المعارك بين الطرفين أصيب محمد بن زيد، وأسر ابنه زيد، ودخل محمد بن هارون طبرستان وذلك عام ٢٨٧، غير أن محمد بن هارون لم يلبث أن خالف اسماعيل واستبد بما سيطر عليه فسار إليه اسماعيل وجرت معركة بالري هرب إثرها محمد بن هارون والتجأ إلى بلاد الديلم ودخل اسماعيل الري، وتوفي اسماعيل عام ٢٩٥.

١٢ ـ الدولة الطالبية في طبرستان:

كان محمد بن زيد الطالبي أمير هذه الدولة في هذه المرحلة وقد هزم أمام محمد بن هارون قائد اسماعيل بن أحمد الساماني فخرج من طبرستان عام ٢٨٧ ثم عاد إليها بعد مدة خليفته إذ توفي هو بعد إصابته بقتاله مع محمد بن هارون.

-١٧-
المكتفي بالله
علي بن أحمد المعتضد
٢٨٩ - ٢٩٥

هو علي بن أحمد المعتضد، ولد في غرة ربيع الثاني من عام ٢٦٤، وأمه أم ولد تركية اسمها (جيجك) ويضرب بحسنها المثل. كان ربعة جميلاً، رقيق اللون، حسن الشعر، وافر اللحية، يُكنّى أبا محمد.

بويع بالخلافة بعد موت أبيه المعتضد لثمان بقين من ربيع الثاني من عام ٢٨٩، وكان يومها بالرقة، فأخذت البيعة له، فجاء إلى بغداد فدخلها في السابع من جمادى الأولى، وسار بالرعية سيرة حسنة فأحبه الناس ودعوا له. وتوفي في الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام ٢٩٥، فكان عمره اثنتين وثلاثين سنة.

وفي عهده فتحت انطاليا عنوة من بلاد الروم وذلك عام ٢٩١.

وقد انتشرت القرامطة في أيامه كثيراً وانصرف لقتالهم، وتمكن من أولاد زكرويه، ومن زكرويه نفسه ـ كما مرّ معنا ـ، وكذلك فقد تخلّص من الطولونيين بعد أن ضعف أمرهم، أما الدعوة الشيعية ثم العبيدية في بلاد المغرب فقد انتشرت على نطاق واسع.

ذكرنا أن رستم بن الحسين بن حوشب النجار قد أرسل من اليمن إلى المغرب داعيين هما: «الحلواني»، و«أبو سفيان»، وقد نشطا بالدعوة هناك، وبذرا بذرة التشيع. ولم يلبثا أن ماتا، فلما أتى خبر وفاتهما إلى ابن حوشب قال

لأحد أصدقائه وهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا من أهل صنعاء، وقد صحبه بعدن وكان من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك[1].

خرج أبو عبد الله إلى مكة واجتمع إلى حجاج كتامة بعد أن سأل عنهم، ثم صحبهم فوصلوا إلى أرض كتامة في منتصف شهر ربيع الأول من عام ٢٨٠ فاجتمع عليه البربر حتى عظم أمره، وبلغ خبره إلى ابراهيم الثاني بن أحمد بن الأغلب فأرسل إلى عامله على مدينة (ميلة) يسأله عن أمره فصغّره له، فسكت عنه. وتفرقت كلمة البربر بسببه ووقعت بينهم حروب ثم اصطلحوا، واشتد خطره فأرسل اليه ابراهيم الثاني الأغلبي ابنه الأحوال في اثني عشر ألفاً فهزم أبا عبد الله، فركن أبو عبد الله إلى الهدوء وبنى لنفسه داراً للهجرة وأتاه البربر، ثم توفي ابراهيم الثاني أمير بني الأغلب عام ٢٨٩ ثم ولده عبد الله عام ٢٩٠، وتولى أمر الأغالبة زيادة الله الثالث وكان منصرفاً إلى اللهو، وهذا ما دعا إلى زيادة قوة أبي عبد الله، وكان قد قاتل الأحول أيام أخيه عبد الله وانتصر عليه إلا أن الأحول قد بقي قريباً منه ينازله، فلما تولى أبو مضر زيادة الله استدعى الأحول وقتله، فدعا عندئذٍ أبو عبد الله للمهدي، وانتشرت فكرة المهدي حتى غدا عدد من وزراء الأغالبة من الشيعة ويرغبون في نجاح أبي عبد الله.

وأما المهديّ، فإنه لما توفي عبد الله بن ميمون القداح ادّعى ولده أنهم من ولد عقيل بن أبي طالب وهم مع هذا يستترون ويُسِرّون أمرهم، ويُخفون أشخاصهم، وكان ولده أحمد هو المشار إليه منهم قد توفي، وخلفه ولده محمد، وكان هو الذي يكاتبه الدعاة في البلاد، وتوفي محمد وخلفه الحسين، فسار الحسين إلى سلمية من أرض حمص وله بها ودائع وأموال من ودائع جده

(١) الكامل في التاريخ.

عبد الله القداح ووكلاء وغلمان، وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلعلع، وكان الحسين يدّعي أنه الوصيّ وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجل يهودي حدادٍ مات عنها زوجها ـ وهي في غاية الحسن ـ فتزوجها، ولها ولد من الحداد يُماثلها في الجمال فأحبّها وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها وأدّبه وعلّمه فتعلّم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة، فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية ـ وهو الحسين ـ مات ولم يكن له ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد ـ وهو عبيد الله ـ وعرّفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ وأين الدعاة وأعطاه الأموال والعلامات وتقدم إلى أصحابه بطاعته وخدمته وأنه الإمام الوصي، وزوّجه ابنة عمه أبي الشلعلع وهذا قول أبي القاسم الأبيض العلوي وغيره، وجعل لنفسه نسباً وهو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبعض الناس يقولون ـ وهم قليل ـ إن عبيد الله هذا من ولد القداح، وهذه الأقوال فيها ما فيها، فيا ليت شعري ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممن قام في إظهار هذه الدعوة حتى يُخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ويُسلموه إلى ولدٍ يهودي؟ وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده ديناً يثاب عليه؟[1].

ولما انتشرت دعوة أبي عبد الله الشيعي في المغرب أرسل رجالاً من كتامة إلى الشام ليخبروا المهدي بما فتح الله عليه، إلا أن سلمية كانت مهددة من قبل القرامطة، وكان عبيد الله في الرملة قد فرّ من وجه الخليفة واستطاع أن يلتقي برجال كتامة وأن يوهمهم أنه الإمام فأسرّوا له بما عندهم، فشدّ العزم واتجه نحو مصر ومعه ابنه نزار أبو القاسم، واتخذ عبيد الله صفة التاجر، وشاع الخبر

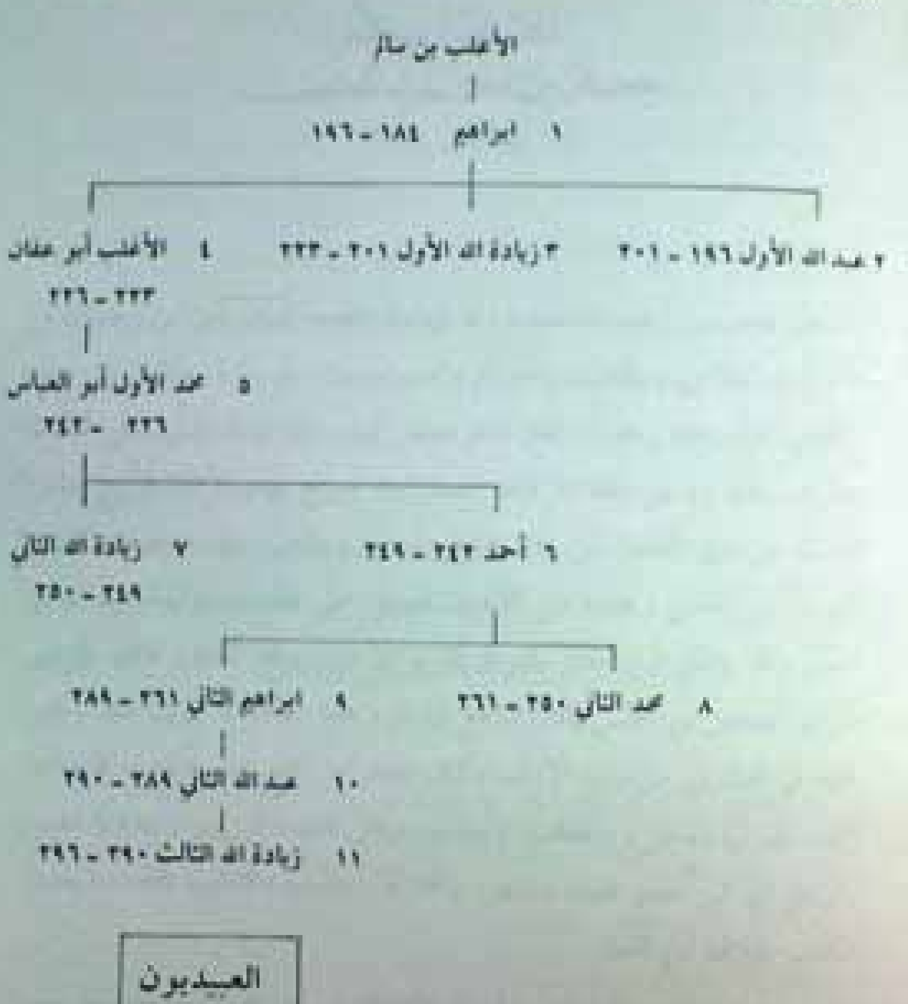
(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ الجزء السادس ص ١٢٨.

أيام المكتفي فأرسل إلى عامله بمصر يأمره بطلب عبيد الله، وقد قبض عليه ولكن أوهمه أنه غير ما يطلب وأظهر التدين أمامه فرق له وأطلقه، فسار إلى طرابلس، وأرسل بعض من معه إلى القيروان، فوجدوا الخبر قد سبقهم، وقبض عليهم فأنكروا. وسار عبيد الله إلى قسطيلة ومنها إلى سجلماسة، وكان ما يسير من مكان إلا ويطلبه العامل بعد أن يكون قد خرج. وأهدى عبيد الله إلى صاحب سجلماسة وهو المنتصر اليسع بن ميمون بن مدرار، فقربه المنتصر وأحبه حتى أتاه كتاب زيادة الله الأغلبي يعرفه أن ضيفه إنما هو الذي يدعو له أبو عبد الله الشيعي عندئذ قبض عليه وحبسه، وبقي في سجنه حتى أخرجه أبو عبد الله.

واشتد ساعد أبي عبد الله، فأرسل له زيادة الله الجيش إثر الجيش فكانت تهزم أمامه فدخل قسطيلة وتبسة، والقصر، وسار نحو رقادة فهرب منها زيادة الله إلى مصر، وهرب منها أهلها هائمين على وجوههم إلى القصر القديم، وإلى القيروان، وإلى سوسة، ودخل أهل القيروان مدينة رقادة ونهبوا ما فيها، ونهبت قصور بني الأغلب، وجاء ابراهيم بن أبي الأغلب ابن عم زيادة الله وقائد جيشه فدخل القيروان، وتكلم عن زيادة الله وإفساده ووعدهم بالدفاع عنهم، وطلب منهم الطاعة والمساعدة فرفضوا، فخرج عنهم. وجاء أبو عبد الله ودخل رقادة ووجد الناس ينهبون فلم يتعرض لهم، ونقل الخبر إلى القيروان فخرج أهلها وخرج وجهاؤها إلى لقاء أبي عبد الله وسلموا عليه وهنؤوه بالفتح، وتكلموا عن زيادة الله، فأعطاهم أبو عبد الله الأمان وذلك في مطلع رجب من عام ٢٩٦، ثم ولى على إفريقية أخاه أبا العباس محمداً، وسار هو نحو سجلماسة بجيش كبير.

إمارة الأغالبة

١٩٦ - ٢٩٦ هـ



العبيديون

-١٨-

المقتدر بالله

جعفر بن أحمد المعتضد

٢٩٥ _ ٣٢٠

هو جعفر بن أحمد المعتضد، ولد في ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان من عام اثنين وثمانين ومائتين، وأمه أم ولد، اسمها «غريب»، ولما مرض أخوه المكتفي سأل عنه وعلم أنه بلغ الحلم فعهد إليه، ولا يزيد عمره على الثلاث عشرة سنة، ولم يلِ الخلافة قبله أصغر منه وبويع يوم الأحد لأربع عشرة مضت من ذي القعدة من عام خمسة وتسعين ومائتين. وقد استصغره الوزير العباس بن الحسن وجماعة من الأعيان فعملوا على خلعه، وتولية عبد الله بن المعتز وقد وافق ابن المعتز بشرط ألا يراق دم، وبلغ المقتدر ذلك فأرضى الوزير العباس بن الحسن بالمال فرجع عما عزم عليه، وأما الآخرون فقد ركبوا عليه في العشرين من ربيع الأول، وكان جعفر بن أحمد صغيراً يلعب لما جاءوا إليه، فهرب ودخل، وأغلقت الأبواب، وقُتل دونه الوزير وجماعة معه، وأُرسل إلى ابن المعتز فجاء، وبايعوه بالخلافة، ولقّبوه «الغالب بالله»، ونفذت الكتب بخلافة ابن المعتز.

أرسل ابن المعتز إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار محمد بن طاهر كي يسير ابن المعتز إلى دار الخلافة فوافق المقتدر، فهو صغير ولم يكن لديه قوة، إذ لم يبق عنده سوى مجموعة صغيرة فشجّعوا أنفسهم وهجموا على جماعة ابن المعتز فخافوا وفرّوا من أمامهم فلحقوا بهم وساروا إلى مكان ابن المعتز فهرب ومعه وزيره وقاضيه، وحدثت فوضى في بغداد، وقبض جماعة المقتدر على الذين

بايعوا ابن المعتز وقتلوا أكثرهم، وسُجن ابن المعتز، وأُخرج بعد مدة ميتاً، واستقام الأمر للمقتدر، فاستوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات، فسار أحسن سير، وكشف المظالم، وحضّ المقتدر على العدل.

أمر المقتدر ألا يُستخدم اليهود ولا النصارى، ثم ولي الوزارة عام ٣٠١ علي ابن عيسى فسار بعفة وعدلٍ وتقوى، وأبطل الخمور، وأبطل من المكوس ما ارتفاعه في العام خمسمائة ألف دينار.

وخرج مؤنس الخادم الملقّب بالمظفّر على المقتدر لأنه بلغه أنه يريد أن يولي إمرة الأمراء هارون بن غريب مكانه، وأخرج المقتدر من دار الخلافة، وحُبس في دار مؤنس، وأحضر أخوه محمد بن المعتضد وبايعوه ولقّبوه القاهر بالله، ولكن لم يبق سوى يومين إذ طالبه العسكر بالأرزاق فلم يدفع لهم، فهاجوا وتصايحوا وذهبوا إلى دار مؤنس وأخرجوا المقتدر وأعادوه إلى الخلافة، أما القاهر بالله فقد بدأ يبكي فأقبل إليه المقتدر وقبّله وقال له: يا أخي أنت لا ذنب لك.

وفي عام ٣٢٠ ركب مؤنس الخادم على المقتدر وجرت بينهما معركة قتل فيها المقتدر وذلك لليلتين بقيتا من شوال.

كان المقتدر ربعة من الرجال حسن الوجه والعينين، بعيد ما بين المنكبين، حسن الشعر، مدور الوجه، مشرباً بحمرة، حسن الخلق، قد شاب رأسه وعارضاه، وقد كان معطاءً جواداً، وله عقل جيد، وفهم وافر، وذهن صحيح، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحرمين وأرباب الوظائف، وكان كثير التنفّل بالصلاة والصوم والعبادة، ولكنه كان مؤثراً لشهواته ومبذراً، كثير العزل والولاية والتلوّن، وقد غلب النساء عليه. وكانت مدة خلافته خمس وعشرين سنة إلا قليلاً، وقد عاش ثمان وثلاثين سنة.

الروم:

تمت مفاداة بين المسلمين والروم عام ٢٩٥، وكان عدد أسرى المسلمين ثلاثة آلاف أسير. وعاد الغزو فقاد الصائفة عام ٢٩٧ القاسم بن سيما، وبعدها فادى مؤنس الخادم الأسارى الذين وقعوا بأيدي الروم. ثم غزا حسين بن حمدان الصائفة عام ٣٠١، وأسر مؤنس الخادم مائة وخمسين بطريقاً مع أعداد كثيرة من الروم، وطلبت الروم عقد هدنة بين الطرفين وأرسلت الهدايا، وتمت المفاداة وذلك عام ٣٠٥.

ودخل الدمستق ملك الروم ملاطية وعاث فساداً في سواحل بلاد المسلمين عام ٣١٤، وفي العام التالي دخل الروم سميساط على الفرات كما هاجموا ثغر دمياط في بلاد مصر ودخلوه فوثب المسلمون على الروم فأجلوهم عن المناطق التي دخلوها، كما انتصر المسلمون على الروم عام ٣١٩ في جهات طرسوس، وأسروا ثلاثة آلاف رومي، وفي الوقت نفسه تقدّم الروم نحو سميساط فوقع الذعر بين أهلها واستنجدوا بأمير الموصل سعيد بن حمدان فأنجدهم ففرّ الروم، ومرّوا على ملاطية فنهبوها فلاحقهم سعيد بن حمدان، ودخل بلادهم، وقتل كثيراً منهم.

وفتحت فرغانة عام ٣١٢ على يد والي خراسان.

القرامطة:

انتهى قرامطة الشام بعد مقتل يحيى بن زكرويه عام ٢٩٠ ثم مقتل أخيه الحسين عام ٢٩١، وتشتتوا في البلاد وتفرقوا، كما قُضي على قرامطة العراق بعد خروج زكرويه بن مهرويه ومقتله عام ٣٠١، وكذلك فقد دالت دولة قرامطة اليمن بعد موت علي بن الفضل مسموماً عام ٣٠٣. ولكن زادت شوكة قرامطة البحرين في هذه الآونة وهم أخبث القرامطة وأكثرهم فساداً، فبعد أن قتل أبو سعيد الجنابي عام ٣٠١ على يد خادمه في الحمام قام مقامه ابنه سعيد

إلا أن أخاه سليمان أبو طاهر قد تغلب عليه وقاد القرامطة، وقد عاث في المنطقة فساداً وأرهب الناس، وارتكب المنكرات، وهتك المحارم، وما ترك رذيلة إلا وفعلها، واستطاع أن يدخل البصرة عام ٣١١، والكوفة عام ٣١٢ وفعل بالأهالي الأفاعيل، وسار في وادي الفرات حتى شمال دير الزور حالياً، كما اتجه إلى الشمال الشرقي فاقترب من الموصل، وفي كل أرض كانت تطأها أقدام قرامطته ينتشر الرعب ويعم الفساد، وتُنتهك الأعراض بأبشع العادات، ومن منطقة الموصل انتقل نحو مكة فضجت الأعراب والبوادي من أفعاله حتى انقطع الحج، وقد انتصر على جيش المقتدر وذلك كله عام ٣١٦، وفي العام التالي دخل مكة المكرمة في أثناء الموسم وقتل الحجاج ورمى جثثهم ببئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى هجر حيث بقي حتى عام ٣٣٩. ثم سار إلى الكوفة فانقطعت قلوب أهل بغداد عام ٣١٩ هلعاً إذ أشيع أنه سائر إليهم.

الإمارات

حدث في هذه الآونة تغير كبير في الإمارات فقد زال بعضها كدولة الأغالبة، ودولتي الخوارج، ودولة الأدارسة، ووجدت دول جديدة كدولة العبيديين (الفاطميون)، والدولة الحمدانية، وأعلنت الدولة الأموية الخلافة، وكذا أعلن العبيديون ذلك فأصبح ثلاثة خلفاء في ديار الإسلام.

١ ـ دولة الأمويين في الأندلس:

تولى عبد الله بن محمد الأول عام ٣٠٠ وخلفه حفيده عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله، وتمكن عبد الرحمن أن يقضي على عمر بن حفصون المرتد، وأن يخضع الأندلس كلها لحكمه بعد مضي عشرين سنة من حكمه، وفي هذا الوقت بلغه مقتل الخليفة العباسي المقتدر على يد مؤنس الخادم، واستبداد القادة العسكريين الترك بالخلفاء، فأعلن نفسه خليفة عند ذلك. وقد قاتل عبد الرحمن الذي حمل لقب الناصر الإمارات النصرانية في الشمال وانتصر عليها في كثير من المعارك، كما تعرض للخطر العبيدي من الجنوب من بلاد المغرب، وقد ازدهرت الخلافة الأموية في الأندلس في عهده ازدهاراً كبيراً، وبقي في الحكم حتى توفي عام ٣٥٠ أي أن حكمه قد دام خمسين سنة.

٢ ـ الأدارسة:

بعد أن اغتيل يحيى الثالث بن القاسم بن ادريس عام ٢٩٢ تولى أمر الأدارسة يحيى الرابع بن ادريس بن عمر بن ادريس وبايعه أهل فاس، وامتد سلطانه على بلاد المغرب الأقصى كلها، وكان عظيم القدر، عادلاً في رعيته، كثير الفضل، بطلاً شجاعاً، ذا بيانٍ وفصاحة، حافظاً للحديث، فقيهاً، صاحب دينٍ وورع.

غزا دولة الأدارسة عام ٣٠٠ قائد العبيديين مصالة بن حبوس، والتقى به

الأمير يحيى قرب مكناس فهزم الأدارسة، وحاصر العبيديون فاس، واضطر يحيى إلى الصلح على أن يدفع مبلغاً من المال، وأن يبايع لعبيد الله المهدي فتم ذلك عام ٣٠٣، وأصبح مصالة بن حبوس أمير فاس، وابن عمه موسى بن أبي العافية أمير بلاد المغرب الأقصى، ولما عاد مصالة بن حبوس عام ٣٠٩ إلى فاس أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى بن ادريس فقبض عليه، ونفاه إلى بلاد الريف، ثم سجنه موسى بن أبي العافية ثم أطلق سراحه بعد عشرين سنة فقصد بلدة المهدية عاصمة العبيديين فمات بها عام ٣٣٢.

وعندما اعتقل يحيى بن ادريس ولّي مصالة بن حبوس على فاس ريحان الكتامي ولكن لم يلبث أن ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم على ٣١٠ واستولى على فاس، وقتل ريحان، وأخذ البيعة من الناس، وبدأ في قتال موسى بن أبي العافية غير أن الحسن قد مات عام ٣١٢، واستولى موسى على دولة الأدارسة الذين لجأ أكثرهم إلى بلاد الريف، وكانوا زعماء فيها، وتعد هذه الدولة قد انتهت.

خلع موسى بن أبي العافية طاعة الفاطميين، ودعا للأمويين في الأندلس، فأرسل عبيد الله المهدي جيشاً إليه ففر موسى من وجهه وترك مدينة فاس، إلا أن أمير الفاطميين على فاس قد قُتل، وعاد موسى بن أبي العافية إلى نفوذه ويدعو إلى أمويي الأندلس وذلك بعد وفاة عبيد الله المهدي عام ٣٢٢.

رغم القضاء على دولة الأدارسة فقد قام القاسم بن الحسن المتوفى ٣٣٧ يدعو إلى العبيديين، وبرز، وخلفه ابنه أحمد الملقب بأبي العيش يعمل للعبيديين، ثم لم يلبث إلى أن انتقل إلى الأمويين في الأندلس يدعو لهم، وسيطر على المغرب الأقصى، وتوفي عام ٣٤٨، ثم قام أخوه محمد أبو القاسم وسيطر على بلاده العبيديون في النهاية عام ٣٧٥.

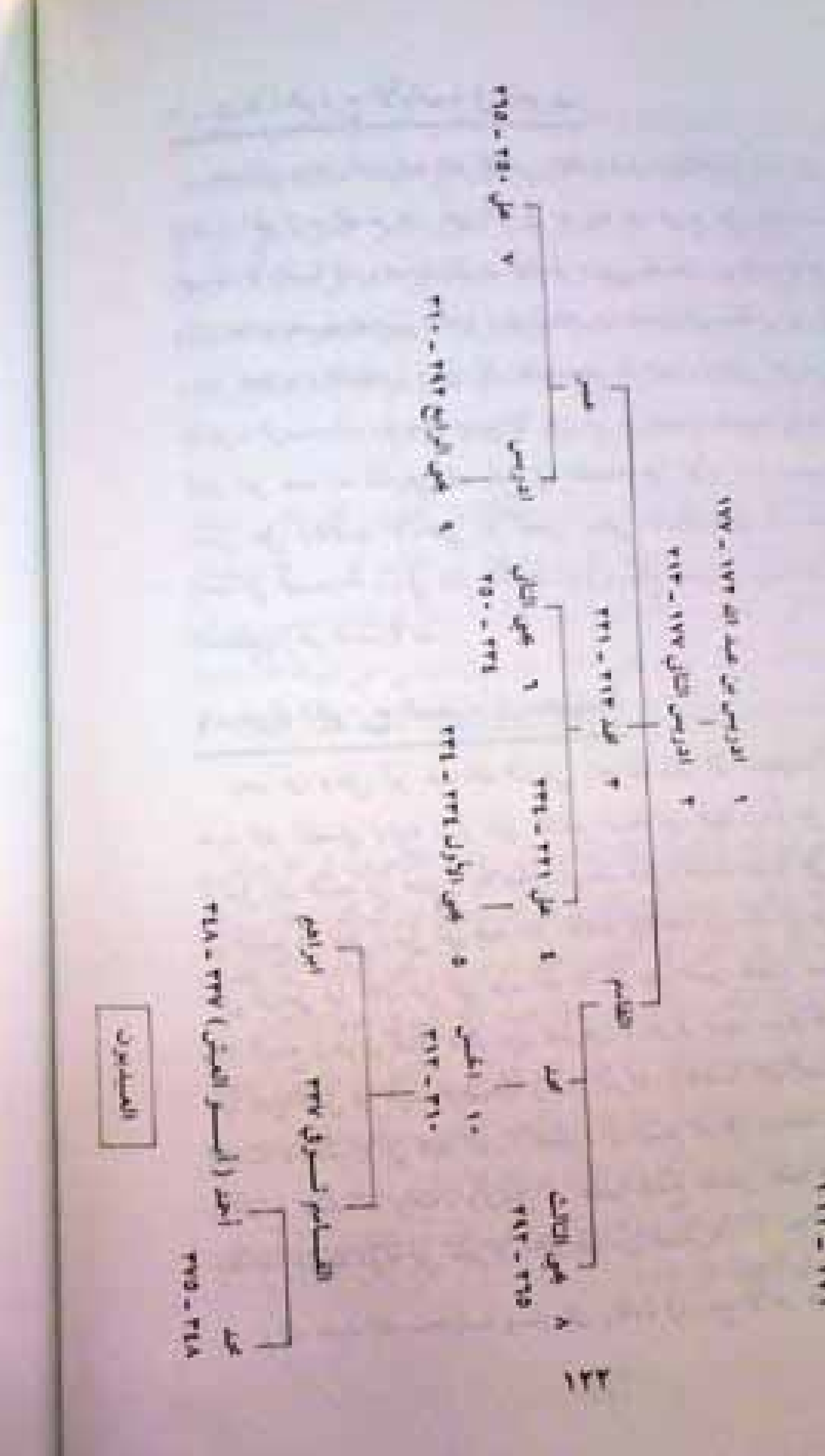
٣ ـ دولة الخوارج الأباضية في تاهرت:

بعد أن دخل أبو عبد الله الشيعي رقادة قاعدة الأغالبة اتجه إلى سجلماسة قاعدة الخوارج الصفرية، غير أنه في طريقه قد عرج على تاهرت، وكانت الدولة الأباضية قد وصلت إلى مرحلة في منتهى الضعف، والتنازع على السلطة، وقد جاءه بعضهم وهوّنوا عليه دخول تاهرت فبعث إلى يقظان ابن أبي اليقظان وبنيه فجاءوه فقتلهم، وسار إلى عاصمتهم فدخلها، وقتل كل من فيها من الأسرة الرستمية، ولم ينج منهم إلا من فرّ ثم استباح المدينة وأحرقها، وإذا كان أبو عبد الله الشيعي قد نجح في القضاء على الأسرة الرستمية إلا أنه لم يقض على المذهب الأباضي إذ تحصّن بعض الأباضية في (ورقلة) بصفتها واحة في الصحراء، وفي جبل نفوسة، ولم يستطع العبيديون دخول هاتين المنطقتين رغم المحاولات.

٤ ـ دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

بعد أن دخل أبو عبد الله الشيعي تاهرت سار إلى سجلماسة، وكان فيها عبيد الله المهدي وابنه نزار أبو القاسم مسجونين فيها، وأرسل أبو عبد الله الرسل إلى اليسع بن مدرار يلاطفه، ويبعد فكرة القتال خوفاً على عبيد الله إلا أن اليسع قد قتل رسل أبي عبد الله، فأعاد الملاطفة وإرسال الرسل فأعاد اليسع قتل الرسل فما كان من أبي عبد الله إلا أن جدّ السير لحصار سجلماسة فخرج إليه اليسع وجرى قتال ضار بين الطرفين لم يفرّق بينهما سوى هجوم الظلام، فلما جنّ الليل فرّ اليسع وصحبه وأبناء أسرته، وعندما كان الصباح خرج أهل المدينة لاستقبال أبي عبد الله، وأعلموه أن اليسع قد فرّ بجماعته، فدخل المدينة وأخرج عبيد الله وابنه، وأرسل في طلب اليسع فقبض عليه فسجن ثم قتل، وهكذا دالت دولة بني مدرار الخارجية من الصفرية.

ترك عبيد الله سجلماسة وسار إلى رقادة في ربيع الآخر عام ٢٩٧ بعد أن



بويع بالخلافة، وهكذا أصبحت بعد عام ٣١٦ ثلاثة خلفاء في العالم الاسلامي، الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الأموي في قرطبة، والخليفة العبيدي في رقادة.

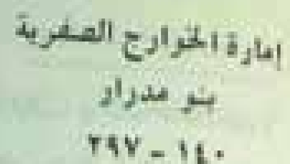
وهنا نقطة لا بدّ من أن أعرض لها باختصار وهي أن أبا عبد الله الشيعي عندما دخل سجلماسة والتقى لأول مرة بعبيد الله على أنه الإمام لم ير الرجل الذي سبق له أن التقى به بسلمية في بلاد الشام وإنما رجل آخر فمنهم من يرى أنه التقى بسلمية بأحد أبناء البيت الاسماعيلي الذين يعمل لهم، وهذا أحد أبناء البيت القداحي أو ربيب البيت القداحي، وهو ابن الحداد اليهودي. ومنهم من يقول، إن اليسع بن مدرار قد قتل عبيد الله قبل أن يفرّ وكان في سجنه فعندما دخل أبو عبد الله الشيعي سجلماسة وجد رجلاً يهودياً مكان عبيد الله فاضطر أن يدعي أنه هو المهدي ريثما تستقر الأوضاع وقد خاف من قبيلة كتامة التي حملها على الدعوة والقتال من أجل المهدي ثم تكون الدعوة والقتال على الهواء. وعلى كل فسواء أكان الرجل يهودياً، أم ربيب القداحيين اليهودي، أم سليل الأسرة القداحية ذات الأصل اليهودي فالأمر واحد وهو أن أبا عبد الله الشيعي لم يعرفه، وأنكره، وإنما اضطر إعطاءه اسم المهدي ريثما يجد له مخرجاً.

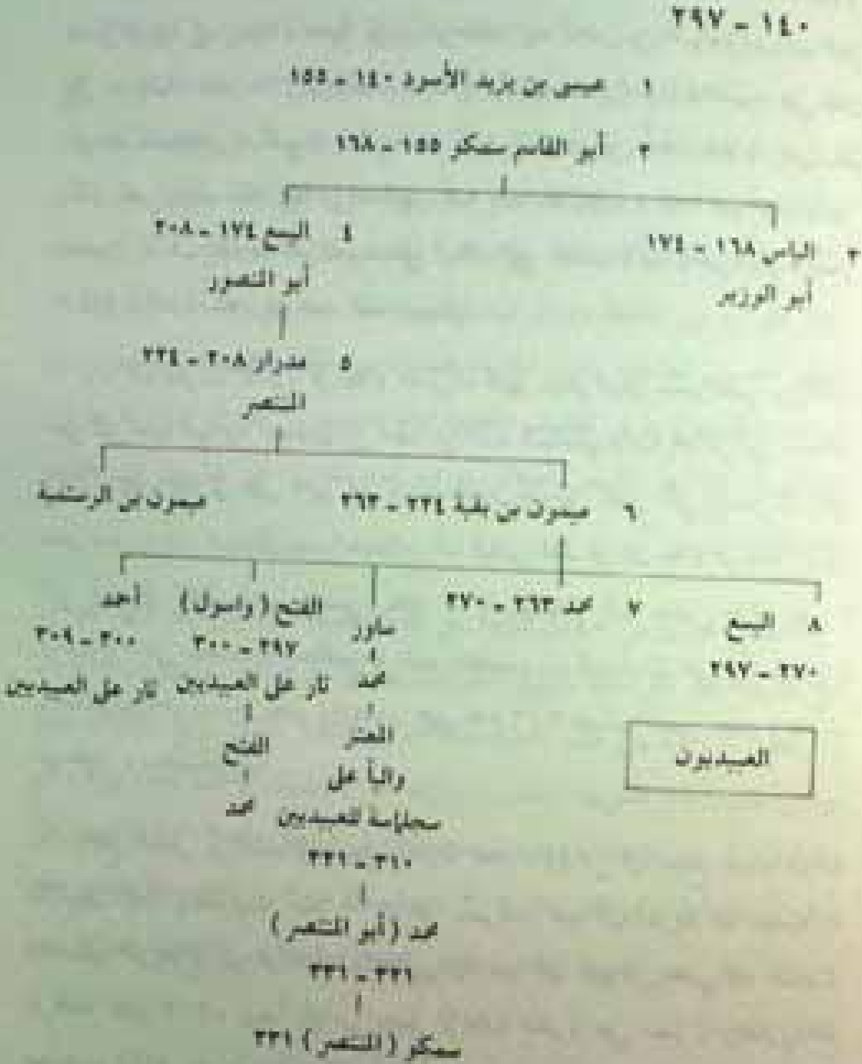
وما أن وصل عبيد الله إلى رقادة واستقر بها حتى وقع الخلاف بينه وبين أبي عبد الله الشيعي وحتى قام الخوارج الصفرية في سجلماسة بثورات ضد العبيديين وساعدهم على ذلك بُعد سجلماسة ونأيها على أطراف الصحراء، والخلاف العقيدي بين العبيديين والصفرية، ومحاولة العبيديين فرض فكرتهم بالقوة، والمنكرات التي ارتكبوها، والمحرمات التي فعلوها، وتهجمهم الصريح على صحابة رسول الله ﷺ، وعلى أمهات المؤمنين، وهذا ما يتفق مع فكرتهم وأصولهم، كما ساعدهم على ذلك خلع موسى بن أبي العافية طاعتهم في فاس ونفوذ الأمويين في المغرب الأقصى إذ دعا لهم موسى بن أبي العافية أحياناً بقايا

الأدارسة، ثم الخلاف الذي نشب بين أبي عبد الله الشيعي وعبيد الله، وثورة كتامة بعد أن استبد عبيد الله بالأمر وتخلص من أبي عبد الله يضاف إلى هذا كره الناس للعبيديين لما اتخذوه من بطش وظلم وما فرضوه من ضرائب، وما فعلوه في سجلماسة.

ترك عبيد الله قائده ابراهيم بن غالب المزاتي عاملاً له على سجلماسة عندما غادرها إلى رقادة، ولم يلبث أن ثار الصفرية في العام نفسه وقتلوا ابراهيم بن غالب المزاتي وجنده الخمسمائة الذين بقوا معه، وولّى الصفرية عليهم الفتح بن ميمون الملقب بـ (واسول)، ولم يستطع عبيد الله إعادة نفوذه إلى سجلماسة لما عنده من شغل في قضية أبي عبد الله وثورة كتامة، وإنما كان الفتح يظهر شيئاً من التقية بعدم الثورة، وبقي الفتح صاحب النفوذ في سجلماسة حتى توفي عام ٣٠٠ فبايع الصفرية عندها أخاه أحمد بن ميمون فبقي كذلك حتى عام ٣٠٩ حيث أرسل عبيد الله القائد مصالة بن حبوس فدخل سجلماسة وقتل أحمد بن ميمون؛ وقد حاول مصالة بن حبوس استرضاء الصفرية فلم يُعيّن لهم والياً، وإنما ولّى المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار ثم بعد مدة جعله عاملاً لعبيد الله، واستمر في أمره حتى توفي عام ٣٢١.

سار المهدي العبيدي عام ٣٠١ يريد مصر ومعه أربعون ألف مقاتل، وحال النيل دون تقدمه شرقاً، والوصول الى الفسطاط، فرجع إلى الاسكندرية وقتل فيها من قتل حسب هواه وعاث الفساد، وتبعه جيش الخليفة المقتدر وجرت بين الطرفين معارك في منطقة برقة هزم فيها العبيديون واضطروا للعودة إلى المغرب. وسيطر العبيديون على الفيوم، كما عاد القائم خليفة عبيد الله المهدي، وسيطر على الصعيد عام ٣٠٦ غير أن الخليفة المقتدر أرسل له مؤنس الخادم في جيش هزم العبيديين وأجبرهم بالرجوع إلى المغرب.


إمارة الخوارج الصفرية
بنو مدرار
١٤٠ - ٢٩٧



٥ ـ الدولة السامانية:

تولى عام ٢٩٥ اسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني، وكان عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيته، حليماً كريماً، وخلفه ابنه أحمد بن اسماعيل، وقد قتل على يد غلمانه عام ٣٠١ وخلفه ابنه نصر وكان صغيراً لم يزد عمره على ثمان سنوات فاستصغرته أسرته فطلب عم أبيه إسحاق بن أحمد ولاية خراسان وكان قد استمال بلاد ما وراء النهر إليه عدا بخارى، وكذا عم أبيه الآخر المنصور إلا أن الخليفة أقرّ نصراً على البلاد التي كانت لأبيه رغم صغره فأدار له شؤون الدولة محمد بن عبد الله الجيهاني.

وما أن سارت الأمور في بلاد ما وراء النهر وخراسان باسم نصر بن أحمد حتى ثار عليه عم أبيه اسحاق بن أحمد بن أسد الساماني وابنه إلياس بن اسحاق وسارا نحو بخارى غير أنهما قد هزما أمام جيوش نصر التي استولت على سمرقند، وأسر اسحاق بعد اختفائه، أما الياس فقد فرّ إلى بلاد فرغانة. وثار ابن اسحاق الثاني وهو منصور عام ٣٠٢، وانضم إليه بعض قواد نصر، واستولوا على سجستان وحكموها باسم منصور، وكذلك على نيسابور، واستمرت الحرب بين نصر ومنصور حتى عام ٣٠٦ حيث انتصر نصر وعادت نيسابور وسجستان إليه.

وجمع إلياس بن اسحاق يستعد لمنازلة نصر، وتمكّن أن يجمع جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً، وتقدم به عام ٣١٠ نحو سمرقند غير أن الهزيمة قد حلّت به واضطر للرجوع إلى فرغانة، واختفى بها غير أن جيوش نصر قد فتحت فرغانة عام ٣١٢، وبدأ الياس يعمل لإعادة الكرة على نصر، وتعاون مع صاحب الشاش غير أنه هُزم ثانية، وأسر صاحب الشاش الذي مات في السجن.

٦ ـ الدولة الحمدانية:

يعود الحمدانيون في أصولهم إلى قبيلة بني تغلب التي كان بعض بطونها يعيش قريباً من الموصل، وأمير هذا البطن في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري هو حمدان بن حمدون، وقد بدأ يشترك في الحوادث السياسية التي تجري في منطقته منذ عام ٢٦٠، وتحالف مع الخوارج الذين يقودهم هارون الشاري عام ٢٧٢، ودخلا الموصل معاً، ثم استولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل، وشنّ الخليفة المعتضد حرباً عليه فاعتصم بقلعة ماردين، فسار إليه عام ٢٨١ فهرب من القلعة وترك ابنه الحسين فيها، ودخل جند الخليفة القلعة، وأظهر الحسين الطاعة، وتتبع الخليفة حمدان حتى ظفر به فسجنه في بغداد، ولم يخرجه م السجن سوى تكليف الخليفة ابنه الحسين بن حمدان بمحاربة هارون الشاري إذ اشترط الحسين إطلاق سراح أبيه مقابل حمل هارون إلى الخليفة وحدث ذلك.

أصبح الحسين بن حمدان قائداً من قادة الخليفة البارزين وقد شُهر بحروبه التي قادها ضد القرامطة، وبرز إخوته كذلك عبد الله، وسعيد، وداود، وابراهيم. أما الحسين فقد ناصر عبد الله بن المعتز الذي بويع بالخلافة لمدة يومين عام ٢٩٦ فكرهه المقتدر، وعزله عن مناصبه، ثم عفا عنه، وولاّه قم وقاشان، ثم عاد فاختلف معه وسجنه ومات في السجن عام ٣٠٦، ثم خلفه على ديار ربيعة أخوه ابراهيم عام ٣٠٧ وتوفي عام ٣٠٨، ثم أخوه داود حتى عام ٣٠٩، وبقي مع الخليفة المقتدر وقاتل بجانبه ضد مؤنس الخادم وأصابه سهم فقتل عام ٣٢٠.

أما سعيد والمكنى بأبي العلاء فقد تولّى أمر الموصل ونهاوند. وقد كان أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان قد ناصر القاهر ضد أخيه المقتدر، فلما فشلت الجهود، وعاد المقتدر، قُتل أبو الهيجاء وذلك عام ٣١٧، أما أبو السرايا نصر

ابن حمدان فقد هرب إلى الموصل، وتولى أمرها عام ٣١٨ ثم قتله القاهر عام ٣٢٢، وقد انتهى أمر أولاد حمدان كلهم قبل نهاية عام ٣٢٢، غير أن عبد الله أبا الهيجاء قد أناب عنه في الموصل ابنه الحسن ناصر الدولة فاستطاع أن يحتفظ بها منذ تولى أمرها عام ٣٠٨ حتى توفي عام ٣٥٨ باستثناء مدة قصيرة ٣١٧ ـ ٣١٩ بسط عماه سعيد ونصر نفوذهما عليها بأمر الخليفة المقتدر.

وكان هؤلاء الملوك رافضة[1].

---

(١) البداية والنهاية سنة ٣٥٨

ـ ١٩ ـ
القاهر بالله
محمد بن أحمد المعتضد
٣٢٠ ـ ٣٢٢

هو محمد بن أحمد المعتضد، ولد عام ٢٨٧، أمه أم ولد تدعى «قتنة». فبعد مقتل أخيه المقتدر جيء به وبابن أخيه عبد الله بن علي المكتفي، وكان عبد الله زاهداً بالخلافة فلم يجبهم إلى ما يريدون، وقال: عمي أحقّ بها مني، وكان عمره يومذاك سبعاً وثلاثين سنة. وبعد أن بويع القاهر بالخلافة عذب آل أخيه المقتدر. وكان بطاشاً سفاكاً للدماء، سيء السيرة، يكنّى أبا منصور.

شغب عليه الجند عام ٣٢١، واتفق مؤنس الخادم وآخرون على خلعه، منهم محمد بن مقلة أبو علي، وعلي بن بليق، ووصل الخبر إليه فاحتال عليهم، وذبحهم، وتمكن أبو علي محمد بن مقلة من الاختفاء. واستقام الأمر بعدئذ للقاهر. فأمر بمنع الخمر، وتحريم القيان، وبيع المغنيات من الجواري، وقبض على المغنين، وكسر آلات اللهو، ونفى المخانيث ومع هذا كله كان مُغرماً بسماع الغناء، وتعاطي الخمرة.

وفي عام ٣٢٢ دخل الديلم أصبهان بإمرة «مرداويج بن زياد الديلمي» الذي كان من قواده علي أبي الحسن بن بويه فالتقى مع قائد الخليفة محمد بن ياقوت وانتصر عليه، وخرجت خراسان وفارس من حكم الخلافة.

حرّض ابن مقلة من مخبئه على القاهر، فدخل عليه الجند فهرب، فلحقوا به، وقبضوا عليه في ٦ جمادى الآخرة، فامتنع عن خلع نفسه، فكحل بالقضب

حديد محمى ، ثم حبس حتى عام ٣٣٣ ثم أطلق سراحه ، وبقي حتى مات عام ٣٣٩ ، وأصابته الحاجة حتى سأل الناس في أواخر حياته . وكان عمره عندما توفي اثنين وخمسين سنة ، ومدة خلافته سنة وستة أشهر وأسبوع.

-٢٠-

الراضي بالله
محمد بن جعفر المقتدر
٣٢٢-٣٢٩

هو محمد بن جعفر المقتدر ، ولد عام ٢٩٧ ، وأمه أم ولد تدعى « ظلوم » يكنى أبا العباس ، بويع بالخلافة بعد خلع عمه القاهر وذلك عام ٣٢٢ فكان عمره خمسة وعشرين عاماً ، كان سمحاً ، كريماً ، أديباً ، شاعراً ، فصيحاً ، محباً للعلماء ، له شعر مدون ، وسمع الحديث من البغوي . ومن شعره :

كل صفو إلى كدر	كل أمر إلى حذر
ومصير الشباب لل	موت فيه أو الكبر
درّ درّ الشيب من	واعظ يُنذر البشر
أيها الآمل الذي	تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا ؟	ذهب الشخص والأثر
ربّ اغفر خطيئتي	أنت يا خير من غفر

مات مقدم الديلم « مرداويج » وغدا علي بن بويه سيد الموقف في فارس وخراسان ، وقاطع الخليفة على البلاد التي استولى عليها بمالة مليون درهم ، لكنه كان يماطل بالدفع .

وقلد الراضي ولديه أبا الفضل ، وأبا جعفر المشرق والمغرب .

وانقطع الحج من بغداد في أيامه بسبب القرامطة الذين يعيثون الفساد في

البلاد. واستمر انقطاعه حتى عام ٣٢٧ حيث تدخل في الأمر الشريف أبو علي محمد بن يحيى إذ كان القرامطة يحترمونه، ووافق القرامطة على أن يُدفع لهم عن كل جمل خمسة دنانير وعن المحمل سبعة دنانير.

استدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق من واسط ليوليه إمرة الأمراء فجاء ومعه الأمير «بجكم»، وأصبح كل شيء بأمر محمد بن رائق، وضعف أمر الخلافة جداً، واستقل الولاة كل بما تحت يده، ولم يبق للخليفة سوى بغداد وما حولها والأمر فيها أيضاً لمحمد بن رائق، والخليفة ألعوبة بيده أو صورة على الأقل.

وجاء الأمير «بجكم» مخالفاً لابن رائق الذي اختفى، فقرّب الخليفة «بجكم» وحلّ محل ابن رائق.

وطلب ملك الروم مفاداة بين المسلمين والروم وأرسل الهدايا إلى الخليفة، وتم ذلك في عام ٣٢٦، وكان عدد أسرى المسلمين الذين بيد الروم حوالي ستة آلاف مسلم.

ومات الخليفة الراضي عام ٣٢٩، وعمره اثنان وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته سبع سنوات تقريباً. وكان أسمر، أعين، خفيف العارضين، أسمر رقيق السمرة، ذري اللون، أسود الشعر، سبطه، قصير القامة، نحيف الجسم، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعره رقة، يحب مجالسة الأدباء والفضلاء، وقال في رثاء أبيه المقتدر:

ولو أن حياً كان قبراً لميت ... لصيّرت أحشائي لأعظمه قبرا
ولو أن عمري كان طوع مشيئتي ... وساعدني المقدور قاسمته العمرا
بنفسي ثرى ضاجعت في تربة البلى ... لقد ضمّ منك الغيث والليث والبدرا

-٢١-
المتقي لله
إبراهيم بن جعفر المقتدر
٣٢٩ - ٣٣٣

هو ابراهيم بن جعفر المقتدر، ولد عام ٢٩٥، فهو أكبر من أخيه الراضي، أمه أم ولد تدعى «خلوب» بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الراضي، وعمره أربع وثلاثون سنة، لم تغيّر الخلافة من أمره شيئاً، فلم يتسر بغير جارية كانت له من قبل، ولم يشرب مسكراً لا من قبل ولا من بعد، كان كثير التلاوة للقرآن، كما لم يكن له من أمر الخلافة شيء، إذ كان أمير الأمراء متسلطاً عليه بل كانت أمير الأمراء «بجكم».

قتل «بجكم» فولّى مكانه «كورتكين الديلمي» بإمرة الأمراء. وخالف محمد بن رائق الخليفة وقاتل «كورتكين» وهزمه، فاختفى «كورتكين» وأصبح ابن رائق أميراً للأمراء. وخرج أبو الحسين محمد بن علي البريدي من واسط لقتال ابن رائق، وهُزم ابن رائق ومعه الخليفة المتقي لله وهربا باتجاه الموصل فلما وصلا إلى مدينة «تكريت» وجدا سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان وأخاه ناصر الدولة الحسن. وقُتل محمد بن رائق غيلة فولّى الخليفة الحسن بن عبد الله بن حمدان إمرة الأمراء، ولقّبه ناصر الدولة، ولقّب أخاه علي سيف الدولة، ورجع الخليفة إلى بغداد ومعه ابنا حمدان فهرب البريدي منها، ورجع إلى واسط، ولاحقه سيف الدولة فهرب إلى البصرة.

هاج الأمراء بواسط على سيف الدولة فهرب إلى بغداد، وهرب أخوه الحسن ناصر الدولة إلى الموصل، وسار «توزون» من واسط إلى بغداد

فدخلها، وأصبح أمير الأمراء، وفرّ سيف الدولة إلى أخيه ناصر الدولة بالموصل. ثم اختلف الخليفة المتقي مع «توزون» فأرسل توزون جيشاً إلى بغداد بإمرة أبي جعفر بن شيرزاد فدخلها وتحكّم فيها، وكاتب المتقي أمير الموصل ناصر الدولة ابن حمدان فقدم بجيش كبير واختفى ابن شيرزاد، وسار الخليفة بأهله إلى تكريت والتقى ابن شيرزاد وابن حمدان في معركة هُزم فيها ابن حمدان والخليفة وهربا إلى الموصل، وسار ابن شيرزاد وراءهما وجرت معركة ثانية دارت الدائرة فيها أيضاً على الخليفة وابن حمدان ففرا إلى «نصيبين».

راسل الخليفة الإخشيد صاحب مصر وطلب منه أن يحضر إليه، ثم ظهر له أن ابني حمدان قد ضجرا منه، وأنه قد ملّهما، فرأى أن يراسل «توزون» يعرض عليه الصلح فوافق، ووصل الإخشيد إلى الخليفة وهو بالرقة فتكلم عن العسكريين الأتراك وغدرهم، وطلب منه أن يسير معه إلى مصر، فلم يوافق الخليفة فرجع الإخشيد إلى مصر وسار الخليفة إلى بغداد فاستقبله «توزون» وترجّل له ومشى بين يديه حتى وصلوا إلى المخيم المعدّ لهم، فكحّله بميل محمى، وأدخله إلى بغداد مسمول العينين، وأحضر عبد الله بن المكتفي وبايعه بالخلافة كما بايعه الخليفة المتقي المخلوع، ثم سُجن المتقي في جزيرة بالنهر وبقي في سجنه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي عام ٣٥٧ هـ.

وفي أيام المتقي هاجم الروم المسلمين ووصلوا إلى نصيبين فقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا.

-٢٢-

المستكفي بالله
عبدالله بن علي المكتفي
٣٣٣ - ٣٣٤

هو عبد الله بن علي المكتفي، ولد عام ٢٩٢، أمه أم ولد تدعى «أملح الناس» بويع بالخلافة بعد خلع ابن عمه المتقي، وكان عمره أربعين سنة أو يزيد قليلاً.

مات «توزون» أمير الأمراء، فأصبح كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد سيد الموقف، فطمع وبدأ يعمل لنفسه، وقد خشيه الخليفة فقرّبه وقدّمه.

دخل أحمد بن بويه بغداد فاختفى أبو جعفر بن شيرزاد، وقرّبه الخليفة ولقّبه «معز الدولة»، كما لقّب أخاه علياً «عماد الدولة»، وأخاه الآخر الحسن «ركن الدولة»، ولقّب المستكفي نفسه «إمام الحق»، ثم إن معز الدولة قوي أمره فحجز على الخليفة، وقدّر له نفقة يومية قدرها خمسة آلاف درهم. وشغل الناس بالسباحة والمصارعة، وانهمك الشباب فيها بشكل كبير.

وفي جمادى الآخرة من عام ٣٣٤ تخيّل معز الدولة من المستكفي شيئاً فدخل على الخليفة وانتزعه بعض جنود معز الدولة من سريره «وجرّوه»، ثم نهب الجند دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء، وسار معز الدولة إلى منزله راكباً، وساقوا المستكفي ماشياً إليه، ثم خلع وسملت عيناه، ثم احضر الفضل بن المقتدر، وبويع بالخلافة باسم المطيع، وبايعه ابن عمه الخليفة المخلوع المستكفي، وقد شهد على نفسه بالخلع، ثم سجن إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

الإمارات

١ - دولة الأمويين في الأندلس:

خضعت الأندلس لعبد الرحمن الثالث الناصر، وانقادت الولايات لحكمه، وكان خطر النصارى يتهدده من الشمال، كما كان خطر العبيديين من الجنوب، واستفاد عبد الرحمن من الصقالبة الذين يجلبهم الإفريق والبنادقة فيشتريهم، ويربيهم تربية إسلامية، ويدربهم على الجندية.

خلع محمد بن هاشم التجيبي أمير سرقسطة طاعة عبد الرحمن الناصر فسار إليه وأخضعه، ثم سار إلى إمارة «نافار» النصرانية التي دعمت التجيبي فانتصر عليها.

بنى الناصر أسطولاً مؤلفاً من مائتي سفينة، وتسابقت رسل دول فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا إلى مقرّ حكمه تقدم له الاحترام.

٢ - الدولة العبيدية:

توفي عبيد الله المهدي عام ٣٢٢ وخلفه ابنه نزار أبو القاسم القائم، وتم في عهده فتح جنوه عام ٣٢٣ مروراً بجزيرة سردينيا. وفي جزيرة صقلية ثار الناس على عامل العبيديين فأرسل إليهم جيشاً أخضعهم.

وثار الخوارج الأباضيون في طرابلس على العبيديين غير أن حركتهم قد انحصرت على أباضية «هوارة» لذا كانت ضعيفة، وأرسل القائم قوة بحرية حاصرت أهل طرابلس من البحر، وقطعت عنهم المؤن، فاضطروا إلى الاستسلام مقابل دفع مبلغ من المال وتسليم ثلاثة من رؤسائهم حملوا إلى (رقادة) حيث قتلوا هناك وذلك عام ٣٣٠.

وقامت ثورة أخرى للخوارج الأباضية تُعد أهم الثورات التي واجهت

العبيديين، وقد قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد، وقد ظهر منذ عام ٣١٦ في جبال أوراس، وقوي أمره عام ٣٢٥ إذ انضمت إليه الأباضية بفرقها كلها كما انضم إليه أهل السنة ضد العبيديين الذين أساءوا إلى الإسلام وانتهكوا حرماته، وأرسل القائم إلى عامله على «قسطيلة» ليحمل إليه أبا يزيد فاعتقله أبو يزيد، فأرسل القائم عندئذ جيشاً قوياً حاصر منطقة الأوراس غير أن أبا يزيد قد تمكن من فك الحصار، وانضمت إليه بعض القبائل فأحرز نصراً على جيوش العبيديين وتتبعهم، وبدأت المدن تسقط أمامه حتى دخل (رقادة) ثم (القيروان) عام ٣٣٣، واتجه نحو (المهدية) فخندق حولها القائم، وكاد ينتهي أمر العبيديين لولا استنهاض همة كتامة وصنهاجة وخندقة القائم حول المهدية، وأرسل القائم الجيوش للقاء أبي يزيد لكنها هزمت وتشتت شملها، ولم يتابع أبو يزيد فلولها، وقوي بعدئذ أمر القائم. أما أبو يزيد فقد أخبر عبد الرحمن الناصر بالانتصارات التي أحرزها، وفرح المسلمون إذ توقعوا انتهاء أمر العبيديين.

وكما ثار الأباضيون من الخوارج فقد ثارت الصفرية أيضاً ضد العبيديين إذ استغل محمد بن الفتح بن ميمون فرصة ضعف ابن عمه سمكو بن محمد أبي المنتصر واشتعال ثورة الأباضيين فدعا لنفسه وخلع طاعة العبيديين، وتلقب بالشاكر لله، وأظهر تأييده للعباسيين لكسب أهل السنة إلى جانبه، وكان حسن السيرة، وهذا ما جعل بعضهم يقول: إنه كان من أهل السنة.

٣ - الدولة الإخشيدية:

الإخشيد كلمة يُلقّب بها ملوك فرغانة، وقد جاء «جف» جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم فأكرمه، ثم اتصل بالخليفتين الواثق والمتوكل، وتوفي في العام الذي توفي فيه المتوكل ٢٤٧ بل وفي الليلة نفسها التي مات فيها المتوكل، وبرز ابنه طغج في أيام الطولونيين، وقتال الروم. ولما دخل الجيش العباسي مصر،

استقبل طغج بن جف القائد العباسي محمد بن سليمان بالعباسة، ومعه كبار القادة، ثم سار بمن بقي من الطولونيين وقادتهم إلى بغداد، ولما لم يترجل للوزير العباسي فقد أوغر صدر الخليفة عليه فسجنه وابنيه محمد وعبيد الله وذلك عام ٢٩٢، وتوفي طغج في السجن عام ٢٩٤، وأطلق الخليفة ابنيه فدخلا في خدمة الخلافة، ولما حانت لهما فرصة الثأر من الوزير العباس بن الحسن لم يتركاها وذلك عندما ضربه الحسين بن حمدان بالسيف فوقع عن جواده فأسرعا وأجهزا عليه، وهرب بعدئذ محمد بن طغج إلى ديار ربيعة، وفرّ عبيد الله إلى شيراز، ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالخليفة المقتدر وعلا شأنه.

اتصل محمد بن طغج بعامل الشام ابن بسطام، ولما أعطي ولاية مصر انتقل محمد معه، وتوفي ابن بسطام عام ٢٩٧ فاتصل بابنه أبي القاسم علي بن بسطام، وحارب تحت إمرة (تكين) الذي التقى بالعبيديين بإمرة حباسة بن يوسف الكتامي وقد أبلى يومها بلاء حسناً، وقد تولى إمرة الأردن نيابة عن «تكين» عام ٣٠٦ ثم الاسكندرية عام ٣٠٧ - ٣٠٩، وقاتل العبيديين الذين غزوا مصر، وعندما انتصر عليهم عام ٣٢١ - ٣٢٤ أمر الخليفة إضافة إسم الإخشيد عليه، وولاه إمرة مصر والشام فساد النظام، وصالح العبيديين.

وفي ٣٢٨ غضب الخليفة على الإخشيد، وأرسل محمد بن رائق والياً على مصر، فسار إلى حمص فدخلها، وانطلق إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الإخشيد والياً عليها للإخشيد فأخرجه ابن رائق منها، ودخلها، وسار منها إلى الرملة فأخذها، ثم اتجه إلى عريش مصر، فلقيه الإخشيد محمد بن طغج فهزم الإخشيد وشغل أصحاب ابن رائق بالأسلاب فخرج عليهم كمين للإخشيد فهزمهم وتفرقوا، فأعمل جند الإخشيد فيهم قتلاً ولكن نجا ابن رائق مع سبعين من رجاله ورجع إلى دمشق، فسيّر إليهم الإخشيد أخاه عبيد الله أبا نصر في جيش كثيف فالتقى مع جيش ابن رائق بـ «اللجون»، وانتصر ابن رائق انتصاراً كبيراً وقُتل أبو نصر عبيد الله بن طغج أخو الإخشيد، فأخذه

ابن رائق وكفنه وأرسله إلى أخيه مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق واعتذر إليه، وكانت النتيجة أن اصطلحا على أن تكون الرملة الحدود بين الطرفين.

وقتل ابن رائق عام ٣٣٠ فأصبحت بلاد الشام كلها للإخشيد وقد دخلها دون حرب، كما تبعته الحجاز، كما أن الخليفة المتقي قد طلب منه دعمه فسار إليه والتقى به بالرقة، ورجاه أن يسير معه إلى مصر فلم يوافق الخليفة فرجع الإخشيد إلى مصر.

وفي عام ٣٣٢ استولى الحمدانيون على قنسرين فولّاها ناصر الدولة إلى ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان (أخي أبي فراس)، كما استولى سيف الدولة على حلب عام ٣٣٣، وقاتل الاخشيديين الذين اضطروا إلى دفع الجزية له.

٤ - الدولة الحمدانية:

قتل ناصر الدولة عمه سعيد أبا العلاء والد أبي فراس عندما أراد أن ينتزع منه الموصل عام ٣٢٣، وكان ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة بجانب الخليفة حتى جاء البويهيون فوقعوا في صدام معهم ثم تصالحوا لكن عادوا فاختلفوا. كما حاربوا البريديين الذين كانوا في الأهواز، ودخلوا مدينة واسط، وتغلب توزون على بغداد، وأصبح أمير الأمراء.

استولى ناصر الدولة على قنسرين عام ٣٣٢ من الإخشيد وأعطى إمرتها لابن عمه الحسين بن سعيد الحمداني أخي أبي فراس، كما استولى سيف الدولة على حلب عام ٣٣٣ وتولى أمرها. ومات توزون عام ٣٣٤، وأصبح ابن شيرزاد أميراً للأمراء، ودخل بنو بويه بغداد، وحاولوا الحد من نفوذ الحمدانيين، واستطاع ابن شيرزاد أن يدخل بغداد وأن يحكمها باسم ناصر الدولة الحمداني، ويأتي ناصر الدولة إليها ويخطب باسم المتقي، غير أن البويهيين يدخلون بغداد بعد أربعة أشهر، ويعود ناصر الدولة الحمداني إلى



الرحيل، ثم يعقد الصلح بين الطرفين في أوائل عام ٣٣٥ غير أنه لم يستمر طويلاً ويقع الخلاف.

٥ ـ الدولة السامانية:

ثار أبو علي محمد بن الياس على نصر بن أحمد الساماني واستولى على كرمان، فأرسل له نصر جيشاً كبيراً هزم أبا علي محمد بن الياس ودخل كرمان وحكمها باسم السامانيين عام ٣٣٢.

وتوفي نصر بن أحمد عام ٣٣١ وكان حليماً كريماً، عاقلاً، وقيل: إنه أخذ مبادىء الاسماعيلية، وراسل عبيد الله المهدي فدبّر القواد مؤامرة لاغتياله، وأدرك نصر الخطر فتنازل عن الحكم لابنه نوح غير أن هذا التصرف لم ينجه لتقضي عليه عام ٣٣١.

عفا نوح بن نصر عن بعض الأمراء المخالفين له ليؤلف بين القلوب، ووقع الخلاف بين البويهيين ونوح بن نصر فهُزم نوح، ثم جهز نفسه ثانية وتمكن من استرداد الري ودخول الجبل أيضاً عام ٣٣٣.

القرامطة

استمر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي يعيث الفساد في المناطق التي يصل إليها وخاصة طرق الحجاج حتى عام ٣٢٦ حيث اختلف بعض القرامطة مع بعض إلا أن أبا طاهر قد استطاع الاحتفاظ بمركزه، وتخلص من خصومه، وهذا الخلاف جعلهم يتمسكون في منطقتهم ويحافظون عليها، ويمكثون فيها مدة، ويتركون الفساد في الأرض وقطع طرق الحجاج والقوافل، وقد لاحظنا أن حجاج بغداد تمكنوا من الحج عام ٣٢٧ بعد حرمانهم مدة من الزمن.

وكانت الدولة الأخيضرية في اليمامة شيعية وخضعت لسيطرة القرامطة أو أن الأخيضريين بقي نفوذهم قائماً وإن كان باسم القرامطة أو تحت إشرافهم، وذلك منذ أن بدأ طغيان أبي طاهر على المنطقة وحتى زوال القرامطة نهائياً في منتصف القرن الخامس أو حتى زوال الدولة الأخيضرية.

ومات أبو طاهر بن أبي سعيد الجنابي عام ٣٣٢ فخلفه إخوته الثلاثة سعيد أبو القاسم، وأحمد أبو العباس، ويوسف أبو يعقوب، وكانت كلمتهم في البداية متفقة، وبقي الحجر الأسود في هجر حتى عام ٣٣٩ حيث أعيد إلى مكانه في ذلك العام.

وفيها (٣٣٢) أقبلت طائفة من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان فقصدوا بردعة فحاصروها، فلما ظفروا بأهلها قتلوهم عن آخرهم، وغنموا أموالهم، وسبوا من استحسنوا من نسائهم، ثم مالوا إلى المراغة، فوجدوا بها ثماراً كثيرة، فأكلوا منها فأصابهم وباء شديد فمات أكثرهم، وكان إذا مات أحدهم دفنوا معه ثيابه وسلاحه، فأخذه المسلمون وأقبل إليهم المرزبان بن محمد فقتل كثيراً منهم. وفي ربيع الأول منها جاء الدمستق ملك الروم إلى رأس العين في ثمانين ألفاً فدخلها ونهب ما فيها وقتل وسبى منهم نحواً من خمسة عشر ألفاً، فقصدته الأعراب من كل وجه فقاتلوه قتالاً عظيماً حتى انجلى عنها[1].


(١) البداية والنهاية - ابن كثير

مخطط توضيحي لتدرج الدول في عهد سيطرة القادة الأتراك على الدولة العباسية



الفصل الثاني

عصر السيطرة العسكرية البويهية

وتمتد هذه المرحلة من ٣٣٤ - ٤٤٧ أي مدة ثلاث عشرة ومائة سنة، تعاقب في هذه المدة أربعة خلفاء فقط، إذ أن أيامهم قد طالت، فأقلهم حكم ثماني عشرة سنة، وهو الخليفة الطائع أي الثاني في هذه المرحلة، على حين وصلت أيام الخليفة القادر إلى إحدى وأربعين سنة، وهذه مدد طويلة بالنسبة إلى خلفاء يتعاقبون.

امتازت هذه المرحلة بسيطرة آل بويه الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس وربما كان أحد ملوك فارس القدماء من أجدادهم، وسكنت هذه الأسرة بلاد الديلم فعرفوا كأنهم منهم، وكانوا من الرعية العاديين، وأول ما برز منهم أبو شجاع بويه، وكان من صيادي السمك في بحر الخزر، وكان له ثلاثة أولادهم: علي، وحسن، وأحمد، وقد دخلوا كجنود عاديين في جيش (ما كان بن كالي)، وأبدوا شيئاً من الشجاعة فأصبحوا في رتبة الأمراء، غير أن (ما كان ابن كالي) لم يلبث أن اختلف مع (مرداويج بن زياد)، وانحاز أولاد بويه إلى مرداويج عندما رأوا أن قوته تميل إلى الرجحان، فأكرمهم (مرداويج) وولى علي بن بويه بلاد الكرج، ثم غضب عليهم وأمر أخاه بصرفهم فصرف حسن وأحمد أما علي فلم يصرفه لما اشتهر من شجاعة ولما عرف عنه من كرم، إلا أن (مرداويج) قد قرر طرده، وأرسل له جيشاً فترك علي بلاد الكرج واتجه إلى اصفهان، وانتصر على المظفر بن ياقوت، وانضم إليه عدد من الديلم وأصبح عدد جنوده سبعمائة، ثم سار إلى (اصطخر)، وانتصر على المظفر بن ياقوت ودخل (شيراز) عام ٣٢٢، ثم حاول أن يتقرب ثانية إلى (مرداويج) الذي قتل عام

٣٢٣، وبقي علي بن بويه في الميدان فدانت له بلاد فارس. أما أخوه الحسن الذي كان عند (مرداويج) رهينة لأخيه فقد استطاع بعد موت (مرداويج) أن يحتل الري، وأصفهان، وهمدان. وكذلك احتل أحمد بن بويه (كرمان) ثم دعاه أخوه علي لمعاونته فترك (كرمان) واحتل الأهواز عام ٣٢٦.

ساءت العلاقة بين الخليفة المتقي وتوزون فدعا الخليفة أحمد بن بويه لدخول بغداد، فاتجه نحوها غير أنه هزم أمام توزون عام ٣٣٢، وهكذا فقد أصبحت سلطة علي بن بويه تمتد من بلاد الكرج حتى الأهواز، ويسيطر أحمد على بلاد فارس الجنوبية، على حين أن شمال بلاد فارس تحت نفوذ أخيهما الحسن.

طلب قواد بغداد من أحمد بن بويه السير إليهم والاستيلاء على مدينتهم، فسار نحوهم واستقبله الخليفة المستكفي، وأكرمه ولقبه معز الدولة، كما لقب أخاه علياً عماد الدولة، أما الحسن فقد لقب ركن الدولة. وهكذا أصبح لكل من هؤلاء الإخوة الثلاثة منطقة يسيطر عليها ويتعاقب أبناؤه وأحفاده على حكمها.

لقد كانت أسرة آل بويه شيعية فبدرت منهم أعمال منكرة، ففي عام ٣٤١ ظهر قوم من التناسخية فيهم شاب يزعم أن روح علي انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، وآخر يدعي أنه جبريل، فضربوا، فتعززوا بالانتماء إلى أهل البيت، فأمر معز الدولة بإطلاقهم لميله إلى أهل البيت، فكان هذا من أفعاله الملعونة[1].

وفي سنة إحدى وخمسين كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد لعنة معاوية، ولعنة من غصب فاطمة حقها من فدك، ومن منع أن يدفن مع جده، ولعنة من نفى أبا ذر، ثم إن ذلك محي في الليل، فأراد معز الدولة أن يعيده

(١) تاريخ الخلفاء.

فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محي: لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ، وصرحوا بلعنة معاوية فقط.

وفي سنة اثنتين وخمسين يوم عاشوراء، ألزم معز الدولة الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المأتم على الحسين، وهذا أول يوم نيح فيه عليه ببغداد، واستمرت هذه البدعة سنين.

وفي ثاني عشر ذي الحجة منها عمل عيد غدير خم، وضربت الدبادب[1].

وسيطر الشيعة على مناطق واسعة بل إن دولاً كثيرة قامت باسمهم سواء أكانت شيعية حقيقة أم ادعاء، فالدولة العبيدية دانت لها المغرب ثم مصر وأجزاء من الشام في أوقات متفاوتة، والدولة الحمدانية في الموصل والشام، والقرامطة الذين حكموا البحرين وخضعت لهم الإمارات في اليمامة وأجزاء من جزيرة العرب بل احتلوا دمشق، هذا بالإضافة إلى بني بويه الذين يحكمون العراق، وفارس، والري والجبل، والكرج، والأهواز، ثم هناك الدولة السامانية التي هي أقرب إلى الاسماعيلية هؤلاء، جميعاً يدعون التشيع غير أن منهم الغلاة: كالحمدانيين، ومنهم أقل غلواً مثل بني بويه، ومنهم أصحاب الأصول اليهودية كالعبيديين، ومن ينتمي إلى المجوس كالقرامطة ونتيجة هذه الأصول والأهداف المتباينة والمختلفة والتي تخفي وراءها أهدافاً سياسية ودينية تقصد منها هدم الإسلام من الداخل وتسلم السلطة لتتمكن من التهديم بصورة أوسع أو بشكل تخطط له. فلو كانت صادقة في دعواها وأهدافها واحدة لتمكنت من تحقيق مقصدها إذ لم يبق من أصحاب السلطة في الدولة الإسلامية الواسعة سوى مناطق ضيقة قليلة هم من أهل السنة، وهذه المناطق: هي الأندلس وإمارات صغيرة وضعيفة في بعض الأجزاء من جزيرة العرب، والإمارة

(١) المصدر السابق نفسه.

الغزنوية عندما قامت في شرق الدولة الإسلامية. ونتيجة التباين في المقاصد فقد وقعت الحروب بين هذه الجماعات فقد حاربت القرامطة العبيديين، وقاتل العبيديون الحمدانيين، وكان الحمدانيون وبنو بويه في صراع، ولم يكن السامانيون في منأى عن هذا الصراع. وقد حفظ هذا الإسلام - ولله الحمد - بسبب هذا الخلاف بين هذه الفرق الضالة والمدعية كذباً وزوراً الانتساب إلى آل البيت أو العمل لهم أو السير على سنتهم، والله سبحانه وتعالى هو الذي تعهد بحفظ هذا الدين وكتابه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] فحفظه بإيقاع الخلاف بينهم والتناحر بعضهم مع بعض.

كما تمتاز هذه المرحلة بكثرة الفتن التي أثارها الشيعة وهذا ما كان يؤدي بدورها إلى القتال المستمر بين السنة والشيعة وهذا بسبب تشيّع البويهيين وعدد من حكام الإمارات الثانية.

وأصبح في الخلافة سلطان أو ملك واحد أو أمير للأمراء من البويهيين بيده الأمر والنهي على حين كان في المرحلة السابقة أيام سيطرة الجنود الأتراك عدد من الأمراء القادة يتقاتل بعضهم مع بعض ويتباين هؤلاء الأمراء في أصولهم ومراتبهم، وصحيح أنه وقع الخلاف بين البويهيين ولكنهم كانوا من أسرة واحدة إختلف أبناؤها بعضهم مع بعض.

وقد كان الخلفاء على درجة طيبة من الاستقامة والتدين ولكنهم كانوا مغلوب على أمرهم، فالبويهيون بيدهم كل شيء، وقد وصلوا إلى درجة من كراهية الشيعة بسبب تعصب الشيعة وخاصة البويهيين الذي يسيطرون على الخلفاء أنفسهم.

وأخيراً فإن الإمارات قد قل عددها في المغرب فلم يبق منها سوى الأمويين والعبيديين الذين سطوا على منطقة واسعة وحلّوا محل إمارات متعددة، أما في المشرق فقد كثرت الإمارات وزادت الدول وانتشرت على رقعات متباينة.

(1) سورة الحجر الآية 9.

الخلفاء:

١ - المطيع	٣٣٤ - ٣٦٣
٢ - الطائع	٣٦٣ - ٣٨١
٣ - القادر	٣٨١ - ٤٢٢
٤ - القائم	٤٢٢ - ٤٦٧

-٢٣-

المطيع لله
الفضل بن جعفر المقتدر
٣٣٤ - ٣٦٣

هو الفضل بن جعفر المقتدر، ولد عام ٣٠١، وأمه أم ولد تدعى «شعلة» يكنّى أبا القاسم، كان مستخفياً من ابن عمه المستكفي، وهو يطلبه، بويع بالخلافة بعده يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الآخرة من عام ٣٣٤، وأحضر المستكفي عنده فسلّم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع، وازداد أمر الخلفاء إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدير إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيّعون ويُغالون في التشيّع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة، حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعةً من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي[1] أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفةً كان معك من تعتقد أنت وأصحابك

(١) يقصد العبيدي صاحب إفريقية ومصر.

صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلك[1]. فهذا كان من أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونهيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها، وتسلّم معز الدولة العراق بأسره ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته[2].

وخرج الخليفة المطيع لله مع معز الدولة لقتال ناصر الدولة الحمداني ووصلا إلى عكبرا، واستطاع ناصر الدولة أن ينتصر عليهما وأن يدخل بغداد فضعف أمر معز الدولة، ثم مكر بناصر الدولة فتغلب عليه ثم تصالحا وخرج ناصر الدولة إلى الموصل، وتمكّن معز الدولة في العراق فحجز على الخليفة وقرر له كل يوم مائة دينار نفقةً، غير أنه بعد عام أي سنة ٣٣٥ قد عاد فرفع عنه الحجز وأعاده إلى دار الخلافة، وسارا معاً عام ٣٣٦ إلى البصرة حيث أخذاها من يد أبي القاسم البريدي.

وخرج في الكوفة عام ٣٥٣ المتبرقع وادعى أنه هاشمي، وكان معز الدولة يومئذٍ مشغولاً بقتال ناصر الدولة الحمداني في الموصل. وخرج ببلاد الديلم رجل اسمه أبو عبدالله محمد بن الحسين وادعى أنه من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وقد عظم شأنه في بلاد الديلم.

وأصيب المطيع لله بفالج عام ٣٦٣، وثقل لسانه فخلع نفسه، وتسلّم الأمر بعده ولده الطائع لله، ثم توفي المطيع في مطلع عام ٣٦٤ في شهر المحرم.

---

(١) قال صاحب التكملة: وعزم معز الدولة على أن يبايع أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي فمنعه الصيمري من ذلك، وقال: إذا بايعته استشعر عليك أهل خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك.

(٢) الكامل في التاريخ.

الـــروم

كانت مفاداة بين المسلمين والروم عام ٣٣٥ على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة الحمداني، وكان عدد أسرى المسلمين ٢٤٨٠ أسيراً من ذكر وأنثى على حين كان عدد أسرى الروم ٢٢٥٠ أسيراً فاضطر سيف الدولة أن يدفع مقابل زيادة ما بيد الروم من أسرى وهو مائتان وثلاثون أسيراً.

وازدادت هجمات الروم في النصف الثاني من القرن الرابع، فقد أخذوا جزيرة اقريطش (كريت) من أيدي المسلمين عام ٣٥٠. وجاء ملك الروم وملك الأرمن إلى جهات (طرسوس) وحاصرا حاضرتها ولكنهما عجزا عن اقتحامها، كما هاجم ملك الروم بجيش عظيم ثغر (المصيصة) وأخذها قسراً، ثم سار الى طرسوس عام ٣٥٤، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وأجلاهم عن مدينتهم. وفي العام التالي اتجه الروم إلى (آمد) وحاصروها، ولم يتمكنوا من دخولها، فساروا إلى نصيبين وكان سيف الدولة فيها. وسار الروم عام ٣٥٧ إلى مدينة انطاكية وقتلوا وسبوا ورجعوا عنها غانمين، وبعد عامين تمكنوا من دخول انطاكية، وساروا إلى جهات حلب وصالحوا (قرعويه) مولى سيف الدولة.

وبدأ الروم بعد ذلك يتوغلون في أعماق بلاد المسلمين فقد تسللوا عام ٣٥٨ إلى مدينة حمص وأحرقوها، كما دخلوا مدينة طرابلس.

وهاجمت الروم الجزيرة ودياربكر، وقتلوا كثيراً من أهل (الرها)، ولم ينهض معز الدولة البويهي لقتالهم بل أنفق الأموال التي جمعت لسدّ الثغور على

غزوه، فغضبت العامة عليه، وفي العام التالي أرسل معز الدولة جيشاً لقتال الروم، وتمكّن هذا الجيش من إحراز النصر فسكتت حملة العامة عن معز الدولة.

وسار الروم عام ٣٤٢ إلى (آمد) ومعهم ملكهم، وقد حاصروا المدينة وعليها هزارمرد غلام أبي الهيجاء الحمداني فاستنجد بأبي تغلب بن ناصر الدولة فأرسل له أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة، فنصرهم الله على الروم، وأسروا الدمستق ملك الأرمن والذي مات في السجن عام ٣٦٣.

وكانت أكثر الحروب مع الروم تحدث بينهم وبين الحمدانيين الذين كانت مهمة حماية الثغور قد آلت إليهم ووقعت على كاهلهم غير أن ضعفهم وتشيعهم قد شجع الروم فدخلوا حلب عدة مراتٍ ولكن قتالهم المستمر للروم أعداء المسلمين قد جعل المسلمين يثنون عليهم ويمدحون سيف الدولة حتى أصبح في نظر الناس بطلاً عظيماً وشجاعاً مغواراً وما هو كذلك، وإن مغالاته في التشيع قد أغفلت وربما كانت سبباً في إهماله للثغور وهو ما شجع الروم على المسلمين.

الإمارات

أ ـ البويهيون:

كان بنو بويه يُمثلون إماراتٍ محليةً وإن كانوا يسيطرون على مقدرات الخلافة في بغداد، وكانت إماراتهم متعددة إذ كان كبيرهم علي أبو الحسن عماد الدولة يحكم فارس وهو أمير الأمراء، ويحكم أخوه أحمد أبو الحسين معز الدولة باسمه العراق والأهواز وكرمان ونيابةً عنه، ويحكم أخوه الآخر أبو علي الحسن ركن الدولة الري وهمذان وأصبهان. وكان فيهم تعسف شديد، ومغالاة في التشيع حتى كان عهدهم عصر صراع بين السنة والشيعة بشكلٍ واسع، وتقوم مناحات الشيعة في عاشوراء بشكلٍ حيّ وبدعةٍ بشعة.

مات عماد الدولة عام ٣٣٨، وقام ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع خسرو ابن ركن الدولة إذ لم يكن لعماد الدولة ولد مكانه. وتمكّن ركن الدولة من أخذ طبرستان وجرجان من أمير الديلم وشمكير وضمّ هذه المناطق إلى إمارته، وأخذ معز الدولة بعد ذلك أمراً من الخليفة بولاية أخيه ركن الدولة على خراسان.

ومات معز الدولة عام ٣٥٦ وكان في عهده قد قوي شأن الأتراك وقل شأن الديلم الذين انضموا إلى الذين ثاروا ضد معز الدولة، وقام بعده في بغداد ابنه بختيار وقد تلقب باسم عز الدولة، ويقال أن معز الدولة قد رجع إلى السنة

والمجاعة قبل موته(١). وطمع منصور بن نوح الساماني في أملاك بني بويه لأن عز الدولة بختيار كان منصرفاً إلى اللهو والنساء والصيد غير أن ركن الدولة قد دعم ابن أخيه عز الدولة ورد منصور بن نوح الذي مات في رحلة صيد له بعد أن وقع عن ظهر جواده وبعد أن تصالح منصور بن نوح الساماني مع ركن الدولة بن بويه وابنه عضد الدولة على أن يحملا له كل عام مائة ألف دينار.

واختلف عز الدولة بختيار مع سبكتكين، وحاصر سبكتكين دار عز الدولة، وأخذ أهلها، وتغلب الأتراك على بني بويه، وكان عز الدولة في الأهواز ولم يستطع دخول بغداد وذلك عام ٣٦٣ فراسل عمه ركن الدولة فأرسل إليه أبا الفتح بن العميد كما استنجد بابن عمه عضد الدولة وكذلك راسل أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، فسار الأتراك ومعهم الخليفة الطائع لله وأبوه المطيع نحو واسط للقاء عز الدولة ولكن لم يلبث أن توفي المطيع لله المخلوع ثم توفي سبكتكين، فالتف الأتراك حول أمير منهم اسمه «افتكين» والتقوا مع عز الدولة بختيار الذي ضعف أمره وقوي أمر ابن عمه عضد الدولة فملك العراق.

٢ ـ الحمدانيون:

تقاتل ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل مع القائد «تكين» التركي، وقد وقعت عدة اشتباكات بينهما، وأخيراً تمكن ناصر الدولة من «تكين» واستقر له الأمر بالموصل والجزيرة في عام ٣٢٥.

عاد الخلاف بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني عام ٣٣٦ وتقدم معز الدولة نحو الموصل ففر ناصر الدولة إلى «نصيبين»، وعزم معز الدولة على أخذ كل ما يسيطر عليه الحمدانيون، ووقع ظلم من البويهيين على أهل الموصل فضاقوا ذرعاً بمعز الدولة، وساعدتهم الظروف إذ أن ركن الدولة

(١) البداية والنهاية.

قد استنجد بأخيه معز الدولة لقتال أهل خراسان، فاضطر معز الدولة أن يصالح ناصر الدولة الذي يغادر الموصل مقابل أن يدفع ناصر الدولة كل عام ثمانية آلاف درهم، وأن يدعو على المنابر لآل بويه عماد الدولة، ومعز الدولة وركن الدولة.

وسار معز الدولة عام ٣٤٥ من بغداد إلى الأهواز للقضاء على بعض الحركات فيها فاستغل ناصر الدولة هذا الخروج ودخل بغداد، فلما انتهى معز الدولة البويهي من مهمته عاد إلى بغداد فرحل عنها الحمدانيون، غير أن ناصر الدولة قد امتنع عن دفع الأموال إلى معز الدولة الأمر الذي حمل معز الدولة إلى متابعة السير إلى الموصل وقتال ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة ووعده بأن يحمل الأموال إلى دار الخلافة في كل عام، ومع هذا التعهد فقد سار إليه معز الدولة في العام التالي ودخل الموصل فهرب ناصر الدولة إلى «نصيبين» فلاحقه معز الدولة، ففر إلى حلب حيث يستقل أخوه سيف الدولة، فراسل سيف الدولة الحمداني معز الدولة وأصلح بينه وبين أخيه وتعهد بأن يحمل ناصر الدولة إلى دار الخلافة في بغداد في كل عام مليونين وتسعمائة ألف درهم، كما تعهد أن يؤدي سيف الدولة ما على أخيه من أموال.

وعقد ناصر الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة مقابل مال مقرر وذلك عام ٣٥٣، ثم اختلف ناصر الدولة مع ابنه أبي تغلب فسجن الولد أباه وظل في السجن حتى مات في شهر ربيع الأول من عام ٣٥٨، واختلف أبناء ناصر الدولة مع أخيهم أبي تغلب مع وفاة أبيهم.

أما الحمدانيون في حلب فقد كان أميرهم سيف الدولة في صراع دائم مع الروم بصفته كان أمير الثغور أو أن الثغور قد آلت إمرتها إليه لا بصفته مجاهداً أو بطلاً مغواراً إذ لم يكن كذلك كما تصفه كتب الأدب من خلال مدح المتنبي له حيث كان يطمع من ورائه الحصول على إمارة فمديحه قول شاعر طامع صاحب غاية أو أنهما يلتقيان على فكرة واحدة هي فكرة المغالاة في

التشيع حتى لتقترب من فكرة القرامطة. وكان سيف الدولة في المعارك في مؤخرة الجند لا أمامهم فينجو عند الهزيمة ويفخر عند النصر.

دخل سيف الدولة عام ٣٣٧ بجيشٍ كثيفٍ بلاد الروم غير أنه هزم وأخذ الروم كل ما بأيدي هذا الجيش الحمداني، كما نال أهل طرطوس أذى كثير من الروم ولم يستطع سيف الدولة حماية أحد من رعاياه لما اتصف به من خوف وخور. وعاد سيف الدولة عام ٣٣٩ فدخل بلاد الروم بجيشٍ عظيمٍ فانتصر وأخذ عدداً كبيراً من الروم أسارى، غير أن الروم قد قطعوا عليه الطريق أثناء العودة فهزموه وأخذوا ما معه من الأسرى، وقتلوا أكثر من معه، ونجا سيف الدولة بنفرٍ يسيرٍ معه لأنه كان في مؤخرة الركب. وعاد سيف الدولة إلى بلاد الروم عام ٣٤٢ وتمكّن من إحراز النصر في هذه المرة، وفي العام التالي أغار على زبطرة وملاطية وهي ثغور إسلامية استولى عليها الروم فقتل وأحرق وسبى، والتقى مع قسطنطين بن الدمستق فانتصر عليه وقتل أعظم رجاله، ثم التقى بجيش الدمستق عند «مرعش» وتغلّب عليه وأسر صهر الدمستق وابن ابنه، وهذا ما شجعه فعاد إلى بلاد الروم عام ٣٤٥ فأحرز انتصاراً كبيراً وعاد إلى حلب غانماً، فثارت ثائرة الروم فجمعوا جموعهم وهاجموا بعض مدن المسلمين فقتلوا وأحرقوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، كما ركبوا البحر إلى ميناء طرطوس فقتلوا من أهلها ثمانمائة وألف، وسبوا عدداً آخر، وأحرقوا عدة قرى، وكانت هذه أعظم انتصارات سيف الدولة على الروم.

وفي عام ٣٤٨ دخل الروم «الرها» و«طرطوس» وقتلوا، وسبوا، وأخذوا الأموال، فقابل سيف الدولة بذلك بدخول بلاد الروم عام ٣٤٩ واستطاع من إحراز النصر، وفتح عدة حصون، وقطع الروم عليه طريق الرجعة فقتلوا أكثر جيشه ولم ينج إلا سيف الدولة مع ثلاثمائة فارس. وسار جيش عظيم من انطاكية باتجاه طرطوس فخرج عليه كمين من الروم فقتلوهم عن بكرة أبيهم ولم يفلت منهم سوى أمير انطاكية وبه جراحات، ومن جهة

ثانية دخل «نجا» غلام سيف الدولة بلاد الروم ورجع غانماً.

وفي عام ٣٥١ دخل الدمستق حلب، وسيطر على دار سيف الدولة وكانت بظاهر حلب، وأخذ ما فيها من أموال وأمتعة ونساء، وقتل كثيراً من أصحاب سيف الدولة أما الأمير سيف الدولة فقد فرّ من بيته ومن حاضرته بعد أن ترك نساءه لخصمه، وبقي جيش الدمستق في حلب تسعة أيام وقد فعل الجند فيها كل ما هو سيء، وكان الروم قد دخلوا قبل ذلك عين زربة وهي أحد ثغور المسلمين المهمة، وأسر أبو فراس الحمداني يومها وكان نائب مدينة منبج لابن عمه سيف الدولة. كما أغار الروم على ضواحي «طرطوس».

أعاد سيف الدولة بناء ثغر «عين زربة»، وأرسل غلامه «نجا» فدخل بلاد الروم، إلا أن «نجا» لم يلبث أن خلع طاعة مولاه، وتحصّن في مدينة «حران» ثم سار إلى أذربيجان وساعده في التغلّب عليها «أبو الورد» أحد الأعراب في تلك المنطقة، فسار إليه سيف الدولة وتمكن من قتله.

وفي عام ٣٥٤ ثار أحد القرامطة واسمه «مروان» في مدينة حمص وامتلكها من سيف الدولة، فأرسل إليه سيف الدولة مولاه بدر، فالتقيا في معركة أصيب فيها مروان بسهم مسموم مات نتيجة ذلك بعد عدة أيام، وفي الوقت فقد أسر بدر في هذه المعركة وقتله أصحاب مروان. وفي العام ٣٥٥ تمت المفاداة بين سيف الدولة والروم وكان من أسرى الحمدانيين أبو فراس الحمداني. ولم يلبث أن توفي سيف الدولة عام ٣٥٦ فخلفه ابنه سعد الدولة أبو المعالي فاصطدم مع خاله أبي فراس فقتله عام ٣٥٧ غير أن «قرعويه» مولى أبيه قد غلبه واستولى على حلب، وهرب أبو المعالي، ولكنه عاد فعبر نهر الفرات وسار إلى حماه فامتلكها، ثم اتجه إلى حمص، وأعاد بناء ما خربه الروم عندما أغاروا عليها عام ٣٥٨، وصالح «قرعويه» الروم عندما اشتد بأسهم، ثم تصالح «قرعويه» و«أبو المعالي» عام ٣٥٩، واستقر وضع أبو المعالي في حلب

نسياً. وامتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين[1].

٣ ـ السامانيون:

تولّى أمر السامانيين عام ٣٣١ نوح بن نصر، واختلف مع ركن الدولة البويهي على خراسان، وهزم أمامه إذ انضمت بعض فرقه إلى ركن الدولة غير أنه تمكن من استعادة ما فقد عام ٣٣٣، ولم يلبث أن خرج عليه أحد قادته وهو أبو علي بن محتاج وهذا ما أحدث الفوضى في البلاد، ولم يكتف الأمر على ذلك بل إن بعض قادته قد كاتبوا ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل الساماني وكان قد انضم إلى ناصر الدولة الحمداني، فجاءهم فبايعوه واستطاع أن يستولي على نيسابور، ومرو، وبخارى عام ٣٣٥ بعد أن دعمه المتمرد أبو علي، فسار إليها نوح بن نصر، واختلف أبو علي مع ابراهيم، فرأى ابراهيم أن يتفق مع ابن أخيه نوح على أن يتولى قيادة جيوش السامانيين، وأن يخلع نفسه من البيعة التي بايعه بها بعض الجند والأمراء، وتم هذا غير أنه عاد فدعم ابن أخيه الآخر محمد بن نصر ضد أخيه نوح بن نصر وبايعه، وبسبب هذه الفوضى ضعف أمر السامانيين فاستولى البويهيون على الري وبلاد الجبل.

تصالح نوح بن نصر مع قائده المتمرد أبي علي فقوي أمره واسترد ما فقده في الري وبلاد الجبل، لكن ركن الدولة البويهي قد أثار القائد أبا علي ضد سيده عام ٣٣٩ غير أن هذا الجفاء لم يلبث أن زال وتصالح أبو علي مع أميره وتسلّم قيادة الجند، وأرغم ركن الدولة البويهي على دفع جزية سنوية لنوح بن نصر.

شكّ نوح بن نصر بقائده أبي علي فعزله من القيادة، فراسل ركن الدولة، وسار إليه في الري، وتدخل الخليفة في الأمر وأقرّ ركن الدولة على الري

(١) البداية والنهاية.

بمساعدة معز الدولة البويهي أخي ركن الدولة وذلك عام ٣٤٣، وفي هذا العام توفي نوح بن نصر وخلفه ابنه عبد الملك بن نوح فقلّد إمرة الجيوش إلى بكر ابن مالك وأرسله إلى بخارى لإخراج أبي علي منها، وقد تم له ذلك إذ انضم بعض فرق أبي علي إلى بكر وهذا ما أجبر أبا علي إلى الفرار والالتجاء إلى ركن الدولة في الري، ومات عبد الملك بن نوح عام ٣٥٠ بعد أن وقع عن ظهر جواده، وخلفه أخوه أبو صالح منصور بن نوح فخرجت عليه سجستان، ودامت الحرب بينهما مدة سبع سنوات.

وعادت الحرب بين ركن الدولة البويهي ومنصور بن نوح عام ٣٥٦ واستمرت حتى عام ٣٦١ حيث تم الصلح بينهما على أن يدفع ركن الدولة مائة ألف دينار ويدفع ابنه عضد الدولة مبلغ خمسين ألف دينار لمنصور بن نوح الساماني، وتزوج نوح بن منصور ابنة عضد الدولة. ومات منصور بن نوح عام ٣٦٦ وخلفه ابنه نوح بن منصور باسم نوح الثاني.

٤ ـ القرامطة:

أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة عام ٣٣٩ بعد أن بقي عندهم في هجر اثنتين وعشرين سنة، وبعد أن طلب الفاطميون منهم ذلك إلا أن الناس قد تحدثوا كثيراً في هذا الأمر وما آل إليه حكم أكثر أجزاء الدولة الإسلامية من رفض وقرامطة وأنهم جميعاً يرضون عما قام به القرامطة فخاف الفاطميون ان ينقلب هذا إلى ثورة عامة ضد الرافضة في كل مكان.

سار القرامطة عام ٣٥٣ إلى طبريا ليأخذوها من يد الإخشيد، ولما رأوا عجزهم طلبوا النجدة من سيف الدولة بالحديد فأمدهم بذلك، وتمكنوا من دخول دمشق عام ٣٥٧.

وأجلي القرامطة عن عمان عام ٣٥٥.

ورجع القرامطة إلى دمشق عام ٣٦٠ وكان أمرها قد آل إلى العبيديين

فتمكنوا من دخولها وكان نائبها جعفر بن فلاح، وزعيم القرامطة يومذاك الحسن بن أحمد بن بهرام، وقد أمده عز الدولة البويهي من بغداد بالسلاح، ثم ساروا إلى الرملة فأخذوها أيضاً، واتجهوا نحو القاهرة غير أنهم هزموا على أبوابها ورجعوا إلى الشام، وذلك أنهم لما ساروا إلى مصر كان معهم أمير العرب ببلاد الشام حسان بن الجراح الطائي، وقد ضعف المعز لدين الله العبيدي عن قتالهم فراسل حسان بن الجراح ووعده بمائة ألف دينار فانهزم عند اللقاء بمن معه وهزمت بذلك القرامطة، وساروا إلى الشام، فلاحقهم العبيديون وأخذوا منهم الشام.

٥ ـ الإخشيديون:

مات الإخشيد محمد بن طغج الفرغاني عام ٣٣٤، وكان شجاعاً مهيباً، وقام مكانه ولده أبو القاسم أنوجور، وكان صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فكان كافور يدير له الأمر. اضطرب أمر الشام، وأخذ سيف الدولة الحمداني دمشق من أصحاب الإخشيد، فسار إليه كافور فأجلى سيف الدولة عن دمشق وتبعه إلى حلب بعد أن انتصر انتصاراً حاسماً في مرج عذراء قرب دمشق، وأخرجه من حلب أيضاً، ولما رجع كافور إلى مصر رجع سيف الدولة إلى حلب، وعقد صلح بعد ذلك بين الطرفين. «وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتي حلب وطرطوس. وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن تكون له سلطة شرعية»[1]. وكان كافور يقدم لأنوجور سنوياً أربعمائة ألف دينار، ولما كبر أنوجور حدثت وحشة بينه وبين كافور بسبب استبداد الثاني بالأمر رغم أن السلطة باسم الأول.

(١) تاريخ الإسلام: حسن ابراهيم حسن.

توفي أنوجور وخلفه أخوه أبو الحسن علي بن الأخشيد، وبقي كافور صاحب السلطة الفعلي بل منع الناس من الاجتماع بأبي الحسن فبقي رهن قصره يأخذ راتبه إلى أن توفي عام ٣٥٥، وخلفه إسمياً ابنه أحمد غير أن كافور قد حال دون تعيين هذا الأمير خلفاً لأبيه وبقيت مصر ما يقرب من شهر دون والٍ بصورة رسمية، وتمكن كافور من أن يستصدر كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده إمرة مصر، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي عام ٣٥٧. وفي هذه المدة التي تزيد على السنتين من ولاية كافور تعرضت مصر والشام لغارات القرامطة من الشرق، وتعرضت أيضاً لغارات العبيديين من جهة الغرب، كما أغار ملك النوبة على مصر من جهة الجنوب.

وبعد أن توفي كافور اختار امراء الجيش أحمد بن علي أبي الحسن والياً، ولما كان صغيراً فقد عيّن وصياً عليه والي الشام الحسن بن عبيدالله فاستبد بالأمر، ثم اضطر أن يعود إلى الشام، وجاء العبيديون فدخلوا مصر ثم الشام، وأسر الحسن بن عبيد الله ونقل إلى المغرب وبقي فيها حتى مات عام ٣٧١.

٦ ـ العبيديون:

مات أمير العبيديين أبو القاسم القائم نزار بن عبيد الله المهدي عام ٣٣٤ وتولى الإمر بعده ابنه المنصور أبو طاهر اسماعيل، وكان القائم شراً من أبيه، زنديقاً ملعوناً، أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه ينادي: إلعنوا الغار وما حوى، وقتل خلقاً من العلماء[1]. ومات المنصور اسماعيل العبيدي عام ٣٤١، وولي الأمر بعده ابنه معد وتلقب بالمعز لدين الله، وكان المنصور حسن السيرة بعد أبيه أبطل المظالم فأحبه الناس[2].

وبعد أن مات كافور الإخشيدي عام ٣٥٧ اختلّ النظام، وقلّت الأموال

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) المصدر السابق.

على الجند فكتب جماعة من مصر إلى المعز يطلبون منه عسكراً ليسلّموا إليه البلد، وكان القرامطة قد قصدوا مصر ليملكوها، فأرسل المعز قائده جوهر الصقلي في مائة ألف فارس فملك مصر، واختط القاهرة وبنى دار الإمارة، وقطع الخطبة لبني العباس، ومنع لباس السواد، وأمر الخطباء أن يلبسوا البياض، وأن يقال في الخطبة: اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، وصلِّ على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز بالله وذلك في شهر شعبان من عام ٣٥٨. وفي شهر ربيع الآخر من عام ٣٥٩ أمر أن يقال في الأذان بدعة «حي على خير العمل»، وشرع في بناء الجامع الأزهر. ثم دخل دمشق وتولى أمرها عن المعز جعفر بن فلاح، وأضيف إلى الأذان البدعة المعروفة أيضاً «حي على خير العمل» عام ٣٦٠، وانتقل المعز إلى مصر في شهر رمضان من عام ٣٦٢. وإن ما فعله الفاطميون في دمشق من قتل، وحرائق، وفتن قد جعل خطباءها يلعنون العبيديين على المنابر بل طلب أهلها النجدة من القرامطة وهم على سوئهم أيضاً، ظنوا بأن يكونوا أقل سوءاً من العبيديين وكذا فعلوا بطبريا بعد أن قضوا على أميرها من قبل الإخشيديين وهو فاتك، وكذا بالرملة عندما انتصروا على الوصي وأمير الرملة الحسن بن عبيدالله بن طغج.

لما أرسل جوهر الصقلي قائد العبيديين خبر انتصاراته إلى سيده وتوسّل له بالقدوم إلى مصر، غادر المعز حاضرته «المنصورية»[1]، واستخلف على إفريقية شيخ صنهاجة «بلكين بن زيري بن مناد» ومرّ على جزيرة سردينيا التي

(١) المنصورية: مدينة بقرب القيروان من نواحي إفريقية، استحدثها المنصور بن القائم بن المهدي الخارج بالمغرب عام ٣٣٧، وعمّر أسواقها، واستوطنها، ثم صارت منزلاً للملوك الذين هم والذين زعموا أنهم علويون، وملكوا مصر، ولم تزل منزلاً لملوك إفريقية من بني باديس حتى خربها العرب لما دخلت إفريقية وخربت بلادها بعد سنة ٤٤٢ فكانت هي فيما خربت في ذلك الوقت.

خضعت هي وصقلية لنفوذه، ومنها سار إلى القاهرة، حيث غدت حاضرة له فقلّت بذلك سطوته على المغرب فاستقلّ واليه «بلكين بن زيري» في منطقة تونس عام ٣٦٢، وأسس الدولة الزيرية وإن بقي يدعو للمعز. وبوجود الخليفة العبيدي في القاهرة أفل نجم بانيها جوهر الصقلي غير أن اشتداد ضغط القرامطة، وزيادة نفوذ الأتراك قد أجبر الخليفة العبيدي على إعادة جوهر إلى قيادة الجيوش، وتوفي المعز لله عام ٣٦٥ وخلفه ابنه نزار أبو منصور الملقب العزيز بالله، ودعي للعبيديين بالحرمين عام ٣٦٣.

ومن قبل قام الخوارج بثورات على العبيديين في المغرب، الأباضيون والصفريون على حدٍ سواء، ولكن لم يكتب لهذه الثورات النجاح، فقد عجز أبو يزيد مخلد بن كيداد الأباضي عن دخول المهدية انقسمت جيوشه إلى فرق مختلفة الهوى متباينة الرأي، وهذا ما جعل الهزيمة تحلّ به أمام المنصور عام ٣٣٥، ثم وقع أسيراً وهو مثخن بالجراح بعد أن توالت عليه الهزائم، ومات في السجن عام ٣٣٦ متأثراً بجراحه. وحاول الفضل بن أبي يزيد القيام بحركة بعد وفاة أبيه ضد المنصور العبيدي غير أنه هُزم وقُتل، وحاول أخوه أيوب بن أبي يزيد زعامة ثورة إلا أنه هُزم واغتيل على يد أحد رؤساء قبيلة «مغراوة» وأرسل رأسه إلى المنصور العبيدي.

واستغل محمد بن الفتح بن ميمون الملقب باسم الشاكر لله قيام الأباضيين بحركتهم بإمرة أبي يزيد وانشغال العبيديين بالقضاء عليها فقام بقود الصفرية لقتال العبيديين، وعندما آل أمر العبيديين إلى المعز لله عام ٣٤١ أثار قبيلة كتامة للقيام بمهمة قتال الشاكر لله لكنها تثاقلت بحجة بُعد الشقة وصعوبة الطريق، وهذا ما زاد من كثرة المتمردين في المغرب على الحكم العبيدي الأمر الذي جعل المعز لله يُعِدّ حملة كبيرة تعيد للحكم هيبته في المغرب وقد أوكل إمرتها إلى جوهر الصقلي، سارت الحملة إلى سلجماسة وحاصرتها مدة ثلاثة أشهر، وحاول قائدها جوهر أن يعطي الأمان لسكان المدينة مقابل تسليمهم

الشاكر لله فلم يفلح، وتمكن الشاكر لله أن يفرّ من المدينة وأن يلتجيء إلى أحد الحصون القريبة منها، ودخل بعدها جوهر سجلماسة وأصدر عفواً عاماً عن السكان، وبعد مدة تسلّل الشاكر لله إلى المدينة لقتال خصومه داخلها، فقُبض عليه، وأخذ أسيراً إلى القيروان، وبقي في سجنه حتى توفي عام ٣٥٤، وعيّن جوهر والياً من قبله على سجلماسة، وعاد هو إلى المنصورية، وما أن غادر جوهر سجلماسة حتى ثارت الصفرية على الوالي العبيدي، وقتلته، ونصّبت عليها أحد أبناء الشاكر لله أميراً ولقبته المنتصر لله، وحتى لا تعود الحرب كتبت الصفرية إلى المعز لله أنهم على الطاعة، وهو بدوره حرصاً على السلامة وعدم تجدد الثورة فقد وافق على تعيين الوالي الذي تم اختياره من قبلهم وهو المنتصر لله، ودعاهم لزيارته في المنصورية فساروا إليه فاستقبلهم وعفا عنهم وأيّد اختيارهم الأمير وقدم لهم الهدايا وعادوا أدراجهم، غير أنه لم يلبث ابن الشاكر لله الآخر وهو أبو محمد قد ثار على أخيه وقتله وخلع طاعة العبيديين وذلك عام ٣٥٢ وتلقب باسم المعتز، وانتهى نفوذ العبيديين نهائياً من سجلماسة منذ ذلك الوقت.

وجاءت أعداد كبيرة من الروم والفرنجة عام ٣٥٣ ويزيد عددهم على مائة ألف يريدون صقلية فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم ففروا بعد أن فقدوا الكثير منهم فلاحقهم المسلمون في المراكب فأغرقوا عدداً من سفنهم وأسروا عدداً آخر ممن فرّ.

٧ ـ الأمويون:

كان عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي في الأندلس، وقد بنى مدينة «سالم» عام ٣٣٥ وتقع شمال شرقي مدريد بمائة وخمسة وثلاثين كيلومتراً، كما بنى مدينة «المرية» على ساحل البحر المتوسط لتكون قاعدة للأسطول الأندلسي عام ٣٤٤. وحدث في هذا العام قتال بين عبد الرحمن الناصر

الأموي والمعز لدين الله العبيدي.

وتوفي عبد الرحمن الناصر عام ٣٥٠ بعد أن وطد أركان البلاد وخلفه ابنه الحكم الثاني الذي تلقب باسم المستنصر بالله، واستمرت أيامه حتى عام ٣٦٦، وكانت أيامه هادئة، والبلاد مستقرة على أسس ثابتة، ازدهرت فيها العلوم، ونعمت بالعمران، وقد أعدّ عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم إعداداً جيداً وهيأه لتسلّم أمور الأندلس، وكان الحكم ميالاً للسلم فاستغل النصارى في الشمال هذه النقطة، وظنّوا فيه ضعفاً، فبدأوا بالهجوم على أطراف البلاد فجهز جيشاً قوياً قاده بنفسه لتأديب النصارى فردّهم على أعقابهم خاسرين، وأمّن حدود بلاده.

هاجم النورمان في عهده الأندلس، وهم من شمالي أوروبا ولا يزالون على الوثنية وأطلق عليهم اسم المجوس، أغاروا على عدة مناطق، وقد استقر بعضهم في شمال غربي فرنسا بعد الغارة على تلك الجهات وأخذت إسمهم (نورماندي)، وتشير المصادر إلى أن أصلهم من جهات الدانمارك، وأقام بعضهم في جنوبي ايطاليا، واستعملتهم الكنيسة للهجوم على المسلمين فدخلوا صقلية فيما بعد.

تعرضت سواحل بحر الغرب (المحيط الأطلسي) لغارات هؤلاء النورمان المجوس وقد تركّزت غاراتهم على منطقة لشبونة وذلك في عام ٣٥٥ وعام ٣٦١، كما تعرضت السواحل الشرقية سواحل البحر المتوسط فجهات المغربين أنفسهم وذلك في عام ٣٥٤ وعام ٣٦٠ وتركّزت غاراتهم على مرفأ (المرية).

ويمكن أن نقول في هذا المجال: إن المسلمين قد أسسوا لهم دولة في شمال مرسيليا امتدت من ساحل البحر إلى سويسرة وشملت شمالي ايطاليا وجنوب شرقي فرنسا وجزءاً من سويسرا، وعرفت باسم دولة جبل القلال، ودامت أيامها من عام ٢٧٧ إلى عام ٣٦٥، وظن الأوربيون أن هذه ذات صلة بالمسلمين في الأندلس لذا فقد انطلقت سفاراتهم إلى قرطبة لبحث شأن هذه

الدولة، ولم يكن لأهل الأندلس علاقة بها.

٨ ـ اليمن:

قامت في اليمن عدة دول منها في هذه المرحلة دولة بني زياد في زبيد، ودولة بني يعفر في صنعاء، ودولة بني الرسّ في صعدة، وهم الأئمة الزيود، وكان الإمام في هذه المدة المنصور يحيى ودام حكمه من عام ٣٢٥ إلى عام ٣٦٦.

-٢٤-
الطائع لله
عبد الكريم بن الفضل المطيع
٣٦٣-٣٨١

هو عبد الكريم بن الفضل المطيع، أبو بكر، ولد عام ٣٢٠[1]، وأمه أم ولد تدعى «هزار»[2]. تنازل له أبوه المطيع عن الخلافة عام ٣٦٣ فكان عمره ثلاثة وأربعين عاماً، فركب وعليه البردة ومعه الجيش، وسار بين يديه سبكتكين، وفي اليوم التالي خلع على سبكتكين، وعقد له اللواء، ولقّبه نصر الدولة.

كان شديد الانحراف إلى الطالبيين، سقطت هيبة الخلافة في أيامه جداً حتى هجاه الشعراء، إذ كان يخرج لاستقبال عضد الدولة على غير عادة الخلفاء.

وقبض بهاء الدولة البويهي عام ٣٨١ على الخليفة الطائع لله، وانطلق الناس ينهبون ويسرقون، وكتب بهاء الدولة كتاباً على الخليفة يخلع فيه نفسه، وأشهد عليه، وأعطيت الخلافة من بعده للقادر بالله، وبقي الطائع لله عند الخليفة الجديد حتى توفي عام ٣٩٣ ليلة عيد الفطر، وقد صلّى عليه الخليفة.

كان أبيض مربوعاً، حسن الجسم، وكان أنفه كبيراً. وكان شديد القوة كثير الإقدام.

---

(١) وقيل: إن مولده كان سنة ٣١٧.

(٢) وذكر أن اسم أمه «عتب».

الـــروم

لما مات ملك الروم أرمانوس خلّف ولدين صغيرين ملكا بعده، وكان يوم موته نقفور (الدمستق) يغير على بلاد المسلمين فلما رجع وعلم بموت أرمانوس طمع بالحكم وسوّل له بعض القادة ذلك إذ لا يصلح الطفلان الصغيران لهذه المهمة الكبيرة، فتزوج من أمهما وتسلّم أمر السلطة، غير أنه قد حصلت جفوة بينه وبين أم الملكين زوجته فراسلت (ابن الشمشقيق) وحسّنت له أمر قتل نقفور والقيام بالأمر مكانه ففعل وتم له الوضع فقبض على أخي نقفور وهو (لاون) وعلى ابنه (ورديس) وسجنهما، ثم قام بالغارة على بلاد المسلمين، وبلغ طرابلس.

لكن خال الملكين الصغيرين أن يسقي (ابن الشمشقيق) السمّ ومات، وعظم أمر الملكين الصغيرين، غير أن (ورد بن منير) أحد عظماء البطارقة قد طمع بالحكم وأراد أن يستعين بالحمدانيين في تحقيق أمره فراسل أبا تغلب الحمداني فوعده بالدعم، فجمع (ورد) جموعه وبدأ من قرب الثغور واتجه إلى الروم، فسيّر له الملكان الصغيران جيشاً إثر جيش فكان (ورد) ينتصر في قتاله ويتابع سيره فلما اقترب من القسطنطينية خاف الملكان الصغيران عاقبة الأمر فأخرجا ورديس بن لاون من السجن وقدماه على الجيوش فهزم خصمه، وفرّ (ورد) إلى بلاد المسلمين وراسل عضد الدولة غير أن الملكين قد راسلا أيضاً عضد الدولة الذي رأى أن يأخذ جانب الصغيرين فقبض على (ورد) وسجنه عام ٣٦٩، وبقي ورد في سجن المسلمين حتى عام ٣٧٥ حيث

أطلق سراحه صمصام الدولة بشرط أن يطلق عدداً من أسرى المسلمين، وأن يسلم له سبعة حصون من بلاد الروم برساتيقها، وألا يقصد بلاد المسلمين ما دام حياً لا هو ولا أحد من أصحابه، فرجع إلى بلاد الروم، ولم يتمكن من الحكم وإن حصل على جزء سيطر عليه.

الإمارات

أ - البويهيون:

وقع خلاف بين عز الدولة بختيار ونصر الدولة سبكتكين فدعم الأتراك نصر الدولة ووقعت حروب بين الطرفين، واضطر عز الدولة أن يستنجد بعمه ركن الدولة وبابن عمه عضد الدولة، وكان من قبل لا يستشير عمه إذ ترك الاستشارة، ويناوىء ابن عمه عضد الدولة، ولكن عندما اشتدت الأمور عليه لم يجد بُدّاً من الاستشارة وطلب النجدة. كما طلب دعم أبي تغلب بن حمدان.

وجاء عضد الدولة لدعم ابن عمه عز الدولة عام ٣٦٤ ودخل بغداد وطاب له المقام فيها فملكها واستمال الجند إليه فشغبوا على عز الدولة الذي لم يجد بُدّاً من أن يلزم بيته ويغلق بابه. وكتب عضد الدولة إلى الأمصار على لسان الخليفة باستقرار الوضع لعضد الدولة.

وقعت جفوة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة الأمر الذي استدعى أن يقطع عضد الدولة الخطبة عن الطائع مدةً تزيد على الشهر والنصف.

ولما اعتزل عز الدولة بختيار الملك كتب ابنه المرزبان من البصرة وكان والياً عليها من قبل أبيه كتب إلى عم أبيه ركن الدولة يشكو له ما حلّ بأبيه وأعمامه من عضد الدولة ووزيره أبي الفتح بن العميد، فأجابه بدعم والده وحتى السير إلى العراق إذا اقتضى الأمر وإخراج عضد الدولة منها.

واضطربت أحوال العراق على عضد الدولة إذ خلع طاعته المرزبان بن عز الدولة في البصرة، كما خلع الطاعة كل من محمد بن بقية في واسط، وسهل بن

بشر في الأهواز، وكل يظهر الأسف لما حلّ بعزّ الدولة، ولما سار عضد الدولة لتأديب محمد بن بقية في واسط هزمت جيوشه أمام جند ابن بقية. وحاول عضد الدولة كسب والده ركن الدولة إلى جانبه وعدم دعمه لعز الدولة بإظهار ضعفه والخوف من ذهاب الملك من الأسرة نهائياً نتيجة هذا الضعف غير أن الأب قد بقي بجانب ابن أخيه وأصرّ على ولده بترك بغداد لابن عمه، فاضطر عضد الدولة إلى مغادرة بغداد والانتقال إلى فارس وترك الأمر لابن عمه عز الدولة على أن يكون نائباً له كما ترك معه أخاه أبا اسحاق يعاونه. وأرسل عضد الدولة إلى عُمان المطهر بن عبد الله فاستولى عليها، وخلت كرمان من جند البويهيين فخلع أهلها الطاعة فأمر عضد الدولة أن يسير إليهم المطهر بن عبد الله فسار إليهم وأخضعهم.

وتنازل ركن الدولة عما تحت يده لأولاده فأخذ عضد الدولة فارس وكرمان، وأخذ مؤيد الدولة الري وأصبهان، وأخذ فخر الدولة همذان والدينور وبعدها بقليل توفي ركن الدولة[1] عام ٣٦٦.

ولما مات ركن الدولة تجهز ابنه عضد الدولة للسير إلى العراق لما كان يبلغه عن ابن عمه عز الدولة من التحريض عليه، ثم سار عام ٣٦٧، وأرسل إلى عز الدولة يدعوه إلى طاعته، وأن يسير إلى أي جهةٍ يريدها مبتعداً عن العراق فوافق وعزم السير إلى الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة الحمداني، فلما قطعا شوطاً في السير ووصلا إلى (عكبرا) اقترح حمدان على عزّ الدولة المسير إلى

---

(١) كان ركن الدولة حليماً كريماً واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنده، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها واجباً إلا فيما لا بد منه، وكان يحامي عن أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة، وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام. (الكامل)

الموصل وأخذها فهي أفضل من الشام قوافله. وتبعها عضد الدولة يريد الموصل وتخليصها من أبي تغلب الحمداني، فراسل أبو تغلب عز الدولة بأن يسلمه أخاه حمدان فإن فعل قاتل معه عضد الدولة وأعاده إلى بغداد ليملكها ففعل عز الدولة ذلك، فسجن أبو تغلب أخاه حمدان في قلعة وسار إلى عزّ الدولة فالتقيا في (الحديثة) وعلم بذلك عضد الدولة فسار إليهما فالتقى الجمعان بالقرب من (تكريت) فانتصر عضد الدولة وأخذ ابن عمه عزّ الدولة أسيراً وقتله، واستقر له ملك العراق، وسار إلى الموصل فملكها وهرب أبو تغلب إلى (نصيبين)، واستمر عضد الدولة يلاحق أبا تغلب الذي ينتقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى دمشق ولم يتمكن من دخولها فاتجه نحو طبريا فقتل هناك. وبقي عضد الدولة[1] في ملكه حتى توفي عام ٣٧٢ بعد أن ملك بلاد أخيه فخر الدولة الذي كان مناوئاً له، كما استولى على جرجان، وقام بعدُ ابنه المرزبان أبو كاليجار وتلقب صمصام الدولة.

وتوفي مؤيد الدولة بن ركن الدولة عام ٣٧٣ فبعث أبو القاسم بن عباد الوزير إلى فخر الدولة فولاه الملك وقد تصالح بعدها فخر الدولة مع صمصام الدولة.

واختلف شرف الدولة بن ركن الدولة مع أخيه صمصام الدولة ووقع القتال بين الطرفين وانتصر شرف الدولة ودخل بغداد وملكها عام ٣٧٦

---

(١) عضد الدولة: خسرو أبو شجاع بن ركن الدولة، وهو أول من تسمى شاهنشاه أي ملك الملوك، كان يخرج في الفداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه، وكان يوصل إلى العمال المعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا، وكان محباً للعلوم وأهلها مقرباً لهم محسناً إليهم، وكان يجلس معهم ويعارضهم في المسائل فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب. وعمل المصالح في سائر البلاد كالمستشفيات والقناطر غير أنه فرض الضرائب الجائرة في أواخر حياته.

وسجن أخاه صمصام الدولة في بعض قلاع فارس، واختلف شرف الدولة مع عمه فخر الدولة.

وتوفي شرف الدولة عام ٣٧٩ وتولى الملك بعده أخوه أبو نصر الذي تلقب باسم بهاء الدولة وضياء الملة. ولم يلبث صمصام الدولة أن فرّ من سجنه وانتصر على جيش أخيه بهاء الدولة ثم تصالحا على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس ولبهاء الدولة العراق والأهواز، ثم عاد الخلاف فدبّ بينهما من جديد.

٢ـ الحمدانيون:

رجع أبو المعالي إلى حلب بعد أن كان قد ملكها مولى أبيه تغلب قرعويه، وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بحمص فكاتبه أهل حلب فجاء إليهم وحاصر المدينة أربعة أشهر ثم دخلها عام ٣٦٦، ولكن تحصّن بقلعتها بكجور، وامتنع عن أبي المعالي، ثم تصالح معه على أن يُعطى بكجور الأمان ونيابة حمص فأعطي ذلك وانتقل بعدها إلى نيابة دمشق للعبيديين ثم اختلف معهم فعاد إلى حمص والياً لأبي المعالي.

ولما تغلب عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة سار فأخذ الموصل من أبي تغلب الحمداني وديار بكر وربيعة وتسلّط على أبي المعالي بن سيف الدولة في حلب. ثم قُتل أبو تغلب الحمداني في طبريا بعد أن حاصر دمشق وعجز عن دخولها، وقد أنهكته كثرة الحروب وكانت معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني وزوجته ابنة سيف الدولة أخت أبي المعالي فحمل بنو عقيل ركبه إلى حلب فأخذ أبو المعالي أخته وسيّر جميلة الحمدانية إلى أبي الوفا في الموصل نائب عضد الدولة فسيّرها أبو الوفا بدوره إلى عضد الدولة فسجنها عنده.

وعاد سعد الدولة أبو المعالي فاختلف مع واليه بكجور نائب حمص الذي طلب مساعدة العبيديين فطلب أبو المعالي دعم الروم ووقعت الحروب وانتصر

أبو المعالي، وتوفي سعد الدولة عام ٣٨١ .

واستعاد أبو طاهر ابراهيم بن ناصر الدولة وأخوه أبو عبد الله الحسين عام ٣٧٩ نفوذهما في الموصل لمدة سنة واحدة .

٣ - السامانيون:

توفي منصور بن نوح عام ٣٦٦ وقام بعده ولده أبو القاسم نوح بن منصور وتلقب بالمنصور ، وكان صغيراً إذ لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة ، فاستغل هذه السن قائد الجيش الساماني في خراسان واستقل بما تحت يده ، وقامت الحرب بين نوح بن منصور الساماني وعضد الدولة البويهي الذي استولى على جرجان ، وإن هزيمة السامانيين هذه قد جعلت بعض أفراد البيت الساماني يقومون بالثورة . وبالجملة فإن أيام هذا الأمير قد طالت حتى عام ٣٨٧ إلا أنها كانت مليئة بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سن الأمير ، كما كثر تدخل أمه في شؤون الحكم ، وكذلك الوزراء الذين لم يقل تدخلهم عن تدخل أمه ، وقد طمع بنو بويه في بلاده وكذلك طمع الأتراك ، وقامت فوق كل ذلك المنافسة بين أمراء البيت الساماني نفسه .

٤ - الغزنويون:

كان أحد الموالي الأتراك المقدمين عند السامانيين يدعى البتكين ، وقد عين والياً على مدينة (هراة) ثم عزل عن منصبه فانتقل إلى مدينة (غزنه) التي كان والده والياً عليها من قبل السامانيين أيضاً ، فلما توفي حل محله في حكمها وناوأ السامانيين الذين أبعدوه عن حكم هراة ولكنه توفي بعد عام أي ٣٥٣ ، وقام ابنه اسحاق في غزنه بالدور نفسه غير أنه لم يستطع توسعة رقعة نفوذه وتوفي عام ٣٥٥ ، وقام من بعده مواليه ومنهم سبكتكين الذي آل إليه الأمر عام ٣٦٦ إذ قدمه الجند (لما عرفوا من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه ، فقدموه عليهم وولوه أمرهم ، وحلفوا له وأطاعوه ، فأحسن السيرة فيهم

وساس أمورهم سياسة حسنة ،[١]) وهو زوج ابنة البتكين .

بدأ سبكتكين بتوسعة رقعة أملاكه فاستولى على (قصدار) قرب غزنة وعلى (بست) بين هراة وسجستان ، كما ساعد السامانيين فأخذ ولاية خراسان ، وكذلك استولى على جزء من الهند فأخذ بعض المواقع الجبلية منها حيث مدينة كابل . وكان سبكتكين يعترف بسلطة السامانيين عليه رغم استقلاله .

٥ - القرامطة:

عندما حدثت فتنة الأتراك في بغداد وهزم سبكتكين ثم توفي ، فرّ الفتكين في جماعة من أصحابه وسار نحو حمص ، واتجه إليه ظالم بن موهوب العقيلي نائب دمشق للعبيديين ليأخذه فلم يتمكن فعاد ، وسار الفتكين إلى دمشق فدخلها برأي كبارها وقد وعدوه بالطاعة ووعدهم بالحماية ، وأخرج نائب دمشق للعبيديين ريان الخادم ، وقطع الخطبة للمعز وخطب للطائع ، ثم راسل المعز ليداريه ، فشكره وأظهر سروره وطلب منه القدوم إليه على أن يعيده إلى دمشق والياً عليها من قبله ، غير أن (الفتكين) لم يثق بالمعز فلم يقبل ، فجمع المعز جنده ، ورغب في السير إلى دمشق لكن المنية أدركته دون تحقيق مأربه فاستغل (الفتكين) موت المعز وأغار على مدن الساحل الشامي التي تتبع العبيديين مثل صيدا التي كان فيها ظالم بن موهوب العقيلي .

سمع العزيز بالله العبيدي بما يفعله (الفتكين) فسيّر جيشاً إليه بإمرة جوهر الصقلي والتقى الطرفان ودامت الحرب بينهما شهرين فاستنجد (الفتكين) بالحسين بن أحمد القرمطي فجاءه من الإحساء ، فلما علم جوهر بذلك غادر دمشق ، وسار في إثره (الفتكين) والقرمطي وحاصراه في عسقلان وضاقت عليه الحال ، ثم إن جوهراً قد التقى بـ (الفتكين) واتفقا ، وسمح (الفتكين) لجوهر بالانسحاب إلى مصر ، وجاء العزيز بجيش إلى القرمطي والفتكين وقد

---

(١) الكامل في التاريخ

رجعا إلى الرملة، والتقى الطرفان، وتمكن العزيز من أسر (الفتكين) ببذل المال لمن يأتي به، فأكرم العزيز الفتكين كثيراً وأخذه معه إلى مصر، وبقي فيها حتى مات مسموماً. وسار القرمطي إلى طبريا فطلب العزيز منه أن يأتي إليه فيكرمه أكثر من (الفتكين) فلما رفض أرسل له عشرين ألف دينار، وجعلها كل سنة له، فأخذها القرمطي ورجع إلى الإحساء.

وفي عام ٣٦٦ توفي مقدم القرامطة أبو يعقوب يوسف بن أبي سعيد الجنابي وقام من بعده ستة لم يختلفوا فيما بينهم أبداً، وكانوا يعرفون باسم السادة، كما توفي في العام نفسه الحسين بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي زعيم جيوش القرامطة إلى الشام، وكان يظهر الطاعة للخليفة العباسي.

وفي عام ٣٧٣ سار القرامطة إلى البصرة والكوفة ليأخذوهما وذلك بعد وفاة مؤيد الدولة بن ركن الدولة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك.

وفي عام ٣٧٥ أفسد القرامطة في منطقة الكوفة فأرسل إليهم صمصام الدولة جيشاً طردهم من منطقة الكوفة وقتل مقدمهم وهو أحد سادتهم.

٦ - العبيديون:

تولى المعز أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل عام ٣٦٥، وقام بعده ابنه نزار الذي لُقب بالعزيز، وكان المعز عالماً فاضلاً جواداً شجاعاً جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة ثم أظهره وأمر الدعاة بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حدٍ يذم[1].

اتسعت رقعة الدولة العبيدية أيام العزيز إذ ضم بلاد الشام كلها بعد أن فتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب أبوابها، وأرسل جيشاً إلى مكة ودخلها بعد أن حاصرها وخُطب له فيها عام ٣٦٥، كما خطب له في الموصل عام ٣٨٢.

(١) الكامل في التاريخ

أقرّ العزيز والي أبيه يوسف بلكين بن زيري بن مناد[1] شيخ صنهاجة على إفريقية بل ضم له أيضاً طرابلس وسرت وأجدابيه، فاستبد يوسف بما تحت يده، وإن بقي يظهر الطاعة والمجاملة للعزيز.

وزحف إلى سجلماسة خزرون بن فلفول المغراوي وقتل أبا محمد المعتز إمام الصفرية وبعث برأسه إلى قرطبة عام ٣٦٥ فزالت الصفرية من المغرب نهائياً. وقاتل يوسف بلكين زناتة في المغرب، وأزال عمال الأمويين منها.

وكان أمير صقلية أبو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين قد فتح عدة حصون، ثم سار إلى صقلية بردويل بجموعٍ كثيرةٍ من الفرنجة وحاصر مالطة وملكها فخافه أبو القاسم ففر منه فلحقت به الفرنجة وأدركته وجرت معركة بين الطرفين عام ٣٧٢ قُتل فيها أبو القاسم وقام مكانه ابنه جابر وعاد إلى منازلة الفرنجة فانتصر عليهم.

ومات يوسف بلكين بن زيري عام ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور الذي سار إلى المغرب ليرد الزناتيين إلى طاعته فهُزم أمامهم.

وثارت كتامة بتحريضٍ من العزيز الفاطمي فاتجه المنصور نحوها فانتصر عليها عام ٣٧٧، ولكنه خرج أبو الفرج الكتامي مرةً ثانيةً غير أنه هُزم أيضاً أمام المنصور كما هُزم سلفه.

وخالف المنصور عمه أبو البهار غير أنه ندم فعاد وصالح ابن أخيه المنصور.

ووجه العبيديون أيام العزيز اهتمامهم لنشر فكرتهم متظاهرين بالتشيع لذا

(١) كان بدء أمر بلكين أنه من قواد المعز، وأبلى في إخضاع زناتة بالمغرب البلاء الحسن، فلما استولى العبيديون على مصر، وانتقل المعز إليها ولاه إفريقية ما عدا صقلية وطرابلس إذ كان الكلبيون يحكمون الأولى ويحكم الثانية كتامة، وسماه يوسف بدلاً من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة، وفي أيامه ثار أهل المغرب الأقصى وخلعوا الطاعة وخطبوا للأمويين في الأندلس فسار إليهم وأخضعهم.

عملوا على نشر الفكر الشيعي الذي بدأ يُصاغ بشكل يظهر الماضي حسب هذا الفكر.

وكان العزيز فوق هذا كريماً محباً للعفو، واشتهر بتسامحه مع النصارى واليهود كما كان أبوه من قبل، وتزوج بنصرانية، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية وقلّد عيسى بن نسطوريوس النصراني الوزارة، كما عيّن منشابن ابراهيم اليهودي بلاد الشام[1].

٧ ـ الأمويون:

في عام ٣٦٦ توفي الحكم وهو المستنصر بالله بن الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي، وقد كان هذا من خيار الملوك وعلمائهم، وكان عالماً بالفقه والخلاف والتواريخ محباً للعلماء محسناً إليهم، توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة وسبعة أشهر، ومدة خلافته منها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده ولده هشام وله عشر سنين، ولقب بالمؤيد بالله، وقد اختلف عليه في أيامه، واضطربت الرعايا عليه، وحُبس مدة ثم أخرج وأعيد إلى الخلافة، وقام بأعباء أمره حاجبه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري[2]، وابناه المظفر والناصر، فساسوا الرعايا جيداً وعدلاً فيهم وغزوا

(١) تاريخ الإسلام.

(٢) محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، المعروف بالمنصور بن أبي عامر، كان جده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق بن زياد. ولد المنصور في إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس، وفد إلى قرطبة في حداثة سنه، ودرس بجامعها حيث كان أبوه يقوم بالتدريس، وامتاز بين أقرانه بالذكاء، وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقي. تقرب من أم الخليفة هشام وهي (صبح) ثم أصبح الحاجب. واشتهر بالأدب والتواضع والكرم والعطف على اللاجئين، وقد كسب في حياته حب العلماء والشعب والجند، وبقي حتى توفي عام ٣٩٢ وهو في غزوه لبلاد النصارى في الشمال.

الأعداء، واستمر لهم الحال كذلك نحواً من ست وعشرين سنة[1].

غزا الحاجب المنصور مملكة ليون النصرانية في الشمال، واستولى عليها، وهدم حصونها وقلاعها، وقهر برشلونة، واتخذ جنداً من المرتزقة من المغرب ومن نصارى الشمال ليأمن جانب الجند السابقين من العرب والأسبان والصقالبة.

٨ ـ اليمن:

استمرت دولة بني زياد في زبيد وكان حاكمها في هذه المرحلة اسحاق بن ابراهيم، وكذلك كانت دولة بني يعفر في صنعاء ويحكمها عبد الله بن محمد بن قحطان، وقام آنذاك آل الضحاك. وأما بنوالرس في صعدة فكانت الإمامة للداعي يوسف الذي امتدت إمامته من ٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ.

(١) البداية والنهاية.

-٢٥-

القادر بالله

أحمد بن إسحاق بن المقتدر

٣٨١ - ٤٢٢

هو أحمد بن إسحاق بن الخليفة المقتدر، أبو العباس، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، أمه أم ولد اسمها «تمني». كان أبيض كثّ اللحية يخضب، ديّناً عالماً متعبداً وقوراً من جلّة الخلفاء وأمثلهم. عدّه ابن الصلاح[1] في الشافعية. تفقّه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي الشافعي.

قال الخطيب: كان من الدين، وإدامة التهجد، وكثرة الصدقات على صفة اشتهرت عنه. وصنّف كتاباً في الأصول، ذكر فيه فضل الصحابة، وإكفار من قال: بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة خلافته، وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر[2].

بويع بالخلافة بعد خلع الطائع عام ٣٨١، وكان غائباً، فقدم في عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوساً عاماً، وهنّيء.

وفي عام ٣٨٣ تزوج القادر بالله سكينة بنت الملك بهاء الدولة. وعقد بولاية العهد لابنه الغالب بالله وذلك عام ٣٩١، وكان عمر ابنه تسع سنوات،

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن موسى، الكردي، تقي الدين، المعروف بابن الصلاح، أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، وهو صاحب المقدمة المشهورة في مصطلح الحديث، توفي بدمشق عام ٦٤٣ هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء - الذهبي.

وعجل بذلك، لأن الخطيب الواثق [1] سار إلى خراسان، وافتعل كتاباً من القادر بأنه ولي عهده، واجتمع ببعض الملوك فاحترموه، وخطب له بعد القادر، ونفذ رسولاً إلى القادر بما فعل، فأثبت فسق الواثقي، ومات غريباً [2].

وفي هذا الوقت انبثت دعاة الحاكم في الأطراف، فأمر القادر بعمل محضر يتضمن القدح في نسب العبيدية، وأنهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر منصور بن نزار الحاكم حكم الله عليه بالبوار، وأن جدهم لما صار إلى الغرب تسمى بالمهدي عبيد الله، وهو وسلفه أرجاس أنجاس خوارج أدعياء، وأن هذا الناجم وسلفه كفار زنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية [3].

واستتاب القادر فقهاء المعتزلة، فتبرؤوا من الاعتزال والرفض، وأخذت خطوطهم بذلك [4].

وفي سنة ثمان وتسعين وقعت فتنة بين الشيعة والسنة في بغداد، وكاد الشيخ أبو حامد الإسفراييني أن يقتل فيها، وصاح الرافضة ببغداد: يا حاكم، يا منصور، فأحفظ القادر من ذلك، وأنفذ الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة فانكسر الروافض [5].

وفي ذي الحجة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة مات القادر بالله في أول أيام التشريق، وعاش سبعاً وثمانين سنة.

---

(1) من ولد الخليفة الواثق بالله، هارون بن محمد المعتصم سنة ٢٣٢، وكان يلي الخلافة.
(2) سير أعلام النبلاء.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق.
(5) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ ـ البويهيون:

بدأ وضع البويهيين يسير نحو الضعف بسبب قتال بعضهم بعضاً، وبسبب قوة نفوذ القادة الأتراك، وضعف نفوذ الديلم الذين كانوا جند البويهيين والسيف الذي يضربون به، ويعد بهاء الدولة أول من سعى لزيادة قوة الأتراك. وغدت مناطق العراق، والأهواز، وكرمان، وفارس مسرحاً لصراع أبناء بويه. وهذا الضعف كاد يساعد على امتداد نفوذ العبيديين للعراق حتى أن قرواش بن المقلد أمير بني عقيل قد خطب للعبيديين في الموصل عام ٤٠١ ولكنه اضطر بالقوة أن يعود إلى طاعة بني العباس

توفي بهاء الدولة عام ٤٠٣ فتولى مكانه ابنه سلطان الدولة وبدأ الصراع مع إخوته، والتجأ أخوه قوام الدولة إلى محمود الغزنوي فأمده بقوة.

وفارق سلطان الدولة بغداد واستخلف عليها أخاه مشرف الدولة ثم اختلف معه وحاول العودة إليها بإرسال جيش بإمرة ابنه أبي كاليجار ولكنه لم يفلح، وتصالح مع أخيه أخيراً. ومات مشرف الدولة فحكم بغداد أخوه الثالث جلال الدولة وقد جاء من البصرة التي كان يتولى أمرها، واختلف مع ابن أخيه أبي كاليجار، ثم استقر الوضع له في بغداد وزاد نفوذ القادة الأتراك بشكل كبير.

وربما كان هذا الخلاف الكبير بين أبناء بويه هو الذي أبقى هيبة الخلافة

على شيء من القوة ولو نسبياً، وبقيت كلمة الخليفة القادر مسموعة إلى حدٍ ما.

٢ ـ الحمدانيون:

توفي أبو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة عام ٣٨١، وخلفه ابنه سعد أبو الفضائل، وكان سعد الدولة قد أوصى غلامه لؤلؤاً بابنيه أبي الفضائل وأبي الهيجاء، وبابنته ست الناس.

أخذ لؤلؤ البيعة لسعد أبي الفضائل والذي تلقّب باسم سعيد الدولة، وفي عهده وقع القتال بين الحمدانيين والعبيديين، ولم يتمكن منجوتكين قائد العبيديين من دخول حلب واضطر أن يرجع إلى دمشق، وتأثر العزيز العبيدي لهذا التراجع فسار بنفسه لقتال الحمدانيين ولكن الموت أدركه قبل أن يخرج من مصر.

كان لؤلؤ يتصرف بشؤون الدولة من دون سعيد الدولة وقد عمل على التخلص منه بل ومن ابنته التي كان لؤلؤ قد تزوج منها، وحكم بعدها باسم ولدي سعيد الدولة وهما: أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف.

قبض لؤلؤ على أبي الحسن وأبي المعالي وأرسلهما مع بقية أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة عام ٣٩٤، وبقي هو الحاكم الوحيد في حلب، وجعل ابنه منصوراً ولياً لعهده.

مات لؤلؤ عام ٣٩٩، وخلفه ابنه منصور فاعترف بسلطان العبيديين عليه، وأصبحت حلب بعد ذلك تتبع السلطة العبيدية.

٣ ـ السامانيون:

ثار بعض قواد السامانيين عام ٣٨٣ على أميرهم نوح بن منصور، واتصلوا بالأمير التركي شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك وأطمعوه بالاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وكانت إمارته تقع شرق الدولة السامانية وتمتد حتى حدود

الصين، وتقدم فعلاً إلى بلاد ما وراء النهر وهزم السامانيين وتمكن من دخول مدينة بخارى. غير أن موت شهاب الدولة إيلك والمعروف باسم (بغراخان) قد مكّن نوح بن منصور من استعادة بخارى.

وفي عام ٣٨٤ استعان نوح بن منصور بصاحب غزنة سبكتكين ضد الأمراء الثائرين فهزمهم وفروا إلى جرجان، واستطاع أيضاً أن يستعيد نيسابور التي أعطى إمرتها إلى محمود بن سبكتكين، ولكن محموداً لم يلبث أن هزم أمام الأمراء الثائرين.

توفي نوح بن منصور عام ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور بن نوح، واستغل هذه الفرصة الأتراك فاستولوا على سمرقند، وساعدهم فائق الخاصة أحد الثائرين فاستولى على بخارى واستدعى منصور بن نوح ليعود إلى حاضرته فهو لم يدخل بخارى إلا لخدمة سيده رعاية لحق أسلافه فجاء الأمير الساماني إلى قاعدة ملكه، وأوكل أمر الدولة إلى فائق الخاصة، وولى إمرة جيش خراسان إلى (بكتوزون).

بدأ الخلاف بين محمود الغزنوي ومنصور بن نوح حول خراسان إذ طلب محمود الغزنوي إعادته الى خراسان فلم يجب منصور بن نوح طلبه.

قبض فائق الخاصة وبكتوزون على الأمير منصور بن نوح وسملا عينيه ووليا مكانه أخاه الصغير عبد الملك بن نوح، واستغل محمود الغزنوي ضعف السلطة السامانية فتقدّم إلى بلادهم واستولى على بخارى ونيسابور وأزال نفوذ السامانيين وخطب للخليفة العباسي القادر بالله. أما خانات تركستان خلفاء بغراخان فقد استولوا على بلاد ما وراء النهر وقبضوا على الأمراء السامانيين، وبذا فقد زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥.

في عهد السامانيين بدأ الفرس يكتبون بلغتهم المحلية وشجعهم السامانيون على ذلك ولعل أهم الكتب الأدبية آنذاك كتاب الشاهنامه للفردوسي، أما الفلك والطب فكان يدون كلاهما باللغة العربية مثل كتاب المنصوري الذي

أنه أبو بكر الرازي، وكتب ابن سينا وغيرها.

٤ - الغزنويون:

توفي سُبُكْتِكين عام ٣٨٧ وخلفه ابنه الأصغر اسماعيل وكان ضعيفاً فاتصل قادة الجند بأخيه محمود وشجعوه على تسلّم الأمر، وهو الكبير، فتم له ذلك عام ٣٨٨.

كان محمود الغزنوي قوياً وهو أول تلقّب من الغزنويين بلقب سلطان، وكان يعرف من قبل بالأمير، ولقبه الخليفة العباسي القادر بيمين الدولة وأمين الملة.

قضى محمود الغزنوي على سلطان البويهيين في بلاد الجبل والري، وقبض على مجد الدولة به فخر الدولة وابنه أبي دلف.

ودخل بلاد قزوين وصلب عدداً كبيراً من أصحاب الباطنية، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلاسفة والمعتزلة والنجوم.

وحارب الأتراك الغز أصحاب أرسلان بن سلجوق، وكانوا يقطنون صحاري بخارى، وقبض على كبيرهم أرسلان ونفاه إلى بلاد الهند. وهرب قسم منهم إلى خراسان فتتبعهم وقد قويت شوكتهم هناك.

وسيطر على خراسان، وأنهى نفوذ السامانيين منها.

واستولى على سجستان من صاحبها خلف بن أحمد عام ٣٩٣ هـ.

وقاتل الغور وهم جماعة يقيمون في المناطق الجبلية بين هراة وغزنة، وكانوا لا يدينون بالإسلام، ويقطعون الطريق، ويخيفون الناس فأخضعهم لسلطانه وعمل على نشر الإسلام بينهم، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلّمونهم أصول الدين.

ولعل أكثر ما اشتهر به محمود الغزنوي إنما هي فتوحاته في بلاد الهند إذ أنه ضمّ أجزاء جديدة إلى بلاد الإسلام وعمل على نشر هذا الدين بينهم لأن

حروبه السابقة إنما كانت في بلاد الإسلام بأكثرها، بينما قتاله في بلاد الهند حملت صفة الجهاد، وقد زادت حملاته إلى بلاد الهند على اثنتي عشرة حملة بدأها عام ٣٩٢ إذ انتصر على ملك البنجاب (جيبال) وأسره، كما أسر أكثر من نصف مليون إنسان، ثم أطلق سراح الملك (جيبال) وكان من عادة الهنود أنه إذ وقع أحد منهم بالأسر وكان رئيساً ألا تعود له الرئاسة فيها بعد إذا تخلص من الأسر، فلما فدى (جيبال) نفسه عاد وحلق رأسه وألقى نفسه بالنار، وترك ملكه لابنه أنندبال، وقد قضى السلطان محمود على هذه العادات الجاهلية بنشر الإسلام في تلك الجهات.

وفي عام ٣٩٤ قصد إقليم (ملتان) جنوب البنجاب ودخله وعمل على نشر الإسلام هناك، وولّى على الإقليم أحد المسلمين وعهد إليه بتعليم الإسلام للأهالي.

وفي عام ٣٩٦ سار السلطان محمود إلى مدينة ملتان، وقد سار إليها عن طريق البنجاب ولما لم يسمح له ملك البنجاب أنندبال بن جيبال بالمرور عبر بلاده قاتله وانتصر عليه وتابع طريقه، ومن المعلوم أن الملتان كانت قد فتحت أيام محمد بن القاسم الثقفي عام ٩٢ هـ، وكان يحكمها أبو الفتوح داود ولكن يأخذ بمبدأ القرامطة فلما سمع بمسير السلطان محمود إليه فرّ إلى جزيرة سرنديب (سيلان) فقضى محمود على مقاومة أهلها وفرض عليهم الجزية بصفتهم يدعون مذهباً خاصاً.

وفي عام ٣٩٧ سار إلى ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد السلطان محمود ثم عاد فارتدّ وشق عصا الطاعة فحاربه وانتصر عليه وضم البنجاب إلى مملكته.

وجرّد حملة لقتال إيلك خان الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من السامانيين وبينما كان السلطان محمود مشغولاً في تلك الحملة إذ علم أن ملوك الهند قد شكّلوا حلفاً لقتاله فسار إليهم عام ٣٩٨ وعبر نهر السند وانتصر

عليهم انتصاراً رائعاً إذ غنم غنائم لا تحصى فانتثر عقد هذا الحلف وفقد ملوك الهند هيبتهم.

وعاد داود أبو الفتوح صاحب الملتان إلى بلده الملتان وعاد إلى مبدأ القرامطة فشنّ السلطان محمود عليه حملتان عام ٤٠٠ و٤٠١ ودخل إثرها الملتان، وأخذ داود أسيراً حيث نفاه إلى بلاد الغور وبقي في منفاه حتى مات.

وغزا الهند عام ٤٠٤ وهدّم صنم (سومنات) المشهور وغنم غنائم كثيرة.

وشنّ غزوات ثلاثاً على بلاد كشمير في سبيل ضمها إلى سلطانه ولكنه لم يوفق فيها رغم تعددها وهي على التوالي في السنوات ٤٠٤، و٤٠٥، ٤٠٦ هـ إذ فقد كثيراً من جنده، وقد ذهب أكثرهم غرقاً في فيضان الأنهار.

واشتغل عام ٤٠٧ بقتال خوارزم إذ كان مأمون شاه خوارزم قد تزوج أخت السلطان محمود، واعترف بسلطانه على بلاده غير أن بعض قواده قد قتلوه وأجلسوا ابنه مكانه فسار السلطان محمود إلى بلاد خوارزم، واستولى عليها، وعاقب الثوار القتلة، وولّى على خوارزم أميراً من قبله.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك نحو كشمير فأخضع حاكمها الذي أسلم على يديه، كما أسلم بعض راجات الهند عندما اقترب السلطان محمود الغزنوي من بلادهم إذ كان يتملكهم الخوف والفزع، وفي كل مكان يدخله كان يحطّم الأصنام التي كان بعضها مصنوعاً من الذهب.

ثم سار محمود الغزنوي نحو قنوج على نهر الغانج فهرب منها صاحبها، فهدم الأصنام واستولى على قلاعها.

وبدأ راجات الهند يجمعون أنفسهم، وانضم إليهم من سبق له وخضع لغزنة فسار إليهم السلطان محمود عام ٤٠٩ وفلّ جموعهم، ووطد الأمن في المناطق الجبلية التي كان بعض قطاع الطرق يعيثون الفساد فيها.

وفي عام ٤١٦ سار نحو الهند فقطع صحراء ثار، وتجمع أمراء كوجرات بعد فرارهم، وكانت آخر غزواته لبلاد الهند عام ٤١٨ التي أعد لها أسطولاً إذ

غدا لدولته منطقة ذات ساحل.

وعندما حضرت الوفاة السلطان محمود الغزنوي عام ٤٢١ أوصى من بعده لابنه محمد وهو الأصغر وكان نائباً له ببلخ، بينما ابنه الأكبر مسعود والذي كان ولياً لعهده من قبل قد أزال عنه العهد، وجاء محمد إلى غزنة وأخذ البيعة واشتغل باللهو فأساء ذلك بعض القادة فدعوا أخاه مسعوداً وبايعوه بعد أن قبضوا على محمد وبعد أن وقع خلاف بين الأخوين.

تولى مسعود الأمر عام ٤٢١، واستولى على مكران عام ٤٢٢، وأصبحت الدولة الغزنوية تضمّ أكثر أجزاء المشرق الإسلامي بل سار مسعود إلى خراسان لفتح العراق إلا أن استغلال نائبه في لاهور ذلك فرصة للوثوب على ما تحت يده قد حال دون ذلك وعاد مسعود إلى مقره في غزنة.

٥ ـ العبيديون:

تولى العزيز العبيدي عام ٣٨٦ وخلفه ابنه أبو علي منصور وتلقب باسم الحاكم بأمر الله، وكان صغير السن لا يزيد عمره على إحدى عشرة سنة إذ أنه ولد عام ٣٧٥، فكانت أمور الدولة بيد أبي الفتوح برجوان أحد خدام العزيز ومدبري دولته. وبعد أربعة سنوات من حكمه تسلّم الحاكم شيئاً من أمره فأظهر تعصباً شديداً للفكرة العبيدية.

كان الحاكم شيطاناً مريداً جباراً عنيداً كثير التلوّن، سفاكاً للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، جواداً ممدّحاً، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها. أمر بسبّ الصحابة رضي الله عنهم، وبكتابة ذلك على أبواب المساجد والشوارع، وأمر عماله بالسبّ، وبقتل الكلاب[1]. أبطل الفقاع والملوخية، وحرّم السمك الذي لا قشر له، حرّم بيع

(١) سير أعلام النبلاء.

الرطب، أمر النصارى بتعليق الصلبان في رقابهم، وألزم اليهود أن يعلقوا قرمية في رقابهم. هدم كنائس مصر، فأسلم عدد من أهل الكتاب، نهى عن تقبيل الأرض، وعن الدعاء له في الخطب، نفى المنجمين، منع النساء من الخروج من البيوت، ثم عاد فأمر بإعادة بناء الكنائس، ويتنصر من أسلم. أظهر التفقه، وطلب فقيهين يدرسان مذهب الإمام مالك ثم عاد فقتلهما صبراً.

وقد حبّب في الآخر إلى الحاكم العزلة، وبقي يركب وحده في الأسواق على حمار، ويقيم الحسبة بنفسه، وبين يديه عبد ضخم فاجر، فمن وجب عليه تأديب، أمر العبد أن يولج فيه، والمفعول به يصيح[1].

وأمر بحريق مصر، واستباحها، ثم بعث خادمه ليشاهد الحال، فلما رجع، قال: كيف رأيت؟ قال: لو استباحها طاغية الروم ما زاد على ما رأيت، فضرب عنقه.

وولي للحاكم عدة أمراء، ما كان يدع النائب يستقر حتى يعزله.

وأبطل الحاكم عمل المنجمين، وأعتق أكثر مماليكه، وجعل ولي عهده ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس.

ووصل إلى مصر عام ٤٠٥ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني[2] ويبدو أنه دخل في خدمة الحاكم الخصوصيين ثم أصبح من دعاة الاسماعيليين الذين انتشروا في مصر بشكل واسع، وجهر بالدعوة إلى ألوهية الحاكم عام ٤٠٨ فثار الناس عليه فاختفى في قصر الحاكم أو خارجه مدة سنة ثم هرب إلى وادي التيم في لبنان حيث تقيم بطون من تنوخ وتدين بالولاء للعبيديين.

ثم ظهر الحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف باسم الأخرم عام ٤٠٩ وقال بألوهية الحاكم أيضاً، ولكنه لم يلبث أن قُتل، وكذلك ظهر محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) وهو أول من كشف عن فكرة ألوهية الحاكم والدعوة إليها

(١) سير أعلام النبلاء عن تاريخ ابن إياس ١/٥٣.
(٢) ولد حمزة بن علي في بلدة ((زوزن)) من أعمال خراسان.

وذلك عام ٤٠٧ وهو العام الذي وصل فيه إلى مصر، ويبدو أن قتل بمجرد أن قال بذلك، ومنهم من يقول: إنه اختفى في القصر حتى هدأ الجند ثم فرّ إلى بلاد الشام حيث استقر في إحدى قرى بانياس جنوب وادي التيم ونافس حمزة ابن علي فكان سبباً في قتله عام ٤١١ هـ.

طلب أمير مكة أبو الفتوح الخلافة وتسمّى بالراشد بالله، ولحق بآل جرّاح الطائيين بالشام، ومعه أقاربه، ونحو من ألف عبد، وحكم بالرملة، فانزعج العزيز بمصر وتلطّف بالطائيين، وبذل لهم الأموال، وكتب بإمرة الحرمين لابن عم الراشد، فوهن أمر الراشد، فأجاره أبو حسان الطائي، وتلطّف له حتى عاد إلى إمرة مكة.

وظهر أبو ركوة الأموي[1]، والتف حوله عدد من الأتباع، فحارب الحاكم ولعنه، فجهز الحاكم له جيشاً مؤلفاً من ستة عشر ألفاً تمكنوا من القبض عليه وقتله في أرض خروجه وهي منطقة برقة.

وقُتل الحاكم بأمر الله عام ٤١١ بالاتفاق بين أخته ست الملك والأمير ابن دوّاس، وذلك بسبب ما أساء إلى أخته إذ اتهمها بالزنى، وإلى الناس بتصرفاته، وكان قتله سراً.

وأما عبد الرحيم بن إلياس العبيدي، فإن الحاكم قد ولاه عهده، ثم بعثه على نيابة دمشق سنة ٤١٠ فانصرف إلى اللهو فاضطرب الجند، فلما مات الحاكم قبض الأمراء عليه وسجنوه ثم قتلوه. لذا فإن ست الملك قد أخرجت ابن أخيها الحاكم وهو علي، أبو الحسن، الظاهر لإعزاز دين الله، وتوّجته، وبقيت تشرف عليه حتى توفيت عام ٤١٥، وكان ابن دوّاس يدبر أمر الدولة.

أما إفريقية فكانت تتبع العبيديين إسمياً، وقد توفي المنصور بن يوسف بلكين عام ٣٨٦ وكان كريماً شجاعاً حازماً حسن السيرة محباً للعدل والرعية، وخلفه ابنه باديس ويكنى أبا مناد، وقد عيّن عمه حمّاد بن يوسف بلكين على

(١) أبو ركوة: هو الوليد بن هشام العثماني الأندلسي.

منطقة (أشير) وأقطعه إياها، وهو جد بني حماد، ثم أضاف إليه الجزء الغربي من الدولة عندما وجد باديس صعوبة في ضبط أمور الدولة الواسعة، وبذا تأسست الدولة الحمادية في أشير الواقعة على نهر الشليف جنوب مدينة الجزائر الحالية بمائة وعشرة كيلومترات.

اختلف باديس مع عمه حماد وأدى هذا الاختلاف إلى قتال بين الطرفين عام ٤٠٦، وأعطى باديس ولاية العهد لابنه منصور، وتوفي باديس وبايع أمراء الجند كرامة بن المنصور الذي سار إلى حماد واقتتل معه وهزمه، وعندما رجع إلى المنصورية وجد أن الناس قد بايعوا المعز بن باديس وهو صغير لا يتجاوز الثامنة من العمر إلا قليلاً فدخل مع الجماعة وبايع، وأرسل الحاكم العبيدي موافقته على تعيين المعز وأعطاه لقب شرف الدولة. وسار المعز لقتال حماد وانتصر عليه ثم تصالحا. وجاء من الأندلس زاوي بن زيري بن مناد وكان قد انتقل إليها مع إخوته لخلاف وقع بينهم وبين أخيهم حماد، وقد جاهدوا هناك النصارى.

وفي عام ٤٠٧ قتلت الشيعة على أيدي الناس لأنهم كانوا يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان المعز يدافع عن السنة، وهو الذي نشر مذهب الإمام مالك، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة هو السائد من قبل.

٦ - الأمويون:

سيّر محمد بن أبي عامر جيشاً إلى بلاد النصارى فنال منهم وغنم المسلمون كثيراً، وأسروا أحد ملوك النصارى. وتوفي محمد بن أبي عامر عام ٣٩٣، فحدث خلاف بين أمراء البيت الأموي فملك سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وأعيد هشام المؤيد إلى الخلافة ثانية عامة ٤٠٠، ثم عاد الحكم لسليمان ثانية عام ٤٠٣ هـ.

كان علي بن حمود الادريسي الحسني في مدينة (سبتة) في بلاد المغرب،

وكان أخوه القاسم بن حمود يحكم الجزيرة الخضراء في الأندلس، وكانا من أنصار سليمان بن الحكم.

كان خيران العامري من أنصار هشام المؤيد وخالف سليمان وقاتله، واضطر أخيراً أن يفرّ من قرطبة، فسار إلى (المرية)، وكان في (مالقة) عامر بن فتوح وزير هشام المؤيد فراسل علي بن حمود الذي كان يطمع في السلطة فأجابه، وهكذا أصبح جنوبي الأندلس مخاصماً لسليمان إذ أن أمير غرناطة وقف بجانب المعارضين أيضاً، وسار الجميع نحو قرطبة وقاتلوا سليمان وهزموا جنده، وأسروه، ودخل علي بن حمود قرطبة وبايعه الناس خليفة على أساس أن هشام المؤيد قد قتل وقد جاءوا باسمه، ولُقّب علي بن حمود بالمتوكل على الله، ولم يلبث أن خالفه خيران العامري وخرج من قرطبة.

بايع خيران العامري أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولُقّب بالمرتضى، وخرج علي بن حمود من قرطبة، ودخلها المرتضى لكنه قتل عندما سار إلى الجنوب لحرب زاوي بن زيري بن مناد.

سار علي بن حمود إلى (جيان) غير أنه قتل وتولى مكانه أخوه القاسم بن حمود، وهو أكبر منه، وبقي في قرطبة حتى عام ٤١٢ يحكمها.

خالف القاسم ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود، وعندما خرج القاسم من قرطبة متجهاً نحو اشبيلية أسرع يحيى من مالقة، ودخل قرطبة، وأخذ البيعة من أهلها، ولُقّب بالمعتلي وأصبح في الأندلس خليفتان يحيى بن علي بن حمود في قرطبة والقاسم بن حمود في اشبيلية.

خرج يحيى بن علي إلى مالقة فأسرع عمه القاسم ودخل قرطبة وأخذ البيعة من أهلها لنفسه، غير أن أمر ابن أخيه يحيى بن علي قد قوي في الجنوب كما قوي أمر أخيه ادريس فطمع أهل قرطبة بخليفتهم فعمت الفوضى وساد النهب

واضطر القاسم أن يغادر قرطبة واتجه نحو اشبيلية فلم يقبله أهلها بل ولوا أمرهم ابن عباد.

وقع القاسم بن حمود أسيراً بيد ابن أخيه يحيى الذي سجنه وبقي في سجنه حتى مات عام ٤٣١، وعندما توفي يحيى بن علي خلفه أخوه ادريس بن علي، أما قرطبة فقد تولى أمرها أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وبايعته خليفة عام ٤١٤ ولقب بالمستظهر بالله، ولكن لم تلبث قرطبة أن ثارت على خليفتها وقتله أهلها، وبايعوا مكانه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر عام ٤١٤ ولقبوه بالمستكفي، وبعد مدة ثاروا عليه فخرج من مدينتهم واتجه نحو مدينة سالم، ولم يلبث أن مات مسموماً على ما يبدو. وكاتب أهل قرطبة يحيى ابن علي بن حمود في مالقة ليتولى أمرهم فأرسل إليهم نائباً عنه فأخذ البيعة له عام ٤١٦ ثم ثار عليه الناس خوفاً من هجوم العامري على مدينتهم. وقتل يحيى ابن علي بهجوم على مدينة اشبيلية فبويع في مالقة مكانه أخوه ادريس بن علي ولقب بالمتأيد وبقي حتى عام ٤٣١ هـ.

اجتمع وجوه قرطبة وعلى رأسهم جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم وبايعوا أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المعتد بالله، ثم خلع وبويع أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وخرج أبو بكر هشام من قرطبة ثم قتل غدراً، أما أمية فقد اختفى بعد أن طلب منه القرطبيون مغادرة مدينتهم مع المعتد.

استقل بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، وفي اشبيلية ابن عباد، وكان في كل مدينة ملك وسلطان.

٧ - اليمن:

انتهت دولة بني زياد في زبيد عام ٤٠٢ بعد موت الحسين بن سلامة الذي

تولى أمر بني زياد وهو أحد مواليهم حيث لم يبق من بني زياد من يصلح للحكم سوى طفل صغير اسمه أبو الجيش بن اسحاق، وكان الحسين بن سلامة حازماً فاضلاً حسن الإدارة، وقد بعث دولة بني زياد من جديد، وخضعت له أكثر اليمن وأجزاء من الحجاز، وعندما مات تمزقت دولته وتغلب بنو نجاح على تهامة، وبنو يعفر على صنعاء، وغيرهم على بقية مدن اليمن وأقاليمها.

وعندما مات الحسين بن سلامة قام بأمر الدولة نجاح مولى بني زياد، وأعلن نفسه سلطاناً على تهامة، وراسل الخليفة العباسي القادر بالله معلناً له الطاعة والولاء، واستمر نجاح في الحكم حتى عام ٤٥٢ هـ.

وأما دولة بني يعفر فقد تولى أميرها عبد الله بن محمد بن قحطان عام ٣٨٧ وقام بعده ابنه أسعد وبقي حتى عام ٣٩٣ حيث دخل في طاعة الإمام القاسم ابن علي العياني في (عيان).

وخلف الإمام القاسم بن علي العياني الملقب بالمنصور ابنه الحسين بن القاسم والملقب بالمهدي وذلك عام ٣٩٣، وبقي الحسين حتى عام ٤٠٣ حيث قتل في معركة مع آل الضحاك في ريدة. أما صعدة فكان فيها الإمام الداعي يوسف، وبقي أيضاً حتى عام ٤٠٣.

-٢٦-

القائم بأمر الله
عبد الله بن أحمد القادر
٤٢٢ - ٤٦٧

هو عبد الله بن أحمد القادر، أبو جعفر، ولد عام ٣٩١ من أم ولد أرمنية اسمها بدر الدجى وقيل: قطر الندى، ولي أمر الخلافة عام ٤٢٢ فكان عمره إحدى وثلاثين سنة بعهد من أبيه، وأبوه هو الذي لقبه القائم بأمر الله.

كان جميلاً، مليح الوجه، أبيض مشرباً بحمرة، حسن الجسم، ورعاً، ديناً، زاهداً، عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصدقة والصبر، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً العدل والإحسان وقضاء الحوائج، لا يرى المنع من شيء طلب منه.

كان أبو الحارث أرسلان التركي البساسيري أحد موالي بني بويه قد طغا حتى خافه الناس جميعاً، وثبت للخليفة أن البساسيري سيء العقيدة، وأن عنده رغبة في القبض على الخليفة وإلغاء الخلافة العباسية فما كان من الخليفة إلا أن راسل طغرل بك أبا طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق سلطان الأتراك الغز وهو بالري يستنهضه للقدوم إليه، ثم أحرقت دار البساسيري، وقدم طغرل بك الى بغداد واستأذن الخليفة بدخولها فأذن له فدخلها عام ٤٤٧ وكانت قد وقعت وحشة بين الخليفة والبساسيري، فترك البساسيري بغداد ولم يدخلها مع الملك الرحيم الذي جاء من واسط وطلب الخليفة منه أن يخضع لطغرل بك واتجه البساسيري إلى الرحبة، ومنعت بدعة «حي على خير العمل» في الأذان، وعقد الخليفة على خديجة بنت داود أخي طغرل بك، وقد تمكن البساسيري من أخذ الموصل.

راسل البساسيري صاحب مصر المستنصر العبيدي، وطلب منه أن يبايعه ويدعو له، وأن يمده هو بالجند والأموال وأن يأتي إليه ليبايعه ويدخل بغداد باسمه غير أن المستنصر لم يكن يثق كلياً بالبساسيري لذا فقد اكتفى بمده بالجند من الشام وبالمال ولكنه لم يأت إليه. وفي الوقت نفسه فقد تمكن البساسيري من الايقاع بين طغرل بك وبين أخيه لأمه ابراهيم ينال إذ أطمع ابراهيم بمنصب أخيه، واشتغل طغرل بك بقتال أخيه فاستغل البساسيري هذا القتال واتجه إلى بغداد ودخلها عام ٤٥٠ ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بين الطرفين، وخطب في بغداد للمستنصر العبيدي باستثناء جامع الخليفة.

قبض البساسيري على الخليفة، وأرسله الى حديثة عانة[1] حيث سجن هناك، وروي أنه كتب قصته وهو بالسجن وأنفذها إلى مكة، فعلقت في الكعبة وفيها: إلى الله العظيم من المسكين عبده، اللهم إنك العالم بالسرائر، المطلع على الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك، واطلاعك على خلقك، عن إعلامي، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها، وألغى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك حتى تعدى علينا بغياً، وأساء إلينا عُتُوّاً وعدواً. اللهم قلّ الناصر، واعتز الظالم، وأنت المطلع العالم، المنصف الحاكم، بك نعتز عليه، وإليك نهرب من بين يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك، وقد حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك، ووثقنا في كشفها بكرمك، فاحكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين[2]. كما قتل البساسيري وزير الخليفة وهو ابن مسلمة الذي كان يكره البويهيين لتشيعهم وصلتهم بالعبيديين في مصر.

---

(1) عانة: مدينة بالعراق، على نهر الفرات، إلى الشرق من الحدود السورية وعلى بعد ٩٠ كيلومتراً منها، والحديثة مدينة على نهر الفرات أيضاً إلى الجنوب الشرقي من عانة على بعد ٥٠ كيلومتراً منها.

(2) تاريخ الخلفاء، والشاهد هنا إذ أن مكة كانت تحت حكم العبيديين، ولا يمكن للخليفة القائم بأمر الله أن يتضرع لله سبحانه وتعالى بصيغة الجمع، ويدعوه بصيغة المفرد.

ظفر طغرل بك بأخيه ابراهيم وقتله، وتفرغ لأمر البساسيري فعاد إلى بغداد ودخلها عام ٤٥١، ولم ينفرد فيها البساسيري بأكثر من سنة، وظفر بالبساسيري وقتله، ورجع الخليفة إلى داره، ولم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه، ولزم الصيام والقيام، وعفا عن كل من آذاه، ولم يسترد شيئاً مما نهب من قصره إلا بالثمن، وقال: هذه أشياء احتسبناها عند الله، ولم يضع رأسه على مخدة[1].

وزوّج الخليفة ابنته لطغرل بك عام ٤٥٤ وزفّت إليه ٤٥٥، وضمن بغداد ورجع إلى الري فمات بها في رمضان عام ٤٥٥ وعمره آنذاك سبعون سنة، كان حليماً، كثير الاحتمال، شديد الكتمان للسر، محافظاً على الصلوات، وعلى صوم الاثنين والخميس، وعلى لبس البياض، ولم يكن له ولد، فبايع من بعده لابن أخيه سليمان بن داود، غير أن ابن أخيه ألب أرسلان قد تغلّب على أخيه سليمان وتسلّم الحكم ولقب بعضد الدولة وبقي حتى قتل عام ٤٦٥.

توفي الخليفة القائم بأمر الله عام ٤٦٧ وخلفه حفيده.

---

(1) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ - البويهيون:

زاد ضعف البويهيين وزادت خلافاتهم فيما بينهم وهذا ما قوّى السلاجقة وضاعف من قوتهم. اختلف الجند مع جلال الدولة البويهي عام ٤٢٣ فخرج من بغداد ودخلها أبو كاليجار البويهي فولى حماية الجانب الشرقي من بغداد إلى أحد القادة الأتراك وهو أبو الحارث أرسلان البساسيري عام ٤٢٥ غير أن جلال الدولة قد جمع جموعاً كثيرة واستمال إليه البساسيري وتمكّن من العودة إلى بغداد وجرى صلح بين أبي كاليجار وجلال الدولة، وتزوّج أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة جلال الدولة، ولكن لم يلبث الخلاف أن عاد بين الطرفين، واستطاع أبوكاليجار أن يعود إلى بغداد عام ٤٣٦ بعد وفاة جلال الدولة عام ٤٣٥، وعندما عاد أبو كاليجار إلى بغداد أرسل طغرل بك السلجوقي أخاه لأمه ابراهيم ينال إلى بلاد الجبل فدخلها، ثم تصالح أبو كاليجار مع طغرل بك، وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار، وتزوج أبو منصور بن أبي كاليجار ابنة داود أخي طغرك بك.

توفي أبو كاليجار عام ٤٤٠ وتولى بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وتسمى الملك الرحيم. ولم تكن الصلة حسنة بين الخليفة والبويهيين في أواخر أيامهم، فمنذ أيام أبي كاليجار بدأ البويهيون يتقربون من العبيديين حكام مصر بسبب العقيدة التي تجمع بينهم قبل كل شيء ثم إنهم قد اتخذوا هذا التقارب وسيلةً أو

سلاحاً للضغط على الخلفاء العباسيين. وبدأ أبو كاليجار يقرأ كتب الاسماعيلية، ويحضر دروس هبة الله الشيرازي داعي العبيديين في فارس، وقد سمح له البويهيون بالنشاط في مناطق نفوذهم بل إنهم قد دعموه ثم دعوه إلى العراق فقام بنشاط ملحوظ، وبلغ من نشاطه أن خطب في شيراز إلى المستنصر العبيدي.

طلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله من أبي كاليجار تسليم هبة الله الشيرازي وهدده بدعوة السلاجقة إلى بغداد غير أن أبا كاليجار لم يُنه هذا الموضوع.

ووقع الخلاف بين الملك الرحيم وإخوته وكان الصراع على الأهواز وفارس، وهذا ما زاد في إضعاف أمرهم وبدلاً من أن يقفوا جبهة واحدة لرد السلاجقة كانوا متفرقين وهذا ما شجع خصومهم على الهجوم على أملاكهم وما تحت أيديهم.

وعندما اتجه طغرل بك نحو بغداد عام ٤٤٧، اتجه أيضاً الملك الرحيم إليها، وكان في واسط، وفارقه البساسيري سائراً إلى الرحبة، ولما وصل الملك الرحيم إلى بغداد أظهر له الخليفة خيانة البساسيري، وأن الخليفة له على الملك الرحيم الطاعة والنصح، وطلب منه أن يقبل الخضوع لطغرل بك، وبذا انتهى نفوذ البويهيين وزال سلطانهم.

٢ - السلاجقة:

في الوقت الذي كان يضعف فيه أمر البويهيين كانت قوة السلاجقة في ازدياد، فقد استولى محمد طغرل بك على نيسابور، وأرسل أخاه جعفر بك داود إلى خراسان فدخلها، وانتقل طغرل بك إلى جرجان وطبرستان فضمهما إلى أملاكه. ثم اتجه إلى اصبهان فحاصرها مدة سنة وتمكن من دخولها عام ٤٤٣، وأسر بعض ملوك الروم فراسله امبراطور القسطنطينية في مفاداة الملك

فشرط عليه عمارة مسجد في القسطنطينية وتم ذلك. وترك طغرل بك الري، وانتقل إلى أصبهان فجعلها قاعدته.

غزا طغرل بك بلاد الروم، وغنم كثيراً، وخُطب له في الموصل والأنبار عام ٤٤٦، ثم دخل بغداد في العام التالي وقضى على نفوذ بني بويه فيها. وتوطدت أواصر الصلة بين الخليفة والسلاجقة إذ عقد الخليفة العباسي القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي طغرل بك عام ٤٤٨. ثم اضطر طغرل بك إلى مغادرة بغداد للخلاف الذي حصل بينه وبين أخيه لأمه ابراهيم ينال، وبخروجه من بغداد دخلها البساسيري عام ٤٥٠ غير أن طغرل بك تمكن من القضاء على أخيه فرجع إلى بغداد عام ٤٥١ وقتل البساسيري واستقر له الأمر، وعقد على ابنة الخليفة ثم توفي عام ٤٥٥، ولم يكن له أولاد فخلفه ابن أخيه سليمان بمساعدة وزير طغرل بك عميد الملك منصور بن محمد أبي منصور الكندري إلا أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلمش قد ثارا عليه وانتصرا، وتسلم السلطنة ألب أرسلان، وقتل عميد الملك الكندري عام ٤٥٧.

وفي عام ٤٦٢ أقبل ملك الروم أرمانوس بجموع لا حصر لها وعلى رأسهم البطارقة وينوي بهذه الحشود الكبيرة أن يقضي على الإسلام وأهله حتى أنه لفرط أمله قد أقطع البطارقة مناطق العراق، وتلقاه ألب أرسلان عام ٤٦٣ في عشرين ألف مقاتل فقط فدارت معركة بين الطرفين انتصر فيها ألب أرسلان رغم قلة جنده وأسر ملك الروم أرمانوس نفسه، وعرفت هذه المعركة باسم معركة ملاذكرت، ثم عفا ألب أرسلان عن أرمانوس وأطلق سراحه فعندما رجع إلى بلاده وجد أن الروم قد ملكوا عليهم غيره، وتوفي ألب ارسلان عام ٤٦٥ قتيلاً وخلفه ابنه ملكشاه.

٣ - الغزنويون:

سار مسعود إلى بلاد الهند وفتح قلعة سرستي الجبلية جنوبي كشمير، وحاول أبوه من قبل فتحها فلم يوفق، وانتصر على واليه الذي خلع الطاعة

وأجبره إلى الفرار، ثم عاد إلى غزو الهند بعد عام، وولى ابنه مجدوداً على بلاد البنجاب ولما أمّن وضع تلك الجهة اتجه ثانية إلى خراسان فأجلى عنها الأتراك الغز عام ٤٣١، وقاتل السلاجقة الذين قوي أمرهم وانتصر عليهم، غير أنهم عادوا فانتصروا عليه واستولوا على معظم خراسان عام ٤٢٩، ومسعود مشغول بالهند، فرجع إلى غزنه ثم انطلق نحو السلاجقة فانتصر عام ٤٣٠ على طغرل بك وطرده من خراسان غير أن مسعوداً قد هُزم ثانية عام ٤٣١ وكاد أن يقع في الأسر. أتعب مسعود جنده في الانتقال من الجبهة الشمالية الغربية إلى الجبهة الجنوبية الشرقية فملّوه وثار عليه مواليه وقتلوه، ونادوا بأخيه محمد أميراً عليهم وكان مسمول العينين، فعاد محمد إلى غزنة وأرسل إلى ابن أخيه مودود بن مسعود يعزّيه بوالده ويتنصّل من جريمة القتل هذه، غير أن مودوداً قد ترك خراسان واتجه إلى غزنة وحارب عمه محمداً وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل عمه وأولاده جميعاً باستثناء عبد الرحيم الذي كان غاضباً لقتل عمه، كما قتل كل من له ضلع في عملية القتل، وتسلّم الأمر عام ٤٣٢.

خلع مجدود والي البنجاب من قبل أبيه طاعة أخيه مودود وسار نحو غزنة غير أنه توفي قبل أن يصل إليها. وتمكّن مودود من الانتصار على ملوك الهند الذين تحالفوا ضده وأعاد للغزنويين هيبتهم في بلاد الهند، وحرص على قتال السلاجقة، ووافته المنية عام ٤٤١، وتولّى مكانه ابنه مسعود الثاني غير أن عمه أبا الحسن علي بن مسعود الأول قد نازعه الحكم واستلم الأمر منه بعد خمسة أيام من توليه الأمر، ولم يلبث أن قام أيضاً عبد الرشيد بن محمود الغزنوي ودعا لنفسه وسار نحو غزنة ففر منها أبو الحسن علي بن مسعود الأول فدخلها عبد الرشيد واستقر له الأمر عام ٤٤١، وقد حاول طرد السلاجقة من خراسان غير أن قائده لهذه المهمة قد عاد إلى غزنة وقبض على عبد الرشيد وقتله عام ٤٤٤ غير أن القادة الآخرين قد غضبوا من هذا الفعل وقبضوا على هذا القائد وقتلوه وولوا عليهم أحدهم وهو فروخ زاد الذي حاول قتال

السلاجقة ولكنه توفي عام ٤٥١ وخلفه ابراهيم بن مسعود الذي دام حكمه حتى عام ٤٩١ ، وفتح كثيراً من قلاع الهند ، وتصالح مع السلاجقة.

٤ ـ العبيديون:

توفي الخليفة العبيدي أبو الحسن علي الظاهر[1] عام ٤٢٨ ، وخلفه ابنه أبو تميم محمد[2] الذي تلقّب بالمستنصر ، وكان صغير السن لم يزد عمره على الثامنة ، وامتد نفوذه إلى بلاد الشام والحجاز وشمالي إفريقية ، إلا أن المعز بن باديس واليه في إفريقية قد قطع الخطبة له وخطب للعباسيين عام ٤٣٥ ، فما كان من المستنصر إلا أن شجع قبائل بني هلال التي نزلت الصعيد وأضرت فيه أن تتحرك نحو الغرب فوصلت إلى بلاد المعز بن باديس وعاثت فيه الفساد ، وانتصرت على جنده ، ودخلت مدينة القيروان وخربتها عام ٤٤٣ ، ولم يبق للمعز سوى المهدية وما حولها ولكن لم يلبث بعد مدة أن قوي أمره.

تمكّن المستنصر أن يدخل مدينة حلب في بلاد الشام عام ٤٤١ بعد أن أجلى عنها صاحبها ثمال بن صالح بن مرداس. وبعد ذلك بدأت الدولة العبيدية تتقلص إذ ظهرت دولة المرابطين في المغرب عام ٤٤٨ ، وبدأت تتوسع ، وزال نفوذ العبيديين عن الحجاز عام ٤٦٢ ، ودعي للعباسيين على المنابر ، كما زال أثر العبيديين عن حلب عام ٤٦٣.

كانت علاقة العبيديين حسنة مع الروم أيام المستنصر إذ عقد صلح بين الطرفين أيام الأمبراطور ميخائيل الرابع ، كذلك جرى اتفاق عام ٤٤٦ أيام الامبراطور قسطنطين التاسع الذي تعهد بأن يمدّ مصر بالغلال غير أن

---

(١) ولد أبو الحسن علي الظاهر عام ٣٩٥ في شهر رمضان ، وتولى أمر العبيديين عام ٤١١ بعد وفاة أبيه الحاكم بأمر الله ، وأشرفت عليه عمته ست الملك حتى توفيت عام ٤١٥ ، وكان سمحاً عاقلاً ، لين العريكة ، يعطف كثيراً على أهل الذمة.

(٢) ولد أبو تميم محمد المستنصر عام ٤٢٠.

قسطنطين هذا قد توفي وخلفته الامبراطورة تيودورا فلم توافق على الصلح إلا بشروط أهمها أن يتعهد العبيديون بمساعدة الامبراطورة إذا ما اعتدي عليها فلم يقبل الخليفة العبيدي المستنصر الأمر الذي أدى إلى حدوث قتال بين الجانبين انتصر فيه العبيديون في القتال البري بينما هزموا في القتال البحري وهذا ما دفع المستنصر إلى عقد هدنة تمت عام ٤٤٧.

٥ ـ الأندلس:

تفرقت كلمة المسلمين في الأندلس ، وأصبح في كل مدينة ملك ولعل أهم هؤلاء الملوك هم: بنو جهور في قرطبة بعد بني حمود ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو الأفطس في بطليوس ، وبنو هود في سرقسطة ، وبنو أبي عامر في بلنسية ، ومجاهد العامري في دانية.

٦ ـ اليمن:

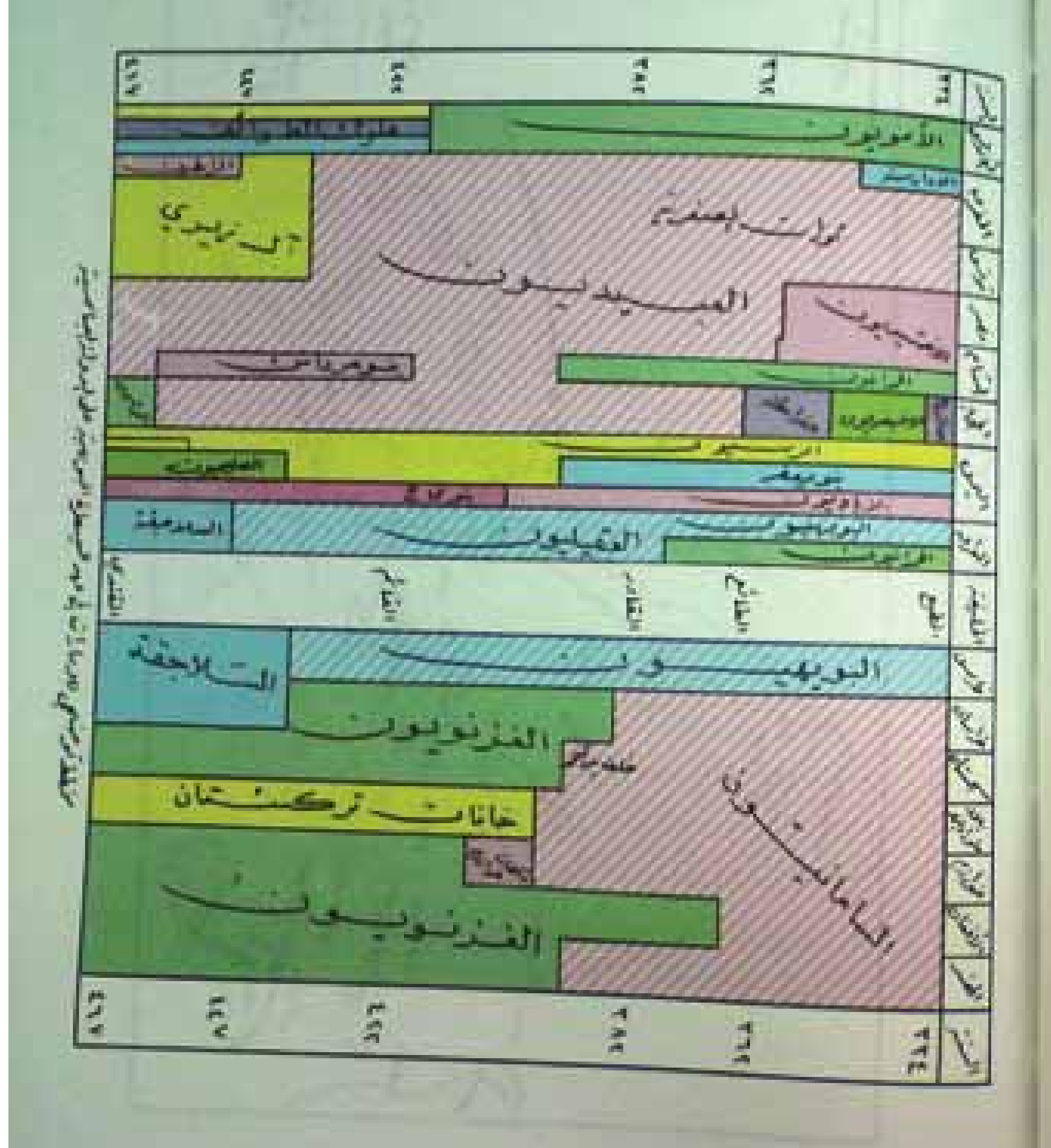
كانت دولة بني نجاح في تهامة ، وقد توفي مؤسسها الأمير نجاح عام ٤٥٢ فخلفه ابنه سعيد بن نجاح المعروف بالأحول ، وقد استمر حتى عام ٤٨١ ، وقد أغار وهو في طريقه إلى مكة عام ٤٦٨ على علي بن محمد الصليحي وقتله.

أما الصليحيون فقد قامت دعوتهم الاسماعيلية عام ٤٣٩ إذ أظهرها علي بن محمد الصليحي بعد أن تحصّن بجبل مسار بناحية حراز ، وكانت قد انقطعت بعد الخلاف على بن الفضل وابن حوشب ، إذ سيطر الأول على المنطقة وأعلن كفره الصريح حتى مات مسموماً عام ٣٠٣ على حين اعتزل ابن حوشب في مغارب اليمن ، وتبعه ابنه جعفر ، ثم ابن أبي الفضل حتى كان سليمان بن عبد الله الزواحي الذي أوصى بتعبده على الصليحي أن يكون خليفته

أظهر الصليحي الدين ، وعمل على توحيد كلمة اليمنيين فأطاعته القبائل المحيطة بحراز ، وشكل قوة انتصر على عدد من الزعماء ، ودخل صنعاء وأخرج منها بني يعفر ، كما احتل زبيد بعد أن سقى الأمير نجاح سماً ، ووصل إلى عدن

ودانت له سائر بلاد اليمن. ثم ثار عليه من أيده بالأمس وهم رؤساء همدان عام ٤٤٨، ودعا الصليحي للمستنصر العبيدي فولاه أمر مكة. وفي عام ٤٥٨ اتجه نحو مكة ويريد الموسم وبعدها زيارة المستنصر فأغار عليه سعيد بن نجاح في تهامة وقتله. وقام مقامه ابنه المكرم فاستطاع قتال بني نجاح والانتصار عليهم، وإطلاق سراح من كان أسيراً من الصليحيين وذلك عام ٤٦٠ ومن هؤلاء الأسرى أمه أسماء بنت شهاب على حين نجا سعيد الأحول من المعركة وفر إلى جزر دهلك. واستمر المكرم في حكمه حتى عام ٤٨٢.

وضعف أمر بني رسّ فبعد موت الداعي يوسف ٤٠٣ وموت المهدي الحسين بن القاسم في العام نفسه، وقد كانا إمامين في وقت واحد، انقطعت دولتهم حتى عام ٤٢٦ أي مدة ثلاث وعشرين سنة إذ قام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن، واستمر أمره حتى عام ٤٣١، ثم انقطعت الدولة ثانية مدة ست سنوات أخرى حيث قام أبو الفتح الديلمي عام ٤٣٧ ثم قتل عام ٤٤٤ في معركة (فيد) في أثناء حروبه مع علي بن محمد الصليحي، وتوقف أمر الأئمة ما يقرب من مائة سنة بعد ذلك.





الفصل الثالث

عصر سيطرة السلاجقة

امتدت هذه المرحلة من عام ٤٤٧ يوم دخل طغرل بك السلجوقي بغداد إلى عام ٦٥٦ يوم سقطت بغداد بيد هولاكو المغولي الذي قضى على الخلافة العباسية، وتمتد هذه المرحلة على تسع ومائتي سنة تعاقب عليها اثنا عشر خليفة تفاوتت مدة خلافتهم بين سبع وأربعين سنةً وهي مدة الخليفة الناصر وبين سنة واحدة وهي خلافة كل من الراشد والظاهر.

كان خلفاء هذه المرحلة على درجة من العدل والتقوى والإحسان والعطف على الناس، وقد أحبتهم الرعية حباً كبيراً حتى ليعمّ الحزن البلاد عندما يتوفى أحد الخلفاء، ولما قُتل المسترشد ظهر التأثر واضحاً على الرعية وكذا الحال عندم قُتل الراشد، ولم يقتل من هؤلاء الخلفاء جميعهم سوى المسترشد وابنه الراشد... أما قتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد فقد كان على أيدي المغول الأعداء، فكأنما هو استشهاد. وقد عاش الخليفة الأول من هذه المرحلة وهو القائم مدة عشرين سنة ٤٤٧ ـ ٤٦٧ وهو الذي استنهض همة طغرل بك السلجوقي لدخول بغداد، وبه بدأت هذه المرحلة وإن كان قد تولى الخلافة في المرحلة السابقة مدة خمس وعشرين سنة أيضاً.

ولم يكن السلاجقة ـ وهم القوة المسيطرة على الخلافة ـ يتصرّفون مع الخليفة ذلك التصرّف السيء الذي كان يقوم به من سبقهم سواء من القادة الأتراك أم من البويهيين، فالقادة الأتراك كانوا عسكريين جهلةً ومختلفين فيما بينهم فإذا ظنّ أحدهم أن الخليفة مال لآخر سعى إلى قتله بصورةٍ من الصور أو إلى سمل

عيبه وإهانته، وكان البويهيون من الشيعة الحاقدين على الخلفاء أولاً وعلى الفكر الإسلامي الصافي ثانياً، إذ أن التشيع بدأت توضع له في تلك المرحلة أسسه ومبادئه التي فيها بُعد عن الإسلام والتي حرص واضعوها على سحبها على الأوقات السابقة فنسبوا لبعض آل البيت ما لم يقولوه ولم يسمعوا به بل لم يفكروا به وليس التشيع هو محبة آل البيت عامة وعلي وأبنائه رضي الله عنهم خاصة كما يتصور بعض عامة المسلمين بل بعض عامة الشيعة لأنه هذا ما وصل إليهم وما تناقلوه وما رووه لهم ساداتهم هذا بالنسبة إلى الشيعة أما بالنسبة إلى المسلمين فهذا ما يظنونه أو يسمعوه حسب ما تناقلته كتب التاريخ التي للشيعة دور في وضعها وتأريخها وإنما أصبح فكر خاص له منهجه وسلوكه، بل عقيدة خاصة تختلف عن صفاء الإسلام بادعاء العصمة للأئمة ومعرفتهم ما لم يعرف غيرهم، لذا فإن تصرف البويهيين مع الخلفاء لم يكن تصرف التابع، أو تصرف التابع للخليفة الحريص على هيبة الحكم والنظام وما يقتضي به الشرع بالنسبة إلى معاملة الخليفة الشرعي. وإن سلوك السلاجقة مع الخلفاء الطيب نسبياً قد أعاد للخليفة هيبته أو مكانته وإن كان بصورة نسبية أيضاً أي يختلف الأمر عما كانت عليه مكانة الخليفة أيام البويهيين ومن سبقهم من المتأمرين بالسلطة المستبدين بالأمر لما يتبع لهم من جند وعسكر، وإن كان هذا غير معروف للناس لأن تاريخنا يضرب صفحاً عن الخلفاء الأواخر بسبب الضعف الذي اعترى الدولة العباسية وخلفاءها بل قلّ من يعرف الخلفاء بعد المتوكل على الله، فهذه المدة الطويلة من الضعف والتي زادت على مائتي سنة (٢٤٧ - ٤٤٧) قد طغت على ما بعدها، وخاصة أن هذه المرحلة التي نتكلم عنها والتي جاءت بعدها لم يحدث فيها تغيير جذري كتبديل البيت الحاكم أو انتهاء السيطرة الكاملة عن الخلفاء، ويزيد الأمر من حجب هؤلاء الخلفاء ظهور دول قوية برزت في المنطقة وكان لها دورها في صراع النصارى سواء في الأندلس مثل دولة المرابطين ودولة الموحدين أم في المشرق مثل إمارة آل

زنكي ودولة الأيوبيين اللتين انصرفتا إلى قتال الصليبيين بل وسحق العبيديين، وإن كانت بعضها تتبع الخلافة العباسية وتدين لها بالولاء مثل المرابطين وآل زنكي والأيوبيين فإن بعضها الآخر لا يعترف بسلطة العباسيين عليها وتعد نفسها دولة قائمة بذاتها مثل الموحدين حيث يدعى سلطانهم بأمير المؤمنين أو تعد نفسها خلافة خاصة مثل الدولة العبيدية في مصر، وجميعهم كان لهم دور في مقارعة الصليبيين.

كان خلفاء هذه المرحلة على صورة واحدة تقريباً من حيث الاتجاه الإسلامي العام ولم يكن بينهم سوى الخليفة الناصر الذي مال إلى التشيع، وكان يفضل علياً على أبي بكر، وليس في هذا التفضيل خروج، وإنما فيه مخالفة، وبُعد عن المعرفة الصحيحة إذ كان رسول الله ﷺ يستشير أبا بكر وعمر أكثر مما يستشير علياً أو غيره، وصحبته في الهجرة، وإمامته للمسلمين في حياة رسول الله ﷺ بأمر وتوجيه من رسول الله ﷺ لكافية لتفضيله، وليس هذا انتقاص لفضل علي رضي الله عنه ومكانته فهو على درجة كبيرة من الفضل يعرفها المسلمون جميعاً بل إن حبهم لعلي رضي الله عنه خاصة ولآل البيت عامة أكثر من حب الشيعة الذي يصل إلى حد التأليه أحياناً، والعبادة بالله وفيه برود أحياناً أخرى فهم يدعون حبه وهم الذين خذلوه ثم خذلوا أبناءه وأحفاده بعد أن دعوهم إليهم وشجعوهم على الخروج فلما خرجوا خذلوهم وابتعدوا عنهم وتركوهم وحدهم أمام خصومهم. كما أن هذا ليس فيه انتقاص لفضل أي من صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم جميعاً، والمسلمون جميعاً يرون فضل أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي على التوالي رضي الله عنهم، كما أن الصحابة كلهم عدول، وقد سئل ابن الجوزي أمام الخليفة الناصر: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أفضلهم من كانت ابنته تحته، ولم يقدر أن يصرح بتفضيل أبي بكر، وإن كان في هذا الجواب معنيان إذ يمكن أن يفهم تفضيل أبي بكر إذ كانت

ابنه عائشة رضي الله عنها تحت رسول الله ﷺ كما يفهم منه تفضيل علي إذ كانت تحته فاطمة بنت رسول الله ﷺ تحته رضي الله عنها وعنه.

وفي هذه المرحلة قلّت الخلافات بين السنة والشيعة إذ كُسرت شوكة الشيعة بعد أن زالت دولهم المتعددة سواء أكانت شيعية متعددة كالبويهيين والحمدانيين أم كانت منحرفة ضالةً ولكنها تدعي التشيع مثل العبيديين والقرامطة وبعض السامانيين إذ دالت دولة الحمدانيين عام ٣٩٤، وانتهت دولة السامانيين عام ٣٩٦، وزال البويهيون عام ٤٤٧، وبزوال البويهيين ضعف أمر القرامطة ثم قضي عليهم عام ٤٧٠، إذ خرجت جزيرة أوال (البحرين) عن طاعة القرامطة عام ٤٥٨ وخضعت للعباسيين وكان أول الأمر أن بنى المسلمون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم وخطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة العبيدي فعزل القرامطة واليهم عن الجزيرة وفرضوا على أهلها ضرائب جديدةً الأمر الذي أثار السكان فهبّوا ضد القرامطة واستطاعوا الانتصار عليهم. وقد هيأ هذا الانتصار أن يتصل المسلمون في البحرين بالخليفة العباسي ويطلبوا منه الدعم إذ اتصل عبد الله بن علي العيوني زعيم قبيلة عبدالقيس بالخليفة العباسي القائم بأمر الله وبالسلطان السلجوقي ملكشاه عام ٤٦٢ ووجد عندهما تجاوباً، وأرسلا له جيوشاً دعمته ضد القرامطة فاستطاع أن يهزم القرامطة عام ٤٦٧، وتجمع المسلمون من كل ناحية في تلك الجهات وهزموا القرامطة في معركة الخندق عام ٤٧٠ في شمال الأحساء، وقضوا عليهم، وبزوال القرامطة من منطقة هجر زال حكم عمالهم في اليمامة من الأخيضريين. أما العبيديون فقد كان أمرهم يضعف وهم رغم إظهارهم التشيع إلا أن أصولهم وانتماءهم وسلوكهم يدل على ضلالتهم العقيدية والفكرية ويلقي ضوءاً على أهدافهم السياسية البعيدة وهذا ما أصبح يتضح للرعية عندما بقوا وحدهم في الميادين وزال الشيعة والمتشيعون الآخرون الذين كانوا يغطون الساحة فيختفي فيها العبيديون وعندما انكشفوا أصبح الناس يكرهونهم فبدأ أمرهم

بالضعف حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله عام ٥٦٧ هـ.

وفي هذه المرحلة حدث هجوم صليبي شرس على بلاد المسلمين ابتدأ في الأندلس ومنها انتقل إلى الاناضول فبلاد الشام ومصر وكان يحمل الحقد الأسود على الإسلام ولذا فقد ارتكب جرائم بشعةً جداً وأهلك الزرع والضرع أثناء سيره، وكان يتذرع الناقمون فيه أن المسلمين كانوا يسيئون إلى الحجاج النصارى الذين يقصدون بيت المقدس، وقد حدث هذا الهجوم بعد الهزائم المنكرة التي مُني بها النصارى سواء في الشرق في معركة ملاذكرت عام ٤٦٣ على يد ألب ارسلان السلجوقي رغم التفاوت الكبير في قوات الطرفين إذ لم تزد قوات ألب أرسلان على ١/١٠ قوات الروم البيزنطيين وسواء في المغرب في بلاد الأندلس في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وقد وحدت هاتان الهزيمتان بين الكنيستين النصرانيتين الشرقية والغربية مؤقتاً وحمست النصارى على الاكتساح البربري الوحشي على ديار المسلمين الذي روّع الآمنين وأخاف الناس جميعاً، ولقد حصل هذا الهجوم على بعض النصر واستقر بعض الصليبيين في إمارات لهم ولكن كان لهذا النصر من جهة ثانية أثر آخر إذ أيقظ المسلمين وحرك في بعضهم الإيمان وهيج فيهم روح الجهاد والدعوة إلى الوحدة فقاموا يقاتلون الصليبيين حتى دحروهم في النهاية وأخرجوهم صاغرين.

وإذا كان الصليبيون قد خرجوا من ديار المسلمين مهزومين إلا أن الحقد لا يزال يغلي في قلوبهم وفي نيتهم البقاء والتشفي من المسلمين ولكن لا يقدرون على فعل شيء، وقد خرجوا وكأنهم ينظرون إلى الخلف، وقد رأوا من بعيد في شرق بلاد المسلمين قوةً طاغيةً تتكوّن من جديد وفيها عناصر القوة كلها ومظاهر الإجرام كلها، نظروا إليها مفكرين وخشوا أن تحتك بالمسلمين فتدين بدينهم وعندئذ يكون الخطر الداهم على النصرانية في أوربا كلها، لذا فكروا وهم يسيرون إلى الغرب مهزومين بأن يكسبوا هذه القوة الجديدة إلى صفهم،

فكروا بإغرائها بالنساء وبتحريضها على المسلمين بوصف بلاد المسلمين لها بأنها الجنان العظيمة التي تنتج العسل وأن أنهارها تجري باللبن، وهذه القوة يتنقل أهلها في الصحاري المقفرة المجدبة ولعابهم يسيل لهذه الأوصاف بمجرد سماع هذه الكلمات وخاصة أن الصينيين كانوا أيضاً يشجعونهم على الانطلاق نحو الغرب إلى ديار المسلمين ليبعدوهم عن ديارهم هم فاتفق الوصف والتشجيع وسارت جموع المغول نحو الغرب بعد أن دفعها قتل شاه خوارزم لرسل جنكيزخان... انطلقت هذه الحشود المغولية كالقطعان السائحة تحرق الأخضر واليابس.... فارتاح لذلك الصليبيون فكان يشيرون إليها بأيديهم للتقدم وهم يسحبون نحو الغرب مهزومين، حتى دكّ المغول المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى ووصلوا إلى بغداد فأعملوا فيها الخراب وقوّضوا الدولة العباسية وذلك عام ٦٥٦.

وفي هذه المرحلة ظهرت دول كان لها الأثر الكبير في محاربة الصليبيين لذلك علا شأنها وارتفع ذكرها حتى طغى اسمها على الخلافة العباسية بالذات فحجبها ولم يعد يذكرها الناس على حين كان يذكر دائماً تلك الدول الثانية التي تتبع الدولة العباسية أو لا تتبعها مباشرة فكانت في المغرب دولة المرابطين الذين اجتازوا بحر الزقاق وانتقلوا إلى العدوة الأندلسية وقاتلوا النصارى الإسبان هناك وانتصروا عليهم في معركة الزلاقة عام ٤٧٩، وهناك الموحدون الذين خلفوا المرابطين وانتقلوا أيضاً إلى الأندلس دعماً للمسلمين وانتصروا على النصارى الإسبان في معركة الأرك عام ٥٨٥. وظهرت في الوقت نفسه دولة آل زنكي في المشرق وقد عملت على تقوية صف المسلمين ومنازلة الصليبيين، ثم قامت بعدها دولة الأيوبيين وقد تمكّن صلاح الدين الأيوبي أن ينتصر على الصليبيين وأن يدخل بيت المقدس عام ٥٨٣. وإضافة إلى هذه الدول التي علا اسمها كانت دولة خوارزم في الشمال الشرقي من العالم الإسلامي وبقيت قائمة حتى قضى عليها المغول عام ٦٢٩. كما قامت دولة

الغوريين في الجنوب الشرقي من العالم الإسلامي، وقد عملت على نشر الإسلام في بلاد الهند، إذ تمكنت من فتح دهلي وبهار والبنغال حوالي عام ٥٩٢، وبذا ضمت أجزاء واسعة من الهند إلى بلاد المسلمين.

وإذا كانت الشيعة قد ضعف نفوذها في هذه المرحلة لزوال دول شيعية إلا أن بعض الأفكار بقيت تراود أذهان بعض الحكام للإفادة من وضع خاص، فقد انتحل خوارزمشاه علاء الدين محمد عقائد الشيعة وظنّ أنه يستفيد من الشيعة عامة ليقضي على الخلافة العباسية في بغداد وذلك عام ٦١٤ هـ.

وفي الوقت الذي بدأت تضعف الدولة العبيدية في مصر بدأ أنصارها في اليمن بالظهور فقامت الدولة الصليحية عام ٤٥٥، وعندما توفي الخليفة المستنصر العبيدي عام ٤٨٧ انقسمت الدعوة إلى فرعين، فرع يؤيد المستعلي وينتشر في اليمن، والآخر يؤيد نزار وينتشر في فارس والشام، والفرع الأخير هو الذي حمل اسم الباطنية أكثر من غيره رغم أن الحركات الباطنية كثيرة، كما أطلق على أصحابه اسم الحشاشين، وقد لعب هذا الفرع دوراً كبيراً في قتل الشخصيات البارزة وكان أولها الوزير نظام الملك الذي قتل عام ٤٨٥، وقد حرصوا على قتل صلاح الدين الأيوبي ولكن أنقذه الله منهم، وكانوا يقيمون في قلاع جبلية حصينة، وكما انتشرت هذه الجماعة التي أطلق عليها اسم الاسماعيلية أيضاً فقد ظهرت بقية الفرق الباطنية من نصيرية ودروز، وإن كانت قد اختلف بعضها مع بعض، وكفّر كل فريق الفريق الآخر إلا أنها جميعها كانت معادية للإسلام وأبنائه وتدعي عندما تعيش في وسط مجتمع إسلامي أنها تنتمي إلى الإسلام.

وانتشرت في هذه المرحلة الألفاظ الأعجمية فنلاحظ «الأتابكة» ومعناها الوالد الأمير و «شحنكية» ومعناها المقاطعة وغيرها من الألفاظ التي غدت متداولة في كل الدولة وخاصة في جناح المشرق.

كانت السيطرة الحقيقية للسلاجقة الذين يعودون في أصولهم إلى الغزّ

الترك ، ويدينون بالإسلام ، ويأخذون برأي أهل السنة والجماعة ، ويرجع أول أمرهم إلى سلجوق بن تقاق الذي هرب من بلاد الترك خوفاً على نفسه من سلطان الترك الذي أوغرت صدره زوجته لما رأت من محبة الناس لسلجوق وطاعتهم له . ولما دخل سلجوق بلاد المسلمين اعتنق الإسلام مع جماعته بل بدأ يُغير على بلاد الترك الذين كانوا لا يزالون على الكفر ، وكانوا إذا ما هاجمهم غاز ورأوا أنهم لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد . وكان سلجوق إذا دخل أرضاً ضمّها إلى بلاد الإسلام .

استعان السامانيون بسلجوق في ردّ غارات الترك على بلادهم ، فأرسل إليهم قوة بإمرة ابنه أرسلان الذي استطاع أن يسترد من الترك ما أخذوه من بلاد السامانيين . وتوفي سلجوق بعد أن بلغ من العمر سبعاً ومائة سنة ، كما قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو في بلاد الكفر من الأتراك ، وكان لميكائيل هذا ولدان برزا من بعده هما طغرل بك محمد ، وداود جعفر بك ، ودانت لهما جماعتهما بالطاعة والولاء ، وانتقلا بمن معهم نحو صحارى بخارى حيث أقاموا هناك فخافهما أميرها فساروا إلى بلاد بوغراخان ملك التركستان ولم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبينهما فسجن الملك (بوغراخان) طغرل بك غير أن داود قد داهم بمن معه بوغراخان وأنقذ أخاه طغرل بك ومن ثم انتقلوا إلى بلاد الدولة السامانية حيث استقروا هناك ، غير أن الدولة السامانية قد كانت في أواخر عهدها ، وكانت تبرز قوة جديدة هي قوة الغزنويين وقد اصطدموا معهم ، وانتهى الصدام بأسر ارسلان بن سلجوق عم طغرل بك ، ثم حدث صلح بين السلاجقة والغزنويين بحيث تولى زعماء السلاجقة إمرة بعض المدن والمناطق ، وطلب أبناء الأخ من الغزنويين إطلاق سراح عمهم أرسلان بن سلجوق .

زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥ ، ودخل الغزنويون خراسان على حين دخل ايلك خان بلاد ما وراء النهر ، ورجع الخلاف مرة أخرى بين الغزنويين والسلاجقة فتمكّن طغرل بك أن يستولي على مرو عام ٤٢٩ ، وذكر اسمه في

خطبة الجمعة باسم ملك الملوك ، ثم استولى على نيسابور عام ٤٣٢ وعلى جرجان وطبرستان عام ٤٣٣ ، كما ضم كرمان وبلاد الديلم إليه في العام نفسه ، ثم استولى على خوارزم عام ٤٣٤ ، وانتقل الصراع فأصبح مع البويهيين ، فدخل طغرل بك أصبهان عام ٤٣٨ ثم تم الاتفاق معهم وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار البويهي ، كما تزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار ابنة داود أخي طغرل بك عام ٤٣٩

انتقل طغرل بك إلى الصراع مع الروم فاتجه إلى دياربكر وقاتل الروم وانتصر عليهم وعقد هدنة معهم واشترط بناء مسجد في القسطنطينية فأقيم ، وأقيمت فيه الصلاة ، وخطب لطغرل بك فيه .

تقاسم السلاجقة البلاد الواسعة التي يحوزتهم فيما بينهم ، وانتخب ملكاً عليهم جميعاً طغرل بك ولم يكن له أولاد واتخذ مدينة الري حاضرةً له ، وقد اختير ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ليكون مع عمه طغرل بك ساعداً له ، ونتيجة ما قدّم طغرل به من خدمات ونتيجة مراسلاته مع الخليفة فقد ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة قبل السلطان البويهي الملك الرحيم ثم استأذن طغرل بك الخليفة القائم ودخل مدينة بغداد عام ٤٤٧ ، وطلب الخليفة القائم من السلطان البويهي الملك الرحيم أن يتنح ويخضع لطغرل بك ، وبذا انتهى عهد البويهيين وجاء دور السلاجقة .

اضطر طغرل بك أن يقاتل أخاه لأمه ابراهيم ينال الذي تمرّد عليه ، أو أن البساسيري قد أوقع بينهما ، كما اشتغل داود أخو طغرل بك بقتال الغزنويين فاستغل البساسيري هذا الموقف ودخل بغداد عام ٤٥٠ غير أن داود قد عقد صلحاً مع سلطان الغزنويين ابراهيم بن مسعود ، وانتصر طغرل بك على أخيه ابراهيم وقتله فصفا الأمر للسلاجقة واتجه طغرل بك إلى بغداد فدخلها عام ٤٥١ وقضى على البساسيري الذي لم يحلم بالتفرد بالسلطة في بغداد ، وسجن الخليفة بأكثر من سنة . وكان الخليفة قد تزوج خديجة بنت داود أخي طغرل

بك. ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة عام ٤٥٤ وتزوجها بعد تردد وتمنّع من الخليفة. واتجه طغرل بك إلى الري فمرض في الطريق ثم توفي عام ٤٥٥ بعد ان وصل إلى الري. وكان وزيره عميد الملك منصور بن محمد أبي نصر الكندري.

كان طغرل بك عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومي الاثنين والخميس. وكان يلبس الثياب البيض، وكان كريماً(١).

وكان طغرل بك قد أوصى بمن بعده لابن أخيه سليمان بن داود إذ أن أمه كانت عنده، وقد جلس على كرسي السلطنة بمساعدة الوزير الكندري، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه وانتصر عليه وتسلّم السلطة وقبض على الوزير الكندري وأرسله إلى مرو حيث سجن فيها ثم قتل عام ٤٥٧. ولعل أهم حدث خلّد ذكر ألب ارسلان انتصاره الحاسم على الروم في ملاذكرت، وكان جيش الروم يزيد على مائتي ألف ويضم الروم والروس والكرج والأرمن والخزر والفرنجة وكثيراً من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها على حين أن جيشه لم يكن ليزيد على عشرين ألف مقاتل، كما أسر امبراطور الروم في هذه المعركة التي جرت عام ٤٦٣، وكان هذا الامبراطور هو (ديوجنيس رومانوس) ففداه السلطان وأطلق سراحه مع جماعة من أمرائه وقواده بشرط أن يطلق سراح كل أسير مسلم بيد الروم وأن يرسل إليه عساكر الروم وقت طلبها.

وتمكّن أحد قادة ملكشاه بن ألب ارسلان في هذا العام أن يفتح بيت المقدس والرملة وينقذها من أيدي العبيديين. وفي عام ٤٦٥ سار ألب أرسلان على رأس مائتي ألف مقاتل باتجاه بلاد ما وراء النهر وقصد الصين، ولكن خرج له كمين فقتله، فكان رحمه الله كريماً عادلاً عاقلاً، وكان رحيم القلب

(١) الكامل في التاريخ.

مقراً بأنعم الله عليه، وكان يتصدق على الفقراء ولا سيما في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار(١). وكان وزيره نظام الملك أبو الحسن علي بن إسحاق.

واستمر سلطان السلاجقة حتى سيطر على مناطق نفوذهم الخوارزميون عام ٥٩٠ واستمر ذلك حتى جاء المغول ثم دخل هولاكو بغداد عام ٦٥٦ فزال سلطان الدولة العباسية.

(١) الكامل في التاريخ.

قائمة بخلفاء هذه المرحلة:

١ -	المقتدي	٤٦٧ - ٤٨٧
٢ -	المستظهر	٤٨٧ - ٥١٢
٣ -	المسترشد	٥١٢ - ٥٢٩
٤ -	الراشد	٥٢٩ - ٥٣٠
٥ -	المقتفي	٥٣٠ - ٥٥٥
٦ -	المستنجد	٥٥٥ - ٥٦٦
٧ -	المستضيء	٥٦٦ - ٥٧٥
٨ -	الناصر	٥٧٥ - ٦٢٢
٩ -	الظاهر	٦٢٢ - ٦٢٣
١٠ -	المستنصر	٦٢٣ - ٦٤٠
١١ -	المستعصم	٦٤٠ - ٦٥٦

- ٢٧ -

المقتدي بأمر الله
عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم
٤٦٧ - ٤٨٧

بعد أن دخل السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ بقي القائم بأمر خليفةً مدة عشرين سنة أخرى، بل إن هذا الخليفة هو الذي أذن لطغرلبك زعيم السلاجقة أن يدخل بغداد.

كان للقائم بأمر الله ولد توفي في حياته عام ٤٤٨ واسمه محمد، وكانت أم ولده «أرجوان»[1] حامل فوضعت بعد وفاة زوجها محمد بن الخليفة القائم ولداً، أسماه جده على اسمه عبد الله، ولقبه المقتدي وقد بويع بالخلافة بعد وفاة جده القائم عام ٤٦٧ وعمره تسع عشرة سنة فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله. كان ديناً، خيّراً، قوي النفس، عالي الهمة، من نجباء بني العباس[2]. ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي ببغداد[3]. وكان يكنى أبا القاسم، وقد خطب الخليفة ابنة السلطان ملكشاه عام ٤٧٤ وتزوجها عام ٤٨٠، لكنها لم تلبث أن توفيت عام ٤٨٢.

دخل ملكشاه بغداد عام ٤٧٩ ونزل في دار المملكة ومكث مدة ثم رجع إلى أصبهان، وكذلك جاء ثانية في عام ٤٨٤ وبقي مدة ثم عاد إلى قاعدته غير أن قدومه الأخير عام ٤٨٥ كان يضمر فيه الشرّ، فقد أرسل إلى الخليفة يطلب منه

(١) كانت تدعى قرة العين.
(٢) تاريخ الخلفاء.
(٣) المصدر نفسه.

أن يغادر بغداد، ويتركها له، وأن يسير إلى حيث يشاء من البلدان، فغضب الخليفة وطلب من ملكشاه أن يمهله ولو شهراً، فأجابه: إنه لا يمهله ولا ساعة واحدة، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام، غير أن الموت لم يمهل ملكشاه إذ مرض وتوفي في هذه الأثناء، وقيل: إن الخليفة كان يصوم ويدعو على ملكشاه.

وفي أيام المقتدي استردّ المسلمون من الروم انطاكية على يد سليمان بن قطلمش السلجوقي عام ٤٧٧ وكان الروم قد أخذوها من المسلمين عام ٣٥٨. كما استردّ المسلمون منبج عام ٤٦٨ على يد نصر بن محمود بن صالح بن مرداس. وانتصر المسلمون في الأندلس في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ على النصارى الاسبان بعد أن دعم الأندلسيين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب، وكان هذا النصر مؤزراً، وكانت المعركة حاسمة. كما فتح المسلمون في أيامه أجزاء من الهند وأخذوا قلاعاً حصينة هناك على أيدي الغزنويين.

وفي أيام المقتدي أعيدت الخطبة للعباسيين في دمشق عام ٤٦٨، وفي مكة عام ٤٧٤ بعد أن انقطعت ثانية عام ٤٦٧ هـ.

وتوفي الخليفة المقتدي - رحمه الله - في مطلع عام ٤٨٧ في ١٤ المحرم، وبذا تكون خلافته قد قاربت العشرين عاماً، وكان فيها خير للمسلمين.

الإمارات

١ - السلاجقة:

بعد معركة ملاذكرت ضعفت الدولة البيزنطية ضعفاً ظاهراً بحيث لم تعد تقوى على شيء، وخاصة أن امبراطورها قد أسر في تلك الموقعة الشهيرة، فتقدّم السلاجقة في بلاد الأناضول ثم قامت إمارات سلجوقية لعل أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان الأول بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق والتي عُرف السلاجقة فيها باسم سلاجقة الروم وكان مقرها قونية، وكانت هذه أول الإمارات السلجوقية في بلاد الأناضول ثم أعقب ذلك قيام إمارات أخرى.

ولما تأسست إمارات سلجوقية في الأناضول قامت كذلك إمارات أخرى في أرمينيا إلى جانب دويلات أرمينية هذا بالإضافة إلى الأرمن التي فرّوا نحو الغرب من وجه السلاجقة وأسسوا إمارة لهم في كيليكيا في شمال غربي بلاد الشام وكانت مستقلة وبقيت حتى انهارت على أيدي المغول في أواخر القرن السابع الهجري.

وتوسع ملك السلاجقة أيام ملكشاه كثيراً إذ ضمّ إليه دمشق عام ٤٦٨ وانتهت بدعة «حي على خير العمل» في الأذان، وسار صاحب دمشق الملك المعظم الإقسيس وهو اتسز بن أوف الخوارزمي لملاحقة العبيديين إلى مصر عام ٤٦٩، وألقى الحصار عليهم فيها غير أنه لم يتمكن من دخولها، وعندما عاد إلى دمشق سار إليه الملك المظفر تاج الملوك تتش بن ألب أرسلان أخو ملكشاه، فلم

يحسن الاقسيس استقباله لذا فقد قتله عام ٤٧١ وحكم دمشق مكانه.

وضمّ السلاجقة إليهم حمص وحلب، وبعد هذا الضم دخل ملكشاه بغداد عام ٤٧٩ ومعه وزيره نظام الملك، فزارا معالم المدينة ومشاهدها وعادا بعدها إلى أصبهان في شهر صفر من عام ٤٨٠، وفي هذه الأثناء تزوج الخليفة ابنة السلطان ملكشاه.

وضمّ السلاجقة إليهم بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها من أحمد خان عام ٤٨٢، ووصلوا إلى كاشغر في تركستان الشرقية وحملت جزية الروم إلى السلطان ملكشاه وهو في كاشغر ليرى رسل الامبراطور البيزنطي سعة أملاك ملكشاه، وبعد ذلك اتجه ملكشاه إلى بغداد عام ٤٨٤ وعاد بعدها إلى أصبهان، كما اتسع سلطان ملكشاه إلى اليمن وعدن، وانتصر على الغزنويين بعد أن هزم عمه عثمان أمامهم وأسر وحمل إلى غزنة.

اختلف ملكشاه مع أخيه صاحب دمشق تتش، وجرى قتال بين الطرفين، كما أن أخاه الثاني تكش صاحب طخارستان قد استولى على بعض أجزاء من خراسان. وانتصر ملكشاه على عمه قاروت صاحب كرمان وقتله.

ولم يقتصر السلاجقة في أيام ملكشاه على توسعة نفوذهم في البلاد الإسلامية بل تخطوها فتوسعوا بانتشارهم في بلاد الروم، واستردوا بعض ما كان الروم قد أخذوه من المسلمين، إذ استرد نصر بن محمود بن صالح بن مرداس منبج من الروم ٤٦٨ كما استرد سليمان بن قطلمش صاحب قونية من الروم مدينة انطاكية عام ٤٧٧ وقد كانت بيد الروم منذ سنة ٣٥٨ هـ.

وعاد ملكشاه ثانية إلى بغداد، وكان في هذه المرة يضمر الشرّ للخليفة، فما أن دخلها حتى طلب من الخليفة أن يغادرها ويتركها له، ويرتحل إلى أية جهة يشاء، فطلب الخليفة من أن يمهله شهراً فرفض ملكشاه إمهاله ساعة واحدة فطلب الخليفة عندئذ من الوزير أن يرجو السلطان مهلة عشرة أيام على الأقل، غير أن السلطان قد غادر بغداد في أثناء ذلك وتوجّه نحو اصبهان ومرض في

الطريق، وما أن وصل إلى مقصده حتى أدركته منيته وذلك عام ٤٨٥.

كتمت زوجة السلطان، تركان خاتون، موته، واستدعت الأمراء، وأعلمتهم بالأمر، واستخلفت ابنها محمود وهو صغير السن إذ لا يزال في الخامسة من عمره.

كان ملكشاه أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل[1]، وكان يجلس للمظالم بنفسه، ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم، كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أي شخص من أفراد شعبه أن يتصل به في سهولة ويسر لرفع ظلامته أو للتعبير عما لحقه من اضطهاد. وكانت السبل في أيامه آمنة، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام في أمن وطمأنينة[2]. كما حفر ملكشاه الآبار في طريق مكة، وبنى منارة القرون بالسبيعي في طريق مكة، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر، وأسقط المكوس عن حجاج بيت الله، وقد سارت مهارته في الصيد على كل لسان[3].

واستوزر السلطان ملكشاه وزير أبيه السلطان ألب أرسلان وهو أبو الحسن علي بن إسحاق المعروف بنظام الملك[4]، وكان ألب أرسلان قد عهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه، فلما تولى ملكشاه الأمر بعد أبيه ألب أرسلان استبقاه وجعله مدبر ملكه ومستشاره الأمين، وكان نظام الملك عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت، وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء، وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، واشتهر ببناء المدارس وخصص لها النفقات العظيمة، وأملى الحديث ببغداد ونيسابور، وكان قد تعلم العربية منذ صغره، وصدف

---

(١) وفيات الأعيان - ابن خلكان.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكامل في التاريخ.

(٤) ولد نظام الملك بمدينة طوس عام ٤٠٨، وكان أبوه من أصحاب محمود بن سبكتكين الغزنوي.

عن الدنيا في أواخر حياته.

قبض نظام الملك وأولاده الاثنا عشر على زمام الدولة بشكل جيد، وقتل نظام الملك وهو صائم بالعاشر من رمضان عام ٤٨٥ على يد أحد غلمان الباطنية. وكان السلطان ملكشاه قد لقبه أتابك أي « الوالد الأمير »، ومات السلطان ملكشاه بعده بشهر وخمسة أيام.

توفي ملكشاه في منتصف شوال عام ٤٨٥ وخلف عدداً من الأولاد أكبرهم بركيارق ولد عام ٤٧٢ ،ومحمد ولد عام ٤٧٣، وسنجر ولد عام ٤٧٧، ومحمود ولد عام ٤٨٠، أما ولده الكبير أحمد فقد توفي عام ٤٧٤ وكان يريد توليته العهد من بعده.

استطاعت زوجة ملكشاه « تركان خاتون » بمساعدة الوزير تاج الملك تولية ابنها محمود الصغير السلطنة بعد أبيه ملكشاه، ووافق الخليفة بعد تردد على تلك التولية، وخطب له بعد الخليفة، وكان الوزير تاج الملك يقوم بالوصاية عليه.

كان محمود بن ملكشاه في بغداد، وكان أخوه بركيارق في أصبهان، وخشيت تركان خاتون من منافسة بركيارق لأخيه الصغير محمود فأرسلت إلى أصبهان من قبض على بركيارق وسجنه، غير أن أحد أبناء نظام الملك قد أخرجه من السجن، وانتقل به إلى الري ونصبه ملكاً، ووقع القتال بين الطرفين، وهزم جيش محمود واعتصم بأصبهان، وحاصره أنصار بركيارق، وتم بعدئذ الصلح بين الطرفين مقابل مبلغ من المال يدفع لبركيارق. وقُتل في هذه الأثناء عام ٤٨٦ الوزير تاج الملك. وعاد الصدام بين الأخوين بعد أن حرضت أم محمود « تركان خاتون » على بركيارق خاله اسماعيل إلا أن اسماعيل قد هزم. وانتصر بركيارق في النهاية واتجه إلى بغداد ونودي به سلطاناً في مطلع عام ٤٨٧ (١٤ المحرم)، على حين بقي محمود بأصبهان، ووافق الخليفة على سلطنة بركيارق وقلده، وفي اليوم التالي لهذا التقليد توفي الخليفة نفسه (١٥ المحرم).

٢ ـ شاه خوارزم:

كان أحد سقاة بلاط السلطان ملكشاه رجل يدعى « أنوشتكين » ووظيفة الساقي هي الإشراف على موائد القصر، وقد اشترك « أنوشتكين » في القتال الذي دار بين السلاجقة والغزنويين، وكان له باع في إحراز النصر السلجوقي بعد الهزيمة التي حلت بهم فكافأه السلطان ملكشاه وأعطاه إقطاعية خوارزم (مدينة خيوه) الواقعة جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) بمائتين وثلاثين كيلومتراً، فبدأ أنوشتكين ملكه عام ٤٧٠، واستمر في حكمه مدة عشرين سنة حيث توفي وخلفه ابنه قطب الدين عام ٤٩٠.

٣ ـ الغزنويون:

حكم الدولة الغزنوية ابراهيم بن مسعود من عام ٤٥١ حتى عام ٤٩٢ وكان قوي الشكيمة، انتصر على السلاجقة، وأسر عثمان عمّ السلطان ملكشاه وحمله أسيراً مع خزائنه إلى غزنة غير أنه لم تمض مدة حتى هزم أمام السلاجقة وذلك عام ٤٨٢، وقد عرف باسم ظهير الدين، وبدأت الدولة الغزنوية منذ ذلك الوقت بالأفول.

٤ ـ العبيديون:

بعد أن امتد نفوذ العبيديين كثيراً في أوائل أيام المستنصر بدأ هذا المد بالانحسار تدريجياً إذ انسحب العبيديون من الحجاز ومن بلاد الشام، واضطر المستنصر أن يسحب واليه على عكا بدر الجمالي عام ٤٦٦، هذا من ناحية المشرق، أما من ناحية المغرب فقد زال سلطانهم عنها أيضاً، ولم يبق لهم سوى مصر، وتوفي المستنصر عام ٤٨٧ وآل الحكم من بعده لولده الأصغر أحمد أبو القاسم المستعلي وأبعد ابنه الأكبر نزار.

٥ - آل زيري:

بعد وفاة المعز بن باديس عام ٤٥٤ آل أمر الدولة من بعده إلى ولده تميم وكان في أيام أبيه والياً على المهدية، وقد استطاع تميم هذا أن يسترد مدن سوسة وتونس وصفاقس بعد أن كان الهلاليون وغيرهم قد غلبوا أبناء عليها وأخرجوه إلى المهدية، وهاجمت مراكب الافرنج إفريقية واستولوا على المهدية عام ٤٨٠، ثم صالحهم على مال أخذوه وانصرفوا.

أما صقلية فقد كان بعض أهلها قد استعانوا بالنورمانديين فحاموا واحتلوا عدداً من مدنها، وجاء فريق منهم مستنصرين بالمعز بن باديس فأرسل إليهم أسطولاً غرق أكثره، وعندما قام تميم بالأمر أرسل لأهل صقلية أسطولاً مساعدة لهم ضد النورمانديين، فحدث خلاف بين المسلمين في صقلية استغله النورمانديون فهاجموا الجزيرة واستطاعوا السيطرة عليها تماماً عام ٤٨٤، وبهذا زال نفوذ آل زيري نهائياً من صقلية. وكانت صقلية بيد المسلمين منذ سبعين مائتي سنة.

هاجم الطليان تميم بن المعز في أسطول كبير غير أنه تمكن من هزيمتهم والانتصار عليهم بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم. واعتلّت أموره في أواخر أيامه فكان يتنقل بين المهدية وقابس وجربا وصفاقس إلى أن توفي في المهدية عام ٥٠١، وكان شجاعاً ذكياً له عناية الأدب، ينظم الشعر، وله ديوان كبير.

وفي إمارة آل حماد توفي الناصر بن علناس بن حماد وتولى مكانه ابنه المنصور عام ٤٨١.

٦ - الإمارة المغراوية:

عندما قامت صنهاجة في بلاد المغرب بدعوة العبيديين ثبتت زناتة على الدعوة للأمويين في الأندلس، وقادها زيري بن عطية من قبيلة مغراوة وهي فرع من زناتة فملك مدينة فاس ثم اتسع سلطانه، وخاض حروباً كثيرة كان

آخرها قتاله لجيوش ابن أبي عامر من الأندلس، فأثخن بالجراح ومات عام ٣٩١، وخلفه ابنه المعز بموافقة أبناء عمه وجاءه تقليد المظفر بن أبي عامر بولايته على المغرب كله، ما عدا سجلماسة، فأقام تابعاً لقرطبة إلى أن انقرضت الدولة الأموية بعد انقراض الدولة العامرية، فاستقل بالأمر، واستمر إلى أن توفي بفاس عام ٤٢٢ وكانت أيامه أيام هدوء وأمن. ثم تولى الأمر من بعده بعض أبناء عمومته وفي عام ٤٥٧ آل الأمر إلى منتصر بن المعز، وقد كان في أيام أبيه بقرطبة رهينة لدى المظفر بن أبي عامر فلما شبت الفتنة بالأندلس عاد إلى فاس وبقي حتى أصبح له أمرها، قاوم المرابطين وفقد إحدى عينيه عام ٤٦٠، وقام ابنه تميم مكانه، فهاجمه المرابطون ودافع عن فاس إلى أن قتل عام ٤٦١ ودخل المرابطون فاس وانقضت دولة مغراوة.

٧ - المرابطون:

كانت القبائل التي تقيم في صحاري المغرب كثيرة وكلها تنتمي إلى الإسلام، ولكن لم تكن لتعرف إلا القليل من أحكامه، وكان أكثرها حماساً قبيلة لمتونة، ومن القبائل الأخرى جدالة التي هي فرع من صنهاجة أيضاً، وفي عام ٤٤٠ ارتحل رجل من جدالة يدعى يحيى بن ابراهيم إلى المشرق لأداء فريضة الحج وفي أثناء عودته حضر بمدينة تونس حلقة علم لعالم يدعى أبا عمران الفاسي الذي لاحظ يحيى نحو العلم وعندما اختبره وجده لا يعرف شيئاً رغم أنه أمير قومه، وعندما سأله عن موطنه أخبره وأعلمه أن الجهل يسود تلك المواطن، ثم طلب منه أن يرسل معه أحد تلامذته ليفقه الناس، وعندما سأل الشيخ طلابه في الارتحال مع يحيى لم يستجب أحد لبعد الشقة وطول الطريق رغم أنه قد شجعهم كثيراً، ولما وجد هذا أرسله إلى أحد فقهاء المغرب وزوده بكتاب، ويدعى هذا الفقيه، واجاج بن زللو، اللمطي فاستقبل (واجاج) ضيفه يحيى ورحب به، وبعث معه عبد الله بن ياسين الجزولي إلى حيث تنقل لمتونة ومسوفة وجدالة الصنهاجية، وأصله من مدينة سجلماسة.

بدأ عبد الله بن ياسين في تعليم رجال القبائل أمور دينهم، ولكنه لم يجد صلاحاً في سلوكهم لذا قرر الرحيل عن ديارهم مغاضباً لما وجد من إعراض، غير أن يحيى بن ابراهيم الجدالي قد تمسك به وانتقل معه إلى جزيرة في نهر السنغال حيث أنشأ هناك رباطاً للمحافظة على الدين والبعد عن العادات المخالفة للإسلام لكن سرعان ما اتجه أناس نحو هذا الرباط وتتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين وقبلوا نصائحه وقد وصل عددهم إلى ألف شخص، وقد أثار فيهم روح الجهاد لإحياء نظام الإسلام وقتال الظالمين الذين يقفون في وجه الدعوة وأمام تطبيق المنهج الإسلامي بشكل سليم. ولما بلغ عدد المرابطين هذا العدد وهو الألف قادهم شيخهم عبد الله بن ياسين إلى الجهاد.

انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءاً من أملاكهم، لذلك زاد تحول قبيلة صنهاجة إلى الإسلام الذي بدأ من عهد عقبة بن نافع، وقام تحالف بين قبائل الملثمين جميعاً بزعامة قبيلة لمتونة، ولم يكن هذا التحالف ليستطيع التوسع نحو الشمال بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من (زناتة ومصمودة) لذا فقد أخذ هذا الحلف يتنقل بأبنائه نحو الجنوب ويتوسع في تلك الجهة، وتمكن هذا الحلف إلى أن يستولي على مدينة (أودغشت) التي اتخذها قاعدة له، وفرض على أهلها المغلوبين الجزية.

تفككت عرى هذا الحلف عام ٣٠٦ مما جعل امبراطورية غانة تستعيد مدينة (أودغشت)، وبعد مدة وجدت قبائل الملثمين نفسها بحاجة إلى إعادة الوحدة التي فيها دعائم القوة فعاد الحلف وتمكن ثانية من السيطرة على (أودغشت) عام ٣٥٠ ثم لم يلبثوا أن تركوها مرة أخرى لغانة بعد أن تصدع الحلف ولم تكن نتائج هذا التصدع ضياع مدينة (أودغشت) فقط وإنما قتل زعيم لمتونة سيدة هذا الحلف. وأمام هذه الهزيمة فقد تخلت أيضاً قبيلة لمتونة عن زعامة الملثمين، وتولت أختها (جدالة) هذه الزعامة، ويبدو أن حظها في القتال كان أفضل من سابقتها وربما كان لقرب منازلها من امبراطورية غانة. وكان سيد جدالة

يومذاك يحيى بن ابراهيم الذي التقى مع العالم أبي عمران الفاسي، ثم انطلق مع عبد الله بن ياسين إلى الرباط الأول للملثمين.

انطلق عبد الله بن ياسين برجاله نحو غانة واستطاعوا فتح (أودغشت) عام ٤٤٦ وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام، وقد استشهد يحيى بن ابراهيم الجدالي في المعركة التي فتحت فيها مدينة (أودغشت)، وخلفه في زعامة المرابطين يحيى ابن عمر سيد لمتونة.

استنجد أهل سجلماسة وذرعه بالمرابطين فسار إليهم عبد الله بن ياسين وجماعته من المرابطين، واستطاعوا تخليص هذه المناطق من حكم دولة مغراوة، وفي إحدى المعارك استشهد يحيى بن عمر اللمتوني فأعطى عبد الله بن ياسين قيادة جيش المرابطين إلى أخيه أبي بكر بن عمر اللمتوني، وأمره بغزو بلاد السوس، فعيّن أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين، واستولى المرابطون على بلاد السوس، وفتحوا بلاد جزولة وماسة، ثم اتجهوا إلى بلاد المصامدة ففتحوا مدينة تفيس، ثم ساروا إلى أغمات وعليها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين ففر إلى أبناء عمومته بني يفرن ملوك سلا، وتادلا، واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات عام ٤٤٩ وان يجعلوها قاعدة لهم.

اتجه عبد الله بن ياسين بجماعته إلى قتال قبيلة برغواطة التي تقيم على ساحل المحيط الأطلسي بين سلا وأسفي في سهول الشاوية الحالية جنوب مدينة الدار البيضاء، وقد استشهد عبد الله بن ياسين أثناء قتال هذه القبيلة وذلك عام ٤٥١، واستمر أبو بكر بن عمر في قتال برغواطة حتى خضعوا له، ثم انصرف هو إلى الحرب في الصحراء، على حين ترك ابن عمه يوسف بن تاشفين لقتال مغراوة.

سار أبو بكر للقتال في صحارى الجنوب فتقدم في بلاد السودان وأحرز انتصارات واسعة ورجع إلى أغمات بعد انتهاء مهمته فوجد ابن عمه يوسف بن

تاشفين قد نظم أمره، وقوى جيشه، ونازل خصومه، وانتصر عليهم، فتنازل أبو بكر ليوسف عن إمارة المرابطين أمام سادات القوم وعاد إلى الجنوب يجاهد في سبيل الله، وقد تمكن من دخول عاصمة امبراطورية غانة مدينة كومبي صالح عام ٤٦٩ وذلك بمعاونة قبائل التكرور، وفرض الإسلام على جميع البلاد التي دخلها. وقبل ملك غانة (تنكامنين) الدخول في الإسلام، والخضوع لسلطان المرابطين، وبإسلام الملك دخل كثير من رعاياه في الإسلام. وتوفي أبو بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠، وضعف أمر المرابطين فاستقلت قبائل السوننكي وأعلنت الارتباط بالدولة العباسية، وبدأت تدعو إلى الاسلام، وأصبحت مملكة غانة مسلمة، وغدت اللغة العربية لغتها الرسمية.

أما يوسف بن تاشفين فقد أرسل كتاباً الى الخليفة العباسي يعلمه ببيعته، وكان يوسف رجلاً ديناً خيّراً حازماً داهية مجرباً. وتمكن أن يدخل مدينة فاس عام ٤٦١ وأن يقضي على دولة مغراوة. وابتنى يوسف مدينة مراكش وجعل حاضرة ملكه، وانتقل الى الأندلس لدعم المسلمين، وقاتل النصارى الاسبان في معركة الزلاّقة.

٨ - الأندلس:

كانت بلاد الأندلس مقسمة بين ملوك الطوائف، وكان أشهرهم المعتمد ابن عباد حاكم مدينة اشبيلية واستطاع أن يتغلب على بني جهور في قرطبة وقد استنجدوا به ضد المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة الذي استولى على مدينتهم فجاء ابن عباد ودخل قرطبة وغدت تابعة لاشبيلية.

وفي عام ٤٧٨ سقطت طليطلة بيد النصارى الاسبان الذين هددوا أملاك ابن عباد فدفع لهم الأتاوة غير أنهم قد طلبوا تسليم عدة قلاع، فرأى ابن عباد أن يستنجد بيوسف بن تاشفين ضدهم، وفي عام ٤٧٩ عبر ابن عباد بحر الزقاق إلى العدوة المغربية، وكان ابن تاشفين في سبته فالتقى به، وطلب ابن

عباد من ابن تاشفين نجدة المسلمين في الأندلس والجهاد في سبيل الله فأجابه، «أنا أول منتدب لنصرة هذه الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي»، واستقدم من بقي من جنده في مراكش ثم عبر البحر في مائة مركب تحمل سبعة آلاف جندي، واتجه إلى الجزيرة الخضراء فتلقاه ابن عباد في وجوه دولته. ويمم وجهه شطر العدو مباشرةً ورفض الاستراحة في اشبيلية أياماً حسب طلب ابن عباد، واتجه عدد من المتطوعين المسلمين إلى جيشه حتى زاد على العشرين ألفاً، وجاء جيش ملك النصارى ألفونس السادس وكان جراراً يضم جموع النصارى من أقاصي المملكة مع من يدعمهم، والتقى الطرفان في سهل الزلاّقة بالقرب من مدينة بطليوس، ووقف جيش المعتمد بن عباد في المقدمة، واصطف جيش يوسف به تاشفين خلف أكمة عالية من الجبل. وحاول ألفونس السادس الخديعة إذ تبادلت الرسل بين الفريقين لتحديد يوم القتال واقترح النصارى ألا يكون الجمعة لأنه عيد المسلمين ولا السبت لأنه عيد اليهود وهم وزراء النصارى في الأندلس وكتابهم ولا الأحد لأنه عيد النصارى. غير أنه ما حان يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة حتى بدأ هجوم النصارى، غير أن المعتمد بن عباد كان يخشى هذه الخديعة لذا فقد بقي في سلاحه وتصدّى لهجوم النصارى، وانتهى المرابطون من صلاتهم وحملوا على النصارى وبدأوا فيهم قتلاً حتى قيل إنهم قد أفنوهم عن آخرهم وذلك في منتصف رجب من عام ٤٧٩، وقيل في أوائل رمضان. واستولى المسلمون على كل ما كان مع النصارى، وقد آثر يوسف بن تاشفين بهذه الغنائم من انضم إليه من ملوك الأندلس لذا فقد أحبوه، كما أحبه الشعب. أما ملك النصارى ألفونس السادس فقد نجا من المعركة إذ فرّ منها. وبعد المعركة ثارت عوامل حقد النصارى وملكهم على ابن عباد الذي استدعى ابن تاشفين، لذا فقد ركّز ألفونس السادس غاراته على أطراف مملكة ابن عباد.

عاد المعتمد بن عباد إلى المغرب وطلب نجدة يوسف بن تاشفين ثانية فوافقه

واتجه يوسف إلى الأندلس ولكن لم يأت إليه من ملوك الأندلس إلا المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وابن عبد العزيز صاحب مرسية، وبدأ المسلمون يشن الغارات على بلاد النصارى الذين لم يجرؤوا على مواجهة المسلمين، وكان هناك خلاف بين ابن عباد وابن عبد العزيز، وألقي القبض على ابن عبد العزيز حسب رأي ابن عباد، وعاد يوسف به تاشفين إلى المغرب وفي نفسه شيء على ملوك الأندلس.

وفي عام ٤٨٣ جاز يوسف بن تاشفين بحر الزقاق إلى العدوة الأندلسية وهي المرة الثالثة، وسار نحو طليطلة وحاصر بها الفونس، وقتل كثيراً، وقطع الثمار، ولم يأت لمساعدته أحد من ملوك الأندلس، ولم يتمكن من دخول طليطلة ففك الحصار عنها وعاد نحو غرناطة فنازل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس لأنه صالح الفونس وظاهره، وحاصر غرناطة وطال حصاره فطلب صاحبها منه الأمان فأمنه يوسف وحمله معه وأخاه تميم صاحب مالقة إلى مراكش، وولّى على غرناطة ومالقة سيري بن أبي بكر اللمتوني وطالبه بملاحقة ألفونس، وانتقل هو إلى المغرب في شهر رمضان عام ٤٨٣.

قبل انتقال يوسف بن تاشفين إلى المغرب طلب من واليه على غرناطة أن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين، ويلحق أمراءها بالمغرب، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة، وألا يتعرض للمعتمد بن عباد حتى يستولي على سائر الإمارات ويولي عليها أمراء جنده.

استولى سيري بن أبي بكر على جيان، وقرطبة، وقرمونة، فاستنجد المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية بألفونس السادس الذي أمده بعشرين ألفاً، فسار إليه عندئذ سيري بن أبي بكر، والتقى به على مقربة من حصن المدور، ثم ضيق عليه حتى فتحت اشبيلية أبوابها له فدخلها، وطلب ابن عباد الأمان، فأعطي له، وحمله وولده وأهله معه، وحزن الناس على ابن عباد حيث كان موصوفاً بالكرم حسن السيرة والعشرة والإحسان إلى الرعية والرفق بهم. وأرسلهم إلى

أمير المسلمين يوسف به تاشفين فأنزلهم بأغمات قريباً من مراكش، وهذا كله قد حدث بأقل من نصف سنة من عام ٤٨٤، وفي العام التالي دخل المرابطون بإمرة يوسف به داود بن عائشة مدينة المرسية، ودانية وشاطبة والمرية وبلنسية وكان صاحب الأخيرة القادر بن ذي النون يخضع للألفونس السادس ويدفع له أتاوةً سنويةً.

وتوفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ وخلفه ابنه علي، وكان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم، ويسند إليهم مناصب الدولة، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما اتصف به يوسف بن تاشفين منه الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الاسكندرية وأخذ في الاستعداد للرحيل، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب، ويستمع إلى الموعظة في خشوع، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ[1].

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والأندلس مدة خمسين سنة.

٩ ـ اليمن:

استقر حكم الصليحيين في اليمن ودانت لهم المناطق كلها، بل استولى الصليحيون على المدينة المنورة عام ٤٧٧، وكان سعيد الأحول بن نجاح قد فرّ إلى جزر دهلك، ورجع بعد مدة وقاتل المكرم بن علي الصليحي غير أنه قد هزم أمامه عام ٤٨١ ثم قتل، وفرّ أخوه جياش بن نجاح إلى الهند.

عاد جياش بن نجاح من الهند بعد سنتين، وقاتل المكرم بن علي الصليحي، واستطاع أن ينتصر عليه وأن يعود إليه حكم اليمن. أما المكرم الصليحي فقد

(١) تاريخ الإسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ الجزء الرابع.

توفي عام ٤٨٤ وهو في طريقه إلى صنعاء، وقد أوصى في الملك من بعده لزوجته أروى بنت أحمد الصليحي[١]، وفي الدعوة إلى ابن عمه سبأ بن أحمد ابن المظفر بن علي الصليحي، وقد تزوج سبأ أروى بعد وفاة المكرم بخمسة أشهر بعد أخذ الإذن من الخليفة العبيدي المستنصر حسب اقتراحها، وحكم سبأ الصليحيين حتى عام ٤٩٢، والتقى مع بني نجاح في عدة معارك.

وتبعت عدن الصليحيين بعد أن أخذوها من عمال بني معن، وولّى علي بن محمد الصليحي على عدن أحد أبناء أسرته وهو أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي والد أروى، ثم توفي أحمد بن جعفر بسبب انهدام منزله عليه، فتولى أمر عدن للصليحيين علي بن محمد بن معن، ولما توفي خلفه ابنه معن بن علي فخلع طاعة المكرم الصليحي عام ٤٦٧ وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً على عدن.

وفي عام ٤٧٠ غزا المكرم الصليحي عدن، وطرد معن بن علي وولّى عليها العباس والمسعود ابني المكرم اليامي الهمداني المعروفين بابني الزُّريع واستمر لها الأمر حتى توفي العباس عام ٤٧٧ فخلفه ابنه زريع بن العباس، وتوفي المسعود عام ٤٨٠ فخلفه ابنه أبو الغارات بن المسعود الذي توفي عام ٤٨٥ فخلفه ابنه محمد حتى عام ٤٨٨. كما توفي الزريع بن العباس عام ٤٨٠ فخلفه ابنه أبو السعود ابن الزريع واستمر في حكمه حتى عام ٤٩٤[٢].

(١) أروى بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي، توفي أبوها عامل الصليحي على عدن، وكانت طفلة صغيرة، فكفلها الصليحي وربتها زوجه أسماء بنت شهاب، فلما كبرت زوجها المكرم بن الصليحي، كانت راجحة العقل، حسنة التدبير للملك.

(٢) انظر اليمن عبر التاريخ - أحمد حسين شرف الدين.

-٢٨-

المستظهر بالله
أحمد بن عبد الله المقتدي
٤٨٧ - ٥١٢

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدي بالله، ولد في شوال من عام ٤٧٠، كان خيراً فاضلاً ذكياً بارعاً. كتب الخط المنسوب، وكانت أيامه ببغداد كأنها أعياد، وكان راغباً في البر والخير، مسارعاً إلى ذلك، لا يرد سائلاً، وكان جميل العشرة لا يصغي إلى أقوال الوشاة من الناس، ولا يثق بالمباشرين، وقد ضبط أمور الخلافة جيداً، وأحكمها وعلمها، وكان لديه علم كثير، وله شعر حسن[١]. ومن العجب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد مات بعده المستظهر هذا، في سادس عشر ربيع الآخر، وله من العمر إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً[٢].

بويع بالخلافة عند وفاة أبيه وعمره سبع عشرة سنة، وفي أيامه بدأت الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي.

وتوفي عام ٥١٢.

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

أصبح بركيارق سلطان السلاجقة في بغداد عام ٤٨٧، وكان عمه تُتُش تاج الدولة صاحب دمشق قد طمع بالسلطنة وسار بالجيش نحو بغداد، ووجد آق سنقر[1] صاحب حلب نفسه مضطراً إلى الانضمام إليه لعدم إمكانية مقاومته، وكذا صاحب الرها بوزان هذا بالإضافة إلى أن استقرار سلطنة بركيارق قد جاءت متأخرة، وقد استطاعت قوات تُتُش والأمراء المتحالفين معه الاستيلاء على أكثر مدن الجزيرة، وهزموا جيوش بني عقيل في الموصل، ثم اتجهوا إلى أذربيجان لملاقاة بركيارق، وما أن التقى الجيشان حتى استطاع آق سنقر أن يلعب دوراً لمصلحة بركيارق إذ أقنع بعض الأمراء بضرورة الوفاء لسلطانهم فانسحبوا من جيش تتش وانضموا إلى جيش بركيارق، وهذا ما أضعف تتش فانسحب بمن معه إلى بلاد الشام.

(١) كان آق سنقر مملوكاً تركياً من مماليك ملكشاه، وقد تربى معه منذ الصغر. فلما تولى ملكشاه السلطنة عام ٤٦٥ بلغ آق سنقر عنده منزلة رفيعة إذ كان يعتمد عليه في المهمات، وفي عام ٤٧٦ أمره ملكشاه أن يسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة للاستيلاء على الموصل من بني عقيل. كما سار عام ٤٧٩ مع ملكشاه للسيطرة على حلب من نواب آل عقيل فلما تم لهم ذلك أعطاه ولايتها، ولقبه قسيم الدولة، كما لقبه الحاجب. تسلم آق سنقر حلب وأعمالها مثل منبج واللاذقية وحماه، ثم فرض طاعته على شيزر عام ٤٨١ ثم ضم إليه حمص عام ٤٨٣، وأقطعه أفاميا عام ٤٨٤، وقتل في ٩ جمادى الأولى عام ٤٨٧.

أمر بركيارق قائده الجديد آق سنقر بالتوجه إلى حلب والتضييق على عمه تتش، وأمده بقوة كبيرة، وسار تتش نحو آق سنقر والتقيا على مقربة من حلب، وهزم آق سنقر وأسر وقتل. «اتبع آق سنقر مع سكان ولايته سياسةً عادلةً، فأحسن السيرة فيهم، ونشر العدل بينهم، وكان شديد التقوى، عميق الإيمان، أنفق الكثير من الأموال على إعمار مسجد حلب، وأقام الحدود الشرعية في بلاده، وكان ـ كما وصفه ابن واصل ـ «ذا وفاء عظيم، وحسن عهد، ومروءة غزيرة. وإنما كان قتله وفاءً لسلطانه وربّ نعمته، ملكشاه، وحفظاً لولده ـ بركيارق ـ من بعده[1].

وسار تتش بعد ذلك لقتال ابن أخيه بركيارق في الري غير أنه هزم وقتل وابنه دقاق وكان قتله على يد أحد مماليك آق سنقر. وكان يوسف بن أبق التركماني قد سار إلى بغداد ليدعو إلى تتش فلما وصل إليه خبر مقتل تتش عاد إلى دمشق وامتلكها، وكان عبد الله بن تتش في حلب، ورضوان بن تتش في حماه.

وثار في خراسان أرسلان أرغون بن ألب أرسلان على ابن أخيه بركيارق فحاربه عام ٤٩٠ غير أن أرسلان أرغون قد قتل، وسلم بركيارق أخاه سنجر بلاد خراسان مكان عمه المقتول.

كان مؤيد الملك بن نظام الملك من أنجب أبناء نظام الملك، وكان وزير بركيارق غير أن بركيارق لم يلبث أن عزله وولّى مكانه أخاه عز الملك وأبا الفتح علي بن الحسين الطغرائي الشاعر المعروف فأصبح مؤيد الملك عدواً لبركيارق، واستطاع أن يؤثر على الخليفة فيقلد السلطنة إلى محمد أخي بركيارق وقد لقبه «غياث الدنيا والدين»، وقد طالت الحروب التي نشبت بين الفريقين حتى زادت على خمس سنوات، يتصالحان ثم يعودان إلى القتال.

(١) عماد الدين زنكي ـ عماد الدين خليل.

توفي عام ٤٩٨ بركيارق فخلفه ابنه ملكشاه ولقبه الخليفة جلال الدولة غير أنه كان صغيراً لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولم يتم له الأمر سوى شهر حتى عزل وخلا الجو لمحمد بن ملكشاه وبقي في السلطنة حتى عام ٥١١ ولعل أهم الحوادث التي وقعت في أيامه:

١ ـ مناوأة ابن عمه أياز الذي حاول استلام السلطنة.

٢ ـ حرب صدقة بن مزيد صاحب البصرة والحلة وواسط الذي انضم إلى الأمير ابن أياز، وقد استولى على تكريت عام ٤٩٩، وانتصر على السلاجقة ثم هزم، وقتل في عام ٥٠١ كما أسر ابنه دبيس، وهرب ابنه الآخر إلى الحلة.

وكان صدقة بن مزيد جواداً حليماً صدوقاً، كثير البر والاحسان، ما برح ملجأ لكل ملهوف، يلقى من يقصده بالبر والتفضيل، ويبسط قاصديه ويزورهم. وكان عادلاً، والرعايا معه في أمن ودعة. وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها، فما ظنك بغير هذا، ولم يصادر أحداً من نوابه، ولا أخذهم بإساءة قديمة، وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزائنه، ويدلون عليه ادلال الولد على الوالد، ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له، وكان متواضعاً محتملاً يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا. وعاد السلطان إلى بغداد، ولم يصل إلى الحلة، وأرسل إلى البطيحة أماناً لزوجة صدقة وأمرها بالظهور، فأصعدت إلى بغداد فأطلق السلطان ابنها دبيساً، وأنفذ معه جماعة من الأمراء إلى لقائها فلما لقيها ابنها بكيا بكاءً شديداً، ولما وصلت إلى بغداد أحضرها السلطان واعتذر من قتل زوجها، وقال: وددت أنه حمل إلي حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس به من الجميل والاحسان لكن الأقدار غلبتني، واستحلف ابنها دبيساً لأنه لا يسعى بفساد[1].

(١) الكامل في التاريخ

٣ ـ الحروب مع الباطنية: كثر أتباع الباطنية في أصبهان عام ٤٩٢ ثم انتشروا إلى العراق بسبب الخلاف على السلطنة بين بركيارق ومحمد، فلما صفا الجو للسلطان محمد جرد حرباً على الباطنية واستطاع عام ٥٠٠ أن يحتل قلعة أصبهان.

٤ ـ القتال مع الصليبيين: إذ أرسل السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه جيشاً كثيفاً، وسار فيه أيضاً أمراء الموصل والجزيرة، واتجهوا إلى بلاد الشام، وحاصروا الرها غير أنهم لم يتمكنوا من دخولها، وتابعوا سيرهم... وسار معهم سلطان بن منقذ أمير شيزر، كما حصل قتال عام ٥٠٧ عند طبريا وانتصر فيه المسلمون، وقد قتل يومئذ مودود صاحب الموصل بدمشق على يد أحد الباطنيين. كما أمر بتسيير الجيوش عام ٥٠٩ لحرب الصليبيين.

وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً، وتوفي عام ٥١١ وخلفه ابنه محمود وكان عمره أربع عشرة سنة.

٢ ـ دولة خوارزم:

لما مات أنوشتكين خلفه ابنه قطب الدين، وكان ذا همة عالية فعينه السلطان بركيارق حاكماً على بلاد خوارزم، ولقبه شاه أي ملك، وعندما ملك سنجر خراسان أقر قطب الدين على ما تحت يده، وبقي مدة حياته خاضعاً للسلطان إذ توفي عام ٥٢١.

وفي بلاد ما وراء النهر قبل أحمد خان صاحب سمرقند لأنه أظهر الزندقة فقبض عليه الأمراء، وأحضروا الفقهاء، فأفتوا بقتله فقتل.

٣ ـ الغزنويون:

توفي ظهير الدين ابراهيم بن مسعود عام ٤٩٢ وخلفه ابنه مسعود الثالث وظل حتى عام ٥٠٨ إذ توفي وخلفه أبناؤه الثلاثة:

١ ـ شيرزاد: ولقب كمال الدولة وتوفي عام ٥٠٩.

٢ ـ أرسلان، ولقب سلطان الدولة وتوفي عام ٥١٣.

٣ ـ بهرام شاه، ولقب يمين الدولة، واستمر في حكمه حتى عام ٥٤٧.

٤ ـ العبيديون:

توفي بدر الجمالي صاحب جيوش مصر، ومدبر المملكة العبيدية عام ٤٨٧ وكان عاقلاً كريماً محباً للعلماء، وقام مقامه ابنه الأفضل، ثم توفي المستنصر العبيدي في العام نفسه، وكان قد عهد إلى ابنه الأكبر نزار إلا أن الأفضل بن بدر الجمالي قد خلع نزاراً وولى مكانه أخاه الأصغر أحمد ولقبه المستعلي، فهرب نزار إلى الاسكندرية وتحصن بها وأخذ البيعة فيها لنفسه، فسار إليه الأفضل وتمكن من هزيمته وأسره، وسجنه بين جدارين إلى أن مات واستقر الأمر للمستعلي.

وفي عام ٤٩٠ خطب للعبيديين لمدة شهر في حلب وانطاكية والمعرة وشيزر ثم أعيدت الخطبة للعباسيين.

وتوفي المستعلي عام ٤٩٥ وعمره ثمان وعشرون سنة، وقد حكم منها ما يزيد على السنوات السبع، وخلفه ابنه المنصور أبو علي وعمره خمس سنوات ولقب الآمر بأحكام الله، وقام بتدبير الدولة الأفضل بن بدر الجمالي.

ولما خلع نزار لم تعترف جماعة من الاسماعيلية بخلافة المستعلي، وبقيت بجانب نزار، ولما مات بقيت على رأيهم الخلافة أو الإمامة في عقبه، وتعرف هذه المجموعة بالإسماعيلية الشرقية ومنها الحشاشون جماعة الحسن بن الصباح أو الذين عرفوا بالباطنية كجزء من كل، وهم الذين كانوا لهم الدور الكبير في الاغتيالات السياسية التي تعرض لها كثير من زعماء المسلمين وهم على ثغور الجهاد ضد النصارى في الحروب الصليبية أو في أماكنهم.

٥ ـ آل زيري:

توفي تميم بن المعز بن باديس عام ٥٠٢ وكان من خيار الملوك حلماً وكرماً

وإحساناً ملك ستاً وأربعين سنة، وعمر تسعاً وتسعين سنة وملك بعده ابنه يحيى[1]. وفي هذه السنة في رجب توفي تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية وكان شهماً شجاعاً ذكياً له معرفة حسنة، وكان حليماً كثير العفو عن الجرائم العظيمة وله شعر حسن[2].

قام يحيى[3] بالأمر وكان من قبل والياً على المهدية منذ عام ٤٩٧ من قبل أبيه، ولما استقل جعل الخطبة للعبيديين وكانت للعباسيين. كان عاقلاً شجاعاً محباً للفتح، بنى أسطولاً ضخماً غزا به جنوه وسردينيا، وطلب على أهليها الجزية. وله اطلاع على الأدب، كان يقول الشعر، وتركه بعد أن تولى. مولده ووفاته في المهدية. كان قد نفى بعض إخوته من بلاده فاحتال عليه ثلاثة منهم وأثخنوه بجراح سنة ٥٠٧ ومات بعد ذلك فجأة عام ٥٠٩[4] يوم عيد الأضحى وخلفه ابنه علي، وحدثت معارك بينه وبين الأعراب، واشتد ما بينه وبين روجر الثاني صاحب صقلية فأعد عدته ليهاجم صقلية فعاجلته المنية وكان شجاعاً حازماً توفي عام ٥١٥.

أما بنو حماد في بجاية فقد توفي عام ٥٠٠ باديس بن المنصور وخلفه أخوه العزيز.

٦ ـ المرابطون والأندلس:

عندما توفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ بويع بعده ابنه علي ولم يكن أكبر إخوته، وكان أبوه قد جعله ولياً للعهد وأخذ البيعة له في قرطبة عام ٤٩٧ وأوصاه بالإحسان إلى أهل قرطبة وإلى قبيلة مصمودة ومهادنة بني هود ملوك سرقسطة.

---

(١) البداية والنهاية.
(٢) الكامل في التاريخ.
(٣) ولد يحيى بالمهدية عام ٤٥٧.
(٤) الأعلام للزركلي.

نازع علي بن يوسف ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف صاحب فاس، فسار إليه ففر من وجهه. تطلع علي إلى القضاء على مقاومة النصارى وخاصة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي أصبح يغير على أطراف بلاد المسلمين في الأندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين، فولّى علي أخاه تميم على غرناطة وجعله قائد الجيش المرابطي في الأندلس، وقد استطاع تميم أن ينتصر على النصارى انتصاراً كبيراً في معركة «اقليش» التي تعد من أكبر المعارك بعد «الزلاقة»، وذلك عام ٥٠٢، وقد قتل في «اقليش» ابن ألفونس السادس قائد جيش النصارى ومعظم من كان معه من الأمراء، ونحو عشرة آلاف من جنده، وعندما وصل خبر المعركة إلى علي بن يوسف فرح فرحاً شديداً وقرر المسير إلى الأندلس والقضاء على شأفة النصارى فيها. فاجتاز بحر الزقاق عام ٥٠٣ وسار إلى قرطبة ومنها توجه للجهاد واستطاع أن يفتح ثمانية وعشرين حصناً من حصون النصارى من بينها حصن مجريط (وهي اليوم مدينة مدريد) ثم حاصر طليطلة شهراً كاملاً لكنه لم يتمكن من دخولها. كما سار إلى الجهاد عام ٥٠٤ واستطاع أن يفتح عدة حصون في غرب الأندلس من بينها أشبونه (لشبونة)، كما هزم النصارى هزيمة منكرة عام ٥٠٥ وأسر عدداً كبيراً، وحصل على غنائم لا تحصى، غير أن النصارى قد استطاعوا عام ٥١٣ أن يستولوا على مدينة سرقسطة وأن يدخلوا قلعة أيوب في شرقي بلاد الأندلس التي تعد من أقوى القلاع وأحصنها، وربما كان لسقوط هذه القلعة بيد النصارى أثر على ضعف المرابطين.

وفي عام ٥١٤ وقعت فتنة بين أهل قرطبة وجند المرابطين أدت إلى فرار الوالي المرابطي ثم قدوم علي بن يوسف من المغرب واستنكاره لما وقع، وتم الصلح.

٧ - اليمن:

في عام ٤٨٣ عاد جياش بن نجاح من الهند إلى زبيد وملكها واستمر في حكمها حتى عام ٤٩٨ حيث خلفه ابنه فاتك بن جياش حتى عام ٥٠٣، حيث تولى بعده ولده منصور بن فاتك حتى عام ٥٢١.

أما الصليحيون فكان أميرهم سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي تزوج أروى بنت أحمد الصليحي، وتوفي سبأ عام ٤٩٢، فبقيت سيدة الموقف أروى وقد خرج عن طاعتها ابن نجيب واليها على جند فوجهت إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً أسره وجاء به للسيدة أروى مستغفراً طائعاً، وكان الخليفة العبيدي يطلبه فرفضت تسليمه، ثم إن أعداءه قد عظموا للسيدة أروى خلافها للعبيديين فأرسلته وأرسلت الى الخليفة العبيدي تستعطفه في الإحسان إليه. وتوفيت أروى عام ٥٣٢ في مدينة (ذي جبلة).

وفي عدن كان بنو زريع يحكمونها وكان في هذه الأونة أبو السعود بن زريع الذي توفي عام ٤٩٤، ومن جهة ثانية كان محمد بن أبي الغارات الذي توفي عام ٤٨٨ فخلفه ابنه علي وقد حاربه سبأ بن أبي السعود قرابة عامين واستطاع سبأ أن ينتصر على خصمه وأن يحكم المنطقة كاملة، وقلده الخليفة العبيدي بمصر الدعوة لذا لقب بالداعي، وتمكن أن يقتل أبناء عمه أولاد ابن أبي الغارات جميعاً، واستمر سبأ في حكمه عدن حتى عام ٥٣٢.

الصليبيون

إن الحقد النصراني على الإسلام والمسلمين والذي امتد عدة قرون بسبب الانتصارات الإسلامية على النصرانية وانتزاع أجزاء واسعة من أملاك النصرانية في بلاد الشام وشمالي إفريقية، وقد كان هذا الحقد مع كل انتصار جديد يحققه الإسلام، ولما كانت النصرانية وأبناؤها عاجزةً عن القيام بردة فعل لذا فقد انتظرت حتى تمرّ موجة الفتوة الإسلامية ولكن زاد انتظارها وطالت مدة هذا المدّ الإسلامي فعندما بدأ الضعف يظهر على المسلمين أرادت النصرانية أن تقوم بردة الفعل السريع وشجعها على ذلك.

الخوف من عودة القوة إلى المسلمين بعد الانتصارات التي أحرزها السلاجقة عام ٤٦٣ في معركة ملاذكرت بقيادة ألب أرسلان، والانتصار في معركة الزلاقة في الأندلس عام ٤٧٩ بقيادة يوسف بن تاشفين، والانتصارات التي تلتها، فخافت النصرانية من عودة الروح من جديد لتدب في العالم الإسلامي الذي يتوسع باستمرار وتدخل الإسلام مجموعات محاربة جديدة مثل السلاجقة والمرابطين، وخاصةً بعد تدفق السلاجقة في آسيا الصغرى.

وشجعها دخول عناصر بربرية محاربة في النصرانية وهي القبائل التي كانت تنتقل في أوربا وهذا ما أدى إلى ظهور روح حربية جديدة تدعم النصرانية، ومن هذه المجموعات، المجموعة الجرمانية والمجرية، وإن دخول المجر في النصرانية قد جعل الشعوب النصرانية على اتصال بعضها مع بعض من الغرب إلى الشرق في آسيا الصغرى.

وشجعها بعض الانتصارات التي حصلت عليها الإمارات الإيطالية إذ تغلبت على أمراء البحر المسلمين الذين كانوا يعيقون عمل السفن الإيطالية في البحر الأبيض المتوسط إن لم تستجب لمطالبهم، فكانت هذه الإمارات الإيطالية ترغب في نشر تجارتها في البحر المتوسط، وبانتصارها على البحارة المسلمين زاد في رغبتها بل في محاولة إظهار قوتها ومدّ نفوذها إذ غدت لها قوة في البحر المتوسط تستطيع أن تستفيد منها في نقل جنودها وتحرك سفنها في هذا البحر. ومن الانتصارات التي شجعتها أيضاً احتلال النورمانديين جنوب إيطالية وجزيرة صقلية وطرد المسلمين منها عام ٤٨٤.

وشجعها الضعف الذي حصل على دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه عام ٤٨٥ فأحبت النصرانية أن تهتبل هذه الفرصة قبل العودة إلى القوة ثانيةً، وخاصة أن العبيديين الذي هزموا أمام السلاجقة وتخلوا عن بيت المقدس عام ٤٧١، ورأوا زيادة قوة السلاجقة خصومهم في العقيدة أيضاً لذا قد استنجدوا ببعض أمراء أوربا لدعمهم ضد السلاجقة.

ولعل أهم الجوانب النصرانية التي دفعت بالموضوع هي النفوذ الذي حصل عليه البابا اربان الثاني الذي اختير بابا لروما عام ٤٨١ إذ أصبح السيد المطاع بين الشعوب النصرانية بل وبين الأمراء، وهذا ما يجعله أهلاً لأن يستغل نفوذه لدى النصارى ويدعوهم للحرب الصليبية فدعا إلى اجتماع لرجال الدين عام ٤٨٩ في كليرمونت بفرنسا ودعا إلى الحرب الصليبية ونادى الأمراء بترك الخلافات القائمة بينهم، وقدّم لهم الصليب، وجعل مبرراً لهذه الحرب ما يقوم به السلاجقة من مضايقة للحجاج النصارى الذين يريدون بيت المقدس، وطلب أن يحتل النصارى بيت المقدس، وساهم بهذه الدعوة بطرس الناسك، وسار بجموع المتطوعين وسبق جيوش الأمراء النصارى النظامية، ولما كان هؤلاء المتطوعون [illegible] بلا نظام فقد [illegible] الفوضى والدمار لكل المناطق التي مروا

[illegible]

وصلوا إلى بلاد المسلمين صبوا جام غضبهم فأهلكوا الزرع والضرع وأحرقوا الأخضر واليابس وعاثوا في الأرض الفساد وقتلوا ومثلوا وانتهكوا من الحرمات ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا ذلك وتصدى لهم السلاجقة فالتقوا بهم في نيقية فأفنوهم عن بكرة أبيهم عام ٤٨٩. وكان امبراطور القسطنطينية قد أراد أن يتقي شرهم فساعدهم الى السير إلى آسيا الصغرى والتقدم إلى نيقية.

في هذه الأثناء كانت جيوش الأمراء النظامية تتحرك نحو القسطنطينية وقد أمر البابا أن تجتمع خارج أسوار القسطنطينية، ولم تكن هذه الجيوش أقل حقداً من الأولى وأقل فساداً ودماراً، كما لم يكن لها قائد واحد ينظمها ويصدر أوامره لها جميعاً وإن كان لها عدد من القواد أغلبهم من فرنسا، ولم يكن لهؤلاء القادة خطة واحدة، ولم يشترك ملوك أوربا في هذه الحملة لأن ملوك نصارى الأندلس كانوا مشغولين بقتال المسلمين، ولأن ملك فرنسا فيليب الأول وملك ألمانيا هنري الرابع كانا مطرودين من رحمة الكنيسة. بلغ عدد المشتركين النصارى في هذه الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الأولى أكثر من مليون غير أن عدد المقاتلين لم يزد فيها على ثلاثمائة ألف والباقي إنما هم من المرافقين من الرجال والنساء.

وصلت هذه الحملة الصليبية إلى أبواب القسطنطينية وخاف امبراطورها منهم فاتفق مع بعض القادة على أن يمدهم بالمؤن والذخيرة على أن لا يدخلوا المدينة وأن يردوا عليه ما يستولون عليه من أملاكه. فاجتازوا البوسفور، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها، ونقل أميرها قلج أرسلان مقره إلى قونية، واتفق مع الامبراطور أن يدخل جنده نيقية دون القادمين من أوربا وبهذا غضب الصليبيون لأن الامبراطور بهذا التصرف لم يسمح لهم بنهب المدينة وبهذا يكون الامبراطور البيزنطي قد دعم الصليبيين بكل قوته وسار معهم نحو نيقية، وحصل خلاف بين الصليبيين القادمين من أوربا والبيزنطيين إذ وجد الامبراطور أنه لا يستطيع التفاهم مع هؤلاء القادمين فانصرف لاسترداد آسيا

الصغرى من السلاجقة فاتجه نحو الغرب ودخل أزمير وأفسوس وأخذها من أمراء السلاجقة فيها لانقطاعهم عن دولة السلاجقة، ولم يعد يدعم الصليبيين بل حرص أن يضمّ له ما أخذوه هم. فكان دعمه بقتال المسلمين بجهات ثانية ثم بعد مدة عادة لتقديم الدعم.

اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعض فاتجه بعضهم إلى الرها تلبية لدعوة أميرها فدخلها وأسس بها إمارة نصرانية لاتينية وكان يطمع بتأسيس دولة صليبية في أرمينيا وقد دعمه في الأمر الأرمن. وسار باقي القادة إلى انطاكية فألقوا الحصار عليها ودخلوها عنوة عام ٤٩١ بعد حصار دام سبعة أشهر وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلاف، ومثلوا بالقتل وبالناس، وفعلوا أبشع الجرائم، وولوا عليها أحدهم وقد استقبل النصارى من أهلها والأرمن الصليبيين بكل ترحاب، ثم اتجهوا بعدها نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم كربوقا صاحب الموصل، وصاحب دمشق دقاق، وصاحب حمص جناح الدولة غير أن الصليبيين قد انتصروا عليهم ودخلوا معرة النعمان، ووصلوا إلى بيت المقدس ودخلوها عام ٤٩٢ فقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً وخاضت خيولهم ببحر من الدماء، وانتخب غودفري ملكاً على بيت المقدس، وأخذ لقب حامي قبر المسيح. وكان العبيديون قد استغلوا تقدم الصليبيين من الشمال فتقدموا هم من الجنوب ودخلوا القدس وطردوا السلاجقة منها (قبل وصول الصليبيين إليها) وجرت مفاوضات بين الأفضل بن بدر الجمالي الوزير العبيدي وبين الصليبيين على أن يكون شمال بلاد الشام للصليبيين وجنوبها للعبيديين ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر.

لقد فقدت هذه الحملة أكثر مقاتليها فقد جاءت بثلاثمائة ألف مقاتل، ودخلت إلى القدس بأربعين ألف مقاتل فقط، ومهما بالغنا بعدد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلى الرها فإن عددهم لا يزيد على أربعين ألفاً، وبهذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاءوا في الحملة الأولى ما يقرب من

لمائتي ألفاً، ويكونوا قد فقدوا مائتين وعشرين ألفاً، قتلوا في المعارك، وقتلوا على أيدي الناس الذين كانوا يثورون على تصرف هؤلاء القادمين، يثورون على كره، ورغم خوفهم الشديد، ورغم معرفتهم بمصيرهم، يثورون لأن تصرف الصليبيين كان على درجة من السوء والوقاحة والقباحة ما يثير أية نفس مهما بلغ بها الذل والخوف.

وبسيطرة الصليبيين على بيت المقدس ارتفعت معنويات سكان الإمارات الإيطالية فبدأت سفنهم تجوب أطراف البحر المتوسط وتقدم المساعدات والدعم للصليبيين فاستطاعوا أن يأخذوا حيفا وقيسارية عام ٤٩٤، وأخذوا عكا عام ٤٩٧، وأخذوا طرابلس عام ٥٠٣ بعد حصار سنتين، كما أخذوا جبلة في العام نفسه، ثم أخذوا صيدا عام ٥٠٤. وطلب المسلمون هدنة فرفض ذلك الصليبيون ثم وافقوا مقابل مبالغ كبيرة يدفعها لهم المسلمون، وبعد أن استلموا الأموال غدروا بالمسلمين وذلك عام ٥٠٤ هـ. وحاصر الصليبيون مدينة صور عام ٥٠٥ وكانت بيد العبيديين فأمدهم بالمؤن والمساعدات طغتكين صاحب دمشق فامتنعت صور عن الصليبيين.

أما من جهة الداخل فقد جاء الصليبيون من جهة الجنوب فالتقى بهم صاحب دمشق أمين الدولة وهزمهم ولاحق فلولهم الذين وصل بعضهم إلى ملاطية وقد استطاع أن يدخلها وأن يتملكها وذلك عام ٤٩٣.

وهاجم الصليبيون دمشق من جهة الشمال عام ٤٩٧ ولكنهم هزموا وأسر أمير الرها الصليبي، غير أنهم استطاعوا في العام نفسه أن يدخلوا حصن أفاميا.

لقد دعم العبيديون الصليبيين في أول الأمر، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ضد السلاجقة خصومهم، وقد ذكرنا أنهم اتفقوا معهم على أن يحكم الصليبيون شمالي بلاد الشام ويحكم العبيديون جنوبيها، وقد دخلوا بيت المقدس، غير أن الصليبيين عندما أحسوا بشيء من النصر تابعوا تقدمهم واصطدموا بالعبيديين وبدأت الخلافات بينهما فالعبيديون قد قاتلوا الصليبيين

دفاعاً عن مناطقهم وخوفاً على أنفسهم ولم يقاتلوهم دفاعاً عن الإسلام وحماية لأبنائه، ولو استمر الصليبيون في اتفاقهم مع العبيديين لكان من الممكن أن يتقاسموا وإياهم ديار الإسلام.

لقد استقبل سكان البلاد من النصارى والأرمن الصليبيين استقبالاً حاراً ورحبوا بهم ترحيباً كبيراً وقد ظهر هذا في أثناء دخولهم انطاكية وبيت المقدس، كما قد دعموهم في أثناء وجودهم أيام وجودهم في البلاد وقدموا لهم كل المساعدات، وقاتلوا المسلمين، وكانوا عيوناً عليهم للصليبيين.

وتشكلت أربع إمارات صليبية في بلاد الشام وهي:

إمارة في الرها ـ إمارة في طرابلس، إمارة بيت المقدس ـ إمارة انطاكية.

لم يجد الصليبيون الأمن والاستقرار في بلاد الشام في المناطق التي سيطروا عليها وشكلوا فيها إمارات رغم انتصارهم، إذ كان السكان المسلمون ينالون منهم كلما سنحت لهم الفرصة، كما يغير عليهم الحكام المسلمون في سبيل إخراجهم من البلاد، ودفاعاً عن عقائدهم ومقدساتهم التي كان الصليبيون ينتهكونها.

-٢٩-

المسترشد بالله

الفضل بن أحمد المستظهر

٥١٢ - ٥٢٩

هو الفضل بن أحمد المستظهر، أبو منصور، المسترشد بالله: ولد في ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأمه أم ولد، بويع بالخلافة عند موت أبيه في ربيع الثاني سنة أثني عشرة وخمسمائة فكان عمره يومذاك سبعاً وعشرين سنة.

كان ذا همة عالية، وشهامة زائدة، وإقدام ورأي، وهيبة شديدة، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيى رسم الخلافة ونشر عظمها، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها، وباشر الحروب بنفسه[1]. وقال ابن كثير: وقد كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمة فصيحاً بليغاً، عذب الكلام حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رؤي خطيباً، قتل وعمره خمس وأربعون سنة، وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً[2].

حدث خلاف بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود السلجوقي فسار أحدهما للآخر والتقى الجمعان، ففر كثير من عسكر الخليفة فانتصر مسعود وثبت الخليفة فأسر ومعه عدة من خاصته فساقهم مسعود إلى همدان وسجنهم بقلعة قريبة، ولما وصل الخبر إلى أهل بغداد حثوا التراب في الأسواق

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

على رؤوسهم، وبكوا وضجوا وخرجت النساء سافرات يندبن الخليفة، ومنعوا الخطبة.

ووصل الخبر إلى السلطان سنجر السلجوقي عم السلطان مسعود وعلم ما فعله أهل بغداد بأنفسهم فكتب كتاباً إلى ابن أخيه يقول فيه: ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين، ويقبّل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح، ويتنصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة: من العواصف، والبروق والزلازل، ودام ذلك عشرين يوماً، وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خفت على نفسي من جانب الله، وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع، ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله تتلافى أمرك، وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزّه، وتحمل الغاشية بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، ففعل مسعود جميع ما أمره به، وقبّل الأرض بين يدي الخليفة، ووقف يسأل العفو.

ثم أرسل سنجر رسولاً آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى مقرّ عزّه، فجاء في العسكر سبعة عشر من الباطنية، فذكر أن مسعوداً ما علم بهم، وقيل: بل علم بهم، وقيل: بل هو الذي دسّهم، فهجموا على الخليفة في خيمته، ففتكوا به، وقتلوا معه جماعةً من أصحابه، فما شعر بهم العسكر إلا وقد فرغوا من شغلهم، فأخذوهم وقتلوهم إلى لعنة الله. وجلس السلطان للعزاء، وأظهر المساءة بذلك، ووقع النحيب والبكاء، وجاء الخبر إلى بغداد، فاشتد ذلك على الناس، وخرجوا حفاةً مخرّقين الثياب، والنساء ناشرات الشعور يلطمن ويقلن المراثي، لأن المسترشد كان محبباً فيهم لبره، ولما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم.

وكان قتل المسترشد ـ رحمه الله ـ بمراغة يوم الخميس سادس عشر ذي

القعدة سنة تسع وعشرين[1]. وكان شاعراً، فقد قال يوم أسر:

ولا عجباً للأُسْدِ إنْ ظفرتْ بها ... كلابُ الأعادي من فصيحٍ وأعجمِ
فحربةُ وحشيٍّ سقتْ حمزةَ الردى ... وموتُ عليٍّ من حسامِ ابنِ ملجمِ

(١) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

أ - السلاجقة:

توفي السلطان محمد بن ملكشاه عام ٥١١ وخلفه ابنه محمود وكان عمره أربع عشرة سنة، وتوفي بعد ذلك الخليفة المستظهر عام ٥١٢، وشق الطاعة طغرل ابن محمد ملكشاه على أخيه محمود عام ٥١٣، كما دخل محمود في حرب دامية مع عمه سنجر الذي كان شيخ آل سلجوق يومذاك، وصاحب خراسان والمشرق، ويبدو أن محموداً كان الظالم لعمه. وانتصر سنجر عام ٥١٣، وبعد الهزيمة التي مني بها محمود سار إلى اصبهان على حين سار عمه سنجر إلى همدان، وراسل سنجر ابن أخيه محمود للصلح بينهما، والتقى به، وعفا عنه، وجعله ولي عهده، وقلده ولاية العراق، وزوجه ابنته.

وفي عام ٥١٤ خرج مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه محمود بعد أن رمى بينهما الواشون الذين حرضوا مسعود على أخيه لما رأوا من صغر محمود وهزيمة جنده أمام عمه سنجر، وتفرق جيشه، غير أن محموداً قد انتصر على مسعود ثم عفا عنه، وقلده ولاية بغداد.

حارب دبيس بن صدقة جند السلطان كما سار الخليفة إليه بنفسه فحلت الهزيمة بدبيس، ثم عاد فاستولى على البصرة، ثم التحق بالصليبيين وأطمعهم بدخول حلب، ثم عاد فالتحق بالسلطان طغرل بن محمد السلجوقي عام ٥١٩.

بعد أن قاتل الخليفة بنفسه دبيس خاف السلطان محمود من قوة الخليفة

ورغب بدخول بغداد فنصحه الخليفة بالتريث فظن محمود بالخليفة سوءاً فقرر دخول بغداد، فغادرها الخليفة وأهلها، وبكى الناس لخروجه، وعاد السلطان محمود فاستعطفه بالعودة ولم يقبل وحدث الخلاف بين الخليفة والسلطان وجرى بينهما القتال، وانتصر السلطان على الخليفة ودخل بغداد عام ٥٢١، ونهبت عساكره دار الخلافة.

عاد القتال إذ دخل الخليفة بغداد من جانبها الشرقي على رأس ثلاثين ألف مقاتل غير أن مغادرة أبي الهيجاء بجزء من جيش الخليفة وانضمامه إلى السلطان، ووصول عماد الدين زنكي أمير واسط لدعم السلطان كل هذا قد جعل الخليفة يميل إلى السلم، فعفا الخليفة عن السلطان، واعتذر السلطان للخليفة، وغادر بغداد عام ٥٢١ وتوجه إلى همدان، ثم عاد إلى بغداد عام ٥٢٣ ليقوم بالصلح بين الخليفة ودبيس بن صدقة وقد تم ذلك إلا أن دبيساً لم يلبث أن شق عصا الطاعة على الخليفة والسلطان معاً، فأرسل السلطان له جيشاً أجبره على الفرار والاختفاء مغادراً البصرة.

خالف مسعود أخاه السلطان محموداً وسار كل منهما إلى الآخر غير أنهما تصالحا وتوفي السلطان محمود في شوال ٥٢٥، وخلفه ابنه داود. كان محمود حليماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً أصحابه عن التطرق إلى شيء منها[1]. وكان متوقد الذكاء ملماً بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير[2]. وكان ميالاً إلى العفو فنلاحظ عفوه عن أخيه طغرل، وعن أخيه مسعود، واستعطافه للخليفة، وعفوه عن أهل بغداد وقد حاربوه، وأشار عليه بعض الناس بحرق مدينتهم. وقام بأمر عظيم وهو محاربة الباطنية واستطاع أن يدخل قلعة ألموت في فارس وقلعة بانياس في بلاد الشام، وهاتان القلعتان

(١) الكامل في التاريخ
(٢) وفيات الأعيان

من أقوى حصون الباطنية. وإن صغر سنه عند توليه الأمر قد أطمع فيه الأمراء فقاتلوه وانتصر عليهم، ثم عفا عنهم.

نازع مسعود بن محمد ابن أخيه داود بن محمود واحتل تبريز، ثم تصالحا وسار مسعود إلى بغداد وفي رغبته استلام السلطنة وطلب من الخليفة ذلك فاستشار الخليفة سنجر شيخ البيت السلجوقي فأشار عليه أن تكون الخطبة للخليفة وحده.

ذهب طغرل بن محمد إلى عمه سنجر في الري وتحدثا في رغبة مسعود في استلام السلطنة فسارا إلى مسعود والتقيا به في نهاوند، فهُزم مسعود وأخذ أسيراً مع وزيره وبعض أمرائه في عام ٥٢٦ . وحكم طغرل الري باسم عمه سنجر.

اقتتل داود مع عمه طغرل، وقد انتصر طغرل الذي اصطدم مع أخيه مسعود وانتصر مسعود الذي التقى مع ابن أخيه داود وانتصر عليه، وسار مسعود إلى بغداد ودخلها مع ابن أخيه داود واتفقا على أن يكون مسعود سلطاناً على السلاجقة وأن يكون ابن أخيه داود ولياً لعهده. ومات طغرل عام ٥٢٨ . أما مسعود فقد التقى مع الخليفة وأسره، وطلب سنجر من ابن أخيه إطلاق الخليفة والإحسان عليه ففعل على أن الباطنية قد قتلوا الخليفة عام ٥٢٩ .

٦ ـ خوارزم:

تسلّم أمر خوارزم قطب الدين محمد عام ٤٩٠ ، وقد أطاع السلاجقة وبخاصة سنجر الذي ملك خراسان ٥١٢ فأقره على ولايته، وتوفي قطب الدين عام ٥٢[illegible] وخلفه ابنه أتسز وسار سيرة أبيه لكنه طمع في الاستقلال وقام بثورة على سنجر فعزل عن ولايته غير أنه عاد واستلم ما كان تحت يده من قبل.

٣ ـ الغزنويون:

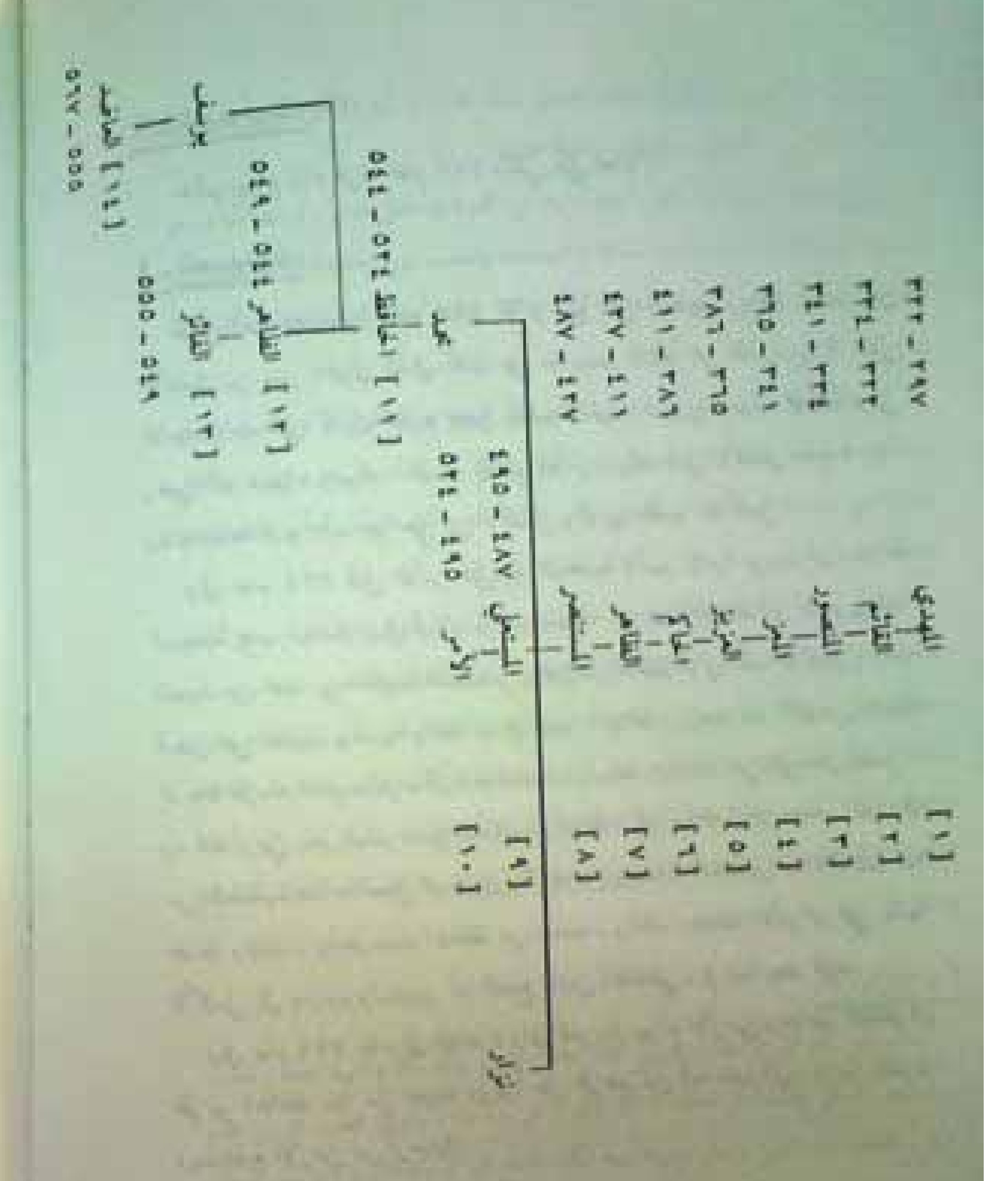
حكم بهرام شاه غزنة عام ٥١٢ وبقي على حاله.

٤ ـ العبيديون:

تولى أمر العبيديين عام ٤٩٥ الآمر أبو علي المنصور، وقد تخلص من الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان على ما يبدو مختلفاً عن العبيديين إذ ألغى الاحتفالات التي كانت تقوم بمصر بمناسبة المولد النبوي ومولد فاطمة وعلي رضي الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر، وقد قتل الأفضل عام ٥١٥ ، وقام مقامه ابنه أحمد أبو علي بن الأفضل والذي تلقب بالأكمل.

وفي عام ٥٢٤ قتل الآمر على يد الباطنية لأنهم كانوا يرون أن الخلافة العبيدية يجب أن تكون في أولاد نزار، وخلفه ابن عمه الحافظ أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن الخليفة المستنصر وبخلافة الحافظ قوي أمر الأكمل، وقد قبض على الخليفة وحبسه وأخذ ما في قصر الخلافة. ويبدو أنه كان من الشيعة إذ دعا للإمام الثاني عشر، كما دعا لنفسه، وأسقط عبارة «حي على خير العمل» و«محمد وعلي خير البشر» من الأذان، وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة، وهذا ما جعل العبيديين يكرهونه ويريدون التخلص منه فكمنت له جماعة وقتلته، وأخرجت الحافظ من سجنه، وأخذ الحافظ الأموال التي نقلها الأكمل إلى داره، واستوزر أبا الفتح يانس الحافظي، ثم ابنه بعد قتله.

وفي عام ٥٢٩ جاء إلى القاهرة والي الغربية بهرام الأرمني وحاصر القاهرة، فلم ير الحافظ بداً من تعيينه وزيراً على الرغم من أنه نصراني، وبدأ يتقوى ويستقدم الأرمن من أرمينية.



٥ ـ آل زيري:

بعد أن توفي الأمير علي بن يحيى عام ٥١٥ خلفه ابنه الحسن وكان عمره اثني عشرة سنة، وكان الوزراء يقومون بتدبير أمور الدولة، وقد جاء النورمانديون إلى قتال المسلمين وحاصروا جزيرة قوصرة، واستمر الصراع بين الأمير الحسن والنورمانديين مدة من الزمن.

أما إمارة بني حماد فقد توفي العزيز بن المنصور عام ٥١٥ وخلفه ابنه يحيى الذي بقي حتى قضي على الدولة الحمادية عام ٥٤٧.

٦ ـ المرابطون:

بدأت دعوة الموحدين عام ٥١٤ على يد محمد بن تومرت الذي ينتمي إلى قبيلة «هرغة»، أحد بطون قبيلة مصمودة التي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى، ويقول بالانتساب إلى رسول الله ﷺ، ومنهم من أيد هذا الانتساب ومنهم من أنكره، وكان يرى التأويل، وينكر على أهل المغرب في عدولهم عن التأويل، وقد سار إلى الشرق ودرس العلم، وعاد إلى المغرب والتقى بعبد المؤمن ابن علي الذي أصبح خليفته، وأصبح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد أخذ على المرابطين سفور نسائهم على عادة الملثمين، والتقى بعلي بن يوسف بن تاشفين، واجتمع بالعلماء، واختلف معهم، إلا أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يقبل أن يلحق به أذى لتقواه وورعه، وانتقل ابن تومرت إلى أغمات حيث أهله وقبيلته، وبدأ يعمل بدعوته وينتقد مفاسد المرابطين، وألف جيشاً ضم عدة قبائل كان مقره حصن تينمل، وبدأ يناوىء المرابطين وقد التقى الطرفان بمعركة البحيرة التي انتصر فيها المرابطون، وقتل فيها قائد الجيش الموحدي وأعداد كبيرة معه، وكان الجيش المرابطي بقيادة أبو بكر علي بن يوسف بن تاشفين. ومرض بعدها ابن تومرت وتوفي عام ٥٢٤ وخلفه عبد المؤمن بن علي في قيادة الموحدين، واستطاع أن يعيد للموحدين قوتهم وأن يستولي على أكثر بلاد السوس.

٧ ـ الأندلس:

مع ظهور قوة الموحدين ومناوأتهم للمرابطين، ضعفت قوة المرابطين في الأندلس، وعاد الخلاف بين ملوك الطوائف، وازداد تفكك المسلمين.

٨ ـ اليمن:

كان يحكم دولة بني نجاح منصور بن فاتك وقد توفي عام ٥٢١ وخلفه ابنه فاتك بن منصور، واستمر في حكمه حتى عام ٥٤٠.

أما الصليحيون فكانت أروى بنت أحمد الصليحي هي سيدة دولتهم، وكان ارتباطها بالعبيديين بمصر.

وفي عدن كان بنو زريع، وقد خلص للداعي سبأ بن أبي السعود حكم المنطقة، واستمر في حكمه حتى عام ٥٣٣.

وتغلب على صنعاء وما جاورها حاتم بن علي المغلّس الهمداني، وأطاعته قبائل همدان، وبقيت المنطقة في أيدي بني حاتم حتى استولى عليها الإمام المتوكل أحمد سليمان عام ٥٣٢، وقد تعاقب عليها السلاطين الآتية أسماؤهم:

١ ـ	حاتم بن علي الهمداني	٤٩٢ ـ ٥٠٢
٢ ـ	عبدالله بن حاتم	٥٠٢ ـ ٥٠٥
٣ ـ	معن بن حاتم	٥٠٥ ـ ٥١٠

وقد خلع معناً أحمد بن عمران بن المفضل اليامي بعد أن جمع قبائل همدان وجعل الإمارة في بني قبيب.

٤ ـ	هشام بن القبيب	٥١٠ ـ ٥١٨
٥ ـ	حماس بن القبيب	٥١٨ ـ ٥٢٧

ثم أقام أهل همدان بعد موت حماس بست سنوات حاتم بن أحمد بن عمر اليامي، وبدأ الصراع بينه وبين الإمام أحمد بن سليمان.

الصَليبيّون

لم يصف العيش للصليبيين في ديار الإسلام إذ كانوا يتعرضون للغارات باستمرار ولهجوم المسلمين بشكل دائم، فبعد أن دخلوا القدس عام ٤٩٢ ونقضوا ما كان بينهم وبين العبيديين من اتفاق في أن يحتل الصليبيون شمالي بلاد الشام ويأخذ العبيديون جنوبيها غير أن الصليبيين قد تجاوزوا هذا وأخذوا بيت المقدس غير مبالين بالعبيديين بعد أن شعروا بالنصر، وساروا نحو هدفهم وهو بيت المقدس غير مهتمين بالنتائج وما تؤول إليه، عندما تصرفوا هذا التصرف كانوا مخطئين سياسياً وغير مقدرين للظروف إذ أصبح الهجوم يأتيهم من قبل العبيديين من الجنوب ومن قبل السلاجقة من الشمال.

وجه الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي حملة كبيرة بقيادة سعد الدولة الذي كان حاكم بيروت، وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان واتجهت عام ٤٩٤ إلى الرملة لتهديد بيت المقدس ويافا غير أنها فشلت ولم تؤد الغرض الذي قامت من أجله.

وعاد الأفضل فوجه عام ٤٩٥ حملة ثانية وجعل إمرتها لابنه شرف المعالي، واتجهت إلى اللد والرملة كسابقتها ولتهديد بيت المقدس ويافا، فخرج للقائها ملك بيت المقدس الصليبي (بلدوين) فانهزم وفرّ إلى الرملة ولاحقه المسلمون ففرّ متنكراً واستعاد المسلمون الرملة. وحاصر المسلمون يافا فجاءتها نجدات من البحر فاستغل (بلدوين) هذه النجدات وهاجم بها المسلمين وانتصر عليهم.

وأرسل الأفضل حملتين إحداهما برية والأخرى بحرية، واستنجد (بلدوين)

بأمير الرها وأمير انطاكية فأفداه واستطاع بعدها إحراز النصر.

وجهز الأفضل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه سناء الملك ودعمه بأسطول بحري، وطلب دعم السلاجقة أيضاً فأجابوه، وجرت أول معركة عام ٤٩٨ وظهر فيها التعاون بين السلاجقة والعبيديين، ومع ذلك فلم تكن نتائجها واضحة.

وبدأت بعد ذلك غارات العبيديين على البلدان التي سيطر عليها الصليبيون فقد أغاروا عام ٤٩٩ على يافا، وفي العام التالي على الخليل، وفي العام الذي بعده وصلوا إلى أسوار بيت المقدس، وكذلك عادوا للإغارة على بيت المقدس عام ٥١٨ وحاصروا مدينة يافا.

أما من جهة الشمال فقد قضى السلاجقة على حملة صليبية جاءت من غربي أوربا لدعم الوجود الصليبي في بيت المقدس، ولم يصل منها إلى هدفه إلا من فرّ هارباً ونجا من القتل وذلك عام ٤٩٤.

ونصب الأمير غازي كمشتكين كميناً لأمير انطاكية الصليبي وأخذه أسيراً عام ٤٩٤، واستطاع في العام التالي أن يستعيد ملاطية من الصليبيين وان يأخذ أميرها أسيراً. وفي عام ٤٩٧ سار أتابك الموصل جكرمش، والأمير سقمان بن أرتق صاحب ماردين لقتال الصليبيين في الرها وتمكنا من إبادة الجيش الصليبي في معركة جرت بين الطرفين قرب «حران» ووقع «بلدوين» و«جوسلين» في الأسر.

وفي عام ٤٩٩ أغار أمير دمشق طغتكين على بلاد الجليل شمال فلسطين.

وأغار أمير الموصل مودود عام ٥٠٥ على الصليبيين وفي العام التالي سار إلى جهات طبريا، وأغار على مدينة طبريا.

ووجه السلطان محمد السلجوقي حملة كبيرة لقتال الصليبيين بإمرة برسق فهاجمت أفاميا عام ٥٠٩.

وفي عام ٥١٣ سار ايلغازي بن أرتق بمن معه من التركمان لقتال الصليبيين في انطاكية والتقى معهم في معركة قرب حلب فدمر الجيش الصليبي، وقتل

قائده روجر في المعركة.

وفي عام ٥١٤ هاجم النصارى الكرج ومن معهم من القفجاق وهم من الكفار ديار المسلمين وأحرزوا نصراً على المسلمين.

وفي عام ٥١٨ هاجم الصليبيون مدينة صور وكانت للعبيديين، وسار بلدوين الثاني أمير الصليبيين في بيت المقدس إلى الشمال لفك أسر (بلدوين) و(جوسلين) اللذين وقعا في الأسر عام ٤٩٧، فأسرع إليه «بُلك الأرتقي» فهزم جيشه وأخذه أسيراً أيضاً وضمه إلى بقية الأمراء الأسرى عنده.

وفي عام ٥٢٣ حاصر الصليبيون دمشق ولكن فشلوا في اقتحامها. وفي العام التالي استطاع الصليبيون أن يدخلوا قلعة القدموس، لكنهم هزموا عام ٥٢٦ أمام شمس الملوك صاحب دمشق واضطروا إلى ترك مدينة بانياس وقلعتها.

وفي عام ٥٢٧ جاءت أعداد كبيرة من التركمان من الجزيرة واتجهوا إلى طرابلس فقاتلوا الصليبيين فيها. وفي العام التالي هاجم سوار أمير حلب الصليبيين في معرة النعمان.

وبدأ عماد الدين زنكي في عام ٥٢٩ يوجه هجماته على مراكز الصليبيين الواقعة شرق نهر العاصي ليكون الفتح تدريجياً فاستولى على معرة النعمان وأغار على قنسرين وشيزر وحمص.

وهكذا كان الهجوم على الصليبيين من الجنوب ومن الشمال، ثم امتد على إمارة طرابلس في الغرب فكانت هذه الهجمات تقضّ مضاجعهم وتقلقهم باستمرار، ثم بدأت تظهر دولة عماد الدين زنكي وتتوسع على امتداد الإمارات الصليبية ويخطط عماد الدين للسير بالفتح بصورة تدريجية ومركزة.

-٣٠-

الراشد بالله

منصور بن الفضل المسترشد

٥٢٩ - ٥٣٠

هو منصور بن الفضل المسترشد، أبو جعفر، الراشد بالله. ولد عام اثنين وخمسمائة، خطب له أبوه بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة فكان عمره احدى عشرة سنة، وبويع بالخلافة بعد مقتل أبيه في شهر ذي القعدة من عام تسعة وعشرين وخمسمائة، فكان عمره آنذاك سبعاً وعشرين سنة.

طالب السلطان مسعود السلجوقي الخليفة الراشد بالله بمبلغ أربعمائة ألف دينار كان المسترشد قد التزم بدفعها حين أسره مسعود، فامتنع الراشد من الدفع ووقع الخلاف بين الخليفة والسلطان، فاستدعى الخليفة عماد الدين زنكي من الموصل فجاءه والتف الأمراء والناس حول الخليفة، وجاء إلى بغداد داود ابن محمود بن محمد بن ملكشاه فخطب له الخليفة وبايعه على الملك وأصبح الخلاف كبيراً بين السلطان مسعود والخليفة وبعدت الشقة بينهما، ولم يعد بالإمكان رتق ما انفتق.

خرج الخليفة إلى ظاهر بغداد، وجاء السلطان مسعود بجيوش كبيرة ودخل بغداد، وأقنع عماد الدين زنكي الخليفة بالسير معه إلى الموصل فرافقه. واستفتى السلطان مسعود الفقهاء بخلع الخليفة فأفتى له بعضهم فخلع في منتصف ذي القعدة من عام ٥٣٠ وبذا لم يكمل الراشد بالله السنة في خلافته. واستقدم السلطان مسعود عم الراشد وهو محمد بن المستظهر وبايعه بالخلافة.

خرج الراشد بالله من الموصل عندما بلغه خبر خلعه وسار إلى اذربيجان،

ثم انتقل إلى همدان مع جماعة من خاصته، ثم سار بهم إلى أصبهان فحاصروها، وأصاب المرض الراشد هناك ودخل عليه جماعة من الأعاجم وقتلوه في السادس عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وقيل إن الباطنية هم الذين قتلوه.

كان الراشد فصيحاً، أديباً، شاعراً، شجاعاً، سمحاً، جواداً، حسن السيرة، يؤثر العدل، يكره الشر. قال العماد الكاتب: كان للراشد الحسن اليوسفي، والكرم الحاتمي[1].

وقال ابن كثير: وقد كان حسن اللون، مليح الوجه، شديد القوة، مهيباً، أمه أم ولد[2].

(1) تاريخ الخلفاء.
(2) البداية والنهاية.

-٣١-

المقتفي لأمر الله
محمد بن أحمد المستظهر
٥٣٠ـ ٥٥٥

هو المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله، ولد في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه حبشية. بويع بالخلافة بعد خلع ابن أخيه الراشد بالله بن المسترشد، وكان عمره إحدى وأربعين سنة، وفي عام ٥٣١ تزوج أخت السلطان مسعود فاطمة بنت محمد بن ملكشاه، وخطب لابنه المستنجد بولاية العهد عام ٥٤٢.

ودخل السلطان مسعود بغداد عام ٥٤١ واختلف مع الخليفة ثم اصطلحا.

وضعف أمر العبيديين كثيراً وخاصة بعد مقتل الظافر بالله العبيدي عام ٥٤٩ فكتب المقتفي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، وولاه مصر، وأمره بالمسير إليها، وكان مشغولاً بحرب الفرنج، وهو لا يفتر عن الجهاد، وكان تملك دمشق في صفر من هذا العام، وملك عدة قلاع وحصون بالسيف وبالأمان من بلاد الروم، وعظمت ممالكه، وبعُد صيته، فبعث إليه المقتفي تقليداً، وأمره بالمسير إلى مصر، ولقبه بـ «الملك العادل»، وعظم سلطان المقتفي، واشتدت شوكته، واستظهر على المخالفين، وأجمع على قصد الجهات المخالفة لأمره، ولم يزل أمره في تزايد وعلو إلى أن مات ليلة الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة[1]. وبذا يكون قد عاش ستاً وستين سنة.

(1) تاريخ الخلفاء.

قال الذهبي: كان المقتفي من سروات الخلفاء، عالماً، أديباً، شجاعاً، حليماً، دمث الأخلاق، كامل السؤدد، خليقاً للإمامة، قليل المثل في الأئمة، لا يجري في دولته أمر - وإن صغر - إلا بتوقيعه[١].

قال ابن السمعاني: وكان محمود السيرة، مشكور الدولة، يرجع إلى دين وعقل وفضل ورأي وسياسة. جدّد معالم الإمامة، ومهّد رسوم الخلافة، وباشر الأمور بنفسه، وغزا غير مرة، وامتدت أيامه[٢].

الإمارات

١ - السلاجقة:

أهان الخليفة الراشد رسول السلطان مسعود متأثراً بقتل أبيه وهذا ما جعل السلطان مسعوداً يقدم إلى بغداد ويحاصرها ويفر الخليفة إلى الغرب إلى الموصل حيث عماد الدين زنكي، أما مسعود فقد استفتى الفقهاء خلع الراشد فأفتى له بعضهم، وبايع السلطان الخليفة المقتفي عم الراشد وذلك عام ٥٣٠، وبعد عام تزوج مسعود بسفرى بنت دبيس بن صدقة أمير الحلة وزعيم جنوبي العراق وذلك ليقوي أمره.

أما في خراسان فقد بدأت المعارك بين سنجر ملك خراسان وملك خوارزم (أتسز) عام ٥٣٣ الذي ثار على سنجر، وقد انتصر سنجر، غير أن (أتسز) قد عاد إلى إمرته ورجع لقتال سنجر إلا أنه هُزم وقُتل ابنه في المعركة واستولى سنجر على خوارزم وأقطعها لابن أخيه غياث الدين سليمان شاه، ولما رجع سنجر إلى مرو رجع (أتسز) واسترد خوارزم، واستعان بالكفار في بلاد الخطا وهاجم معهم سنجر فهزمه هزيمة منكرة في صيف ٥٣٦، وأسروا زوجته، واضطر إلى الفرار إلى ترمذ فبلخ، ودخل أتسز مدينة نيسابور عام ٥٣٧، وفي العام التالي حاول سنجر حصار خوارزم لكنه عجز عن دخولها، وتصالح الطرفان عام ٥٥١.

وسار [illegible] مسعود عام ٥٣٨ لأخذ الموصل وبلاد الشام من زنكي،

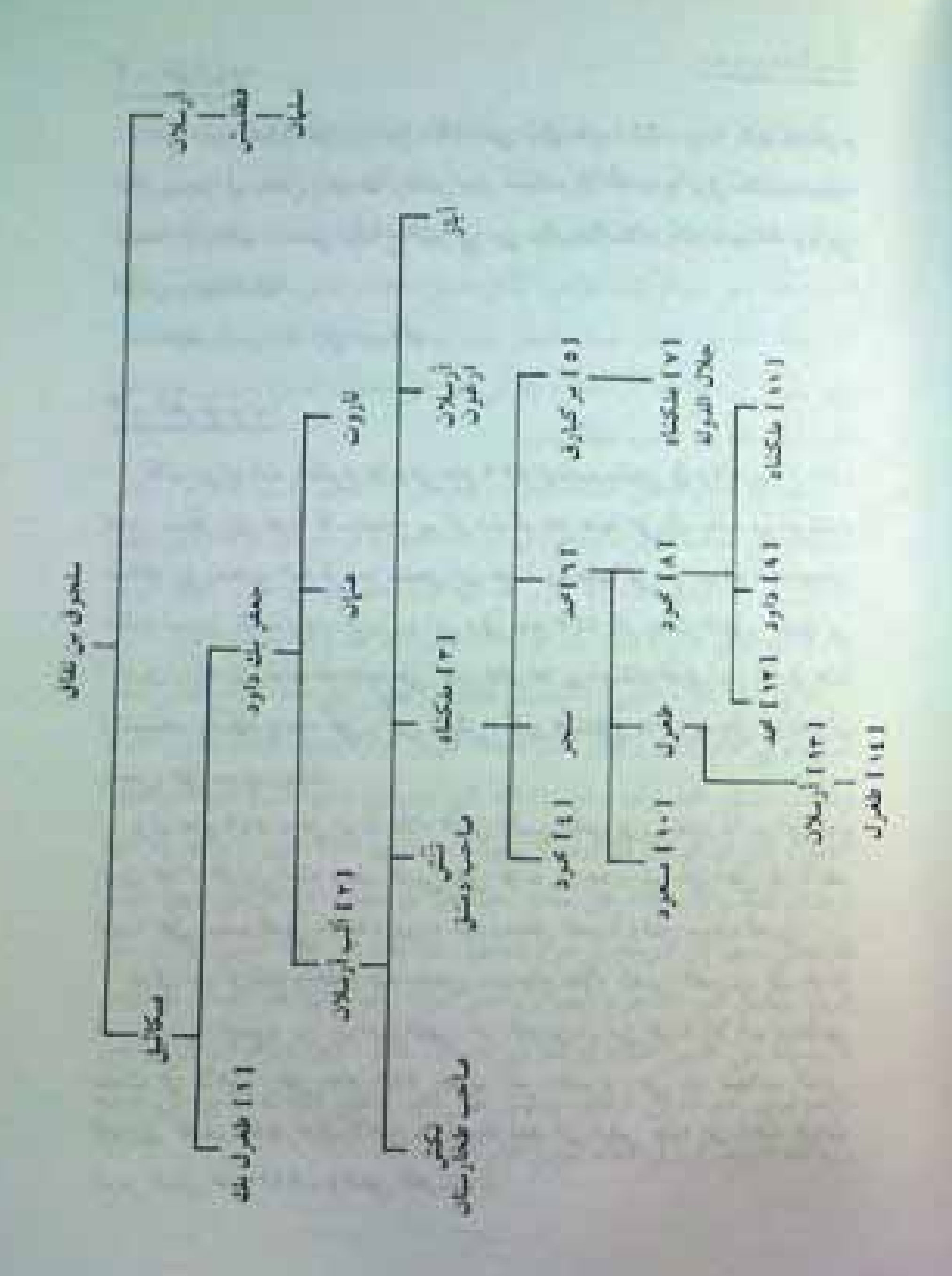
ولكن لم يتم له ذلك وتصالحا.

اختلف السلطان مسعود مع أولاد أخيه محمد وملكشاه اللذين سارا إلى بغداد عام ٥٤٣ وحاصراها وما رفعا الحصار عنها حتى دفع لها الخليفة ثلاثين ألف دينار.

وفي عام ٥٤٧ أصيب مسعود بالحمى وهو بهمذان ومات بها عام ٥٤٧، وقام بعده ابن أخيه ملكشاه بن محمود. وكان مسعود حسن الأخلاق، كثير المزاح والانبساط مع الناس، وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم. وكان من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة، سهل الأخلاق لطيفاً. لقد ماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم.

اصطدم سنجر ملك خراسان بملك الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين، وانتصر سنجر، وأسر علاء الدين. ولكن سنجر هزم عام ٥٤٨ أمام الغز الأتراك الذين دخلوا طوس ونيسابور، وأخذ أسيراً في بعض المعارك، وبقي أسيراً حتى اطلق سراحه عام ٥٥١ عن طريق بعض خواصه، ونقلوه إلى مرو، وأخذ يستعد للقتال غير أن المنية وافته في ١٤ ربيع الأول ٥٥٢.

وانصرف ملكشاه بن محمود إلى اللهو وترك أمور الدولة إلى وزيره خاصبك ابن بلنكري الذي استدعى أخاه محمد بن محمود للقيام بأعباء السلطنة فتوفي عام ٥٥٤. وعمل بعض الخلفاء بعدئذ على استرداد سلطتهم. وقام بعد محمد ابن عمه أرسلان بن طغرل.



٢ ـ خوارزم:

بقي اتسز يحكم خوارزم من ٥٢١ حتى توفي عام ٥٥١ ، وإذا كان قد هزم أمام سنجر في بعض المعارك وغادر مقر حكمه إلا أنه يوم توفي كانت دولته متسعة الأركان وتشمل الجناح الشرقي من ديار الإسلام كله باستثناء ولايتي فارس وخوزستان.

وخلف اتسز ابنه ايل ارسلان.

٣ ـ الغزنويون:

كان بهرام شاه يحكم غزنة ، وفي عام ٥٢٩ ارتاب سنجر في ولاء بهرام شاه، فسار سنجر إلى غزنة فاستعطفه بهرام شاه فرجع عنها على أن يأتيه بهرام شاه فخالفه ولم يذهب إليه فرجع سنجر إلى غزنة ودخلها فرجع بهرام شاه يعتذر فغادر سنجر غزنة وعاد إليها بهرام. وفي عام ٥٤٣ ثار ملك الغور سوري بن الحسين واتجه إلى غزنة فدخلها على حين غادرها بهرام شاه الذي سار إلى فرغانة واستنجد بملكها وجاء على رأس جيش كبير استطاع به أن يدخل غزنة وأن يقبض على سوري ويقتله.

وفي عام ٥٤٣ دخل غزنة علاء الدين الحسين الغوري ، وغادرها بهرام شاه ، فولى علاء الدين أخاه سيف الدين على غزنة ورجع ، غير أن أهل غزنة قد ثاروا على سيف الدين ، وجاء بهرام شاه ودخل المدينة وقتل سيف الدين.

توفي بهرام شاه وخلفه ابنه خسرو ، وجاء علاء الدين الغوري إلى غزنة فهرب منها خسرو بن بهرام وانتهى أمر الغزنويين من غزنة إلا أن سلطتهم بقيت في لاهور حتى عام ٥٥٩ حيث أسر خسرو على يد شهاب الدين الغوري الذي حاصره في لاهور ، وأرسله بعد أن قبض عليه إلى أخيه غياث الدين فقتل عام ٥٨٢ ، وانتهى الغزنويون.

٤ ـ الغوريون:

الغوريون قوم جبليون يقيمون بين غزنة وهراة ، وبلادهم جبلية موحشة ، فيها قلعة ، فيروزكوه ، المشهورة وقد برز من الغوريين قطب الدين محمد الغوري الذي تزوج بنت ظهير الدين ابراهيم الغزنوي وأخت بهرام شاه ، وفي عام ٥٤٢ دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري ، وقد أثار هذا إخوته ، فسار سيف الدين سوزي وأخوه علاء الدين إلى غزنة ففر منها بهرام شاه واتجه إلى الهند ، وتولى أمر غزنة سيف الدين سوزي نيابة عن أخيه علاء الدين حسين جهان سوز.

وعندما هجم فصل الشتاء البارد ، وصعب الانتقال بسبب الثلوج ، قبض السكان على سيف الدين ، ودعي بهرام شاه للعودة فرجع إلى غزنة وقتل سيف الدين. فما كان من علاء إلا أن رجع إلى غزنة عام ٥٤٤ وخرّبها ، وفر بهرام شاه الذي توفي عام ٥٤٧ ، كما أن علاء الدين قد هدم غزنة عام ٥٥٠.

قوي أمر علاء الدين واتسعت مملكته ، فعيّن ابني أخيه بهاء الدين سام الذي توفي عام ٥٤٤ وكان حاكم قلعة ، فيروزكوه ، وهما : غياث الدين محمد ، وشهاب الدين محمد وقد سارا بالبلاد التي يشرفان عليها سيرة حسنة وأحبهما الناس ، غير أن الوشاة قد أوقعوا بينهما وبين عمهما علاء الدين ، وأخبروه أنهما يريدان قتله والاستيلاء على ملكه ، فدعاهما فلم يحضرا إليه فأرسل إليهما جيشاً فلم يصل معهما إلى نتيجة بل هزم أمامهما ، فما كان من علاء الدين إلا أن سار إليهما بنفسه غير أنه هزم أيضاً ، وأخذ أسيراً ، غير أنهما قد أحسنا معاملته ، فأجلساه على مجلس الملك ووقفا في خدمته ، فتأثر كثيراً ، وعرف أن الواشين والمغرضين هم الذين أوقعوا بينهم. لذا فقد أوصى لغياث الدين من بعده وزوّجه بابنته ، وتوفي علاء الدين عام ٥٥٦.

٥ ـ آل زنكي:

زنكي هو لقب عماد الدين بن آق سنقر الذي كان والياً على حلب وقتل عام ٤٨٧، وكان عمر ابنه عماد الدين يومذاك عشر سنوات.

استولى كربوغا على الموصل عام ٤٨٩ فأخذ عماد الدين زنكي لعنده واعتنى به وأكرمه إكراماً لأبيه آق سنقر، وتوفي كربوغا عام ٤٩٥ فخلفه على الموصل شمس الدولة جكرمش، فقرّب عماد الدين زنكي إليه وأولاه حبه، وظل كذلك حتى توفي عام ٥٠٠، فخلفه على الموصل (جاولي سقاو) فبقيت علاقته مع عماد الدين زنكي جيدة، غير أن جاولي سقاو قد أعلن عصيانه للسلطان محمد السلجوقي وانتقل إلى بلاد الشام عام ٥٠٢ فانفصل عنه عماد الدين زنكي.

وفي عام ٥٠٢ عين والياً جديداً على الموصل هو مودود بن التونتكين فانضم إليه عماد الدين زنكي وبقي بجانبه حتى قتل عام ٥٠٧ في دمشق، ورجع عماد الدين إلى الموصل لينضم إلى الوالي الجديد جيوش بك، ثم انضم عماد الدين إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي سار لقتال الصليبيين، وأبدى عماد الدين شجاعة فائقة في قتاله، وعندما انتهت حروبه طلب السلطان محمد السلجوقي من والي الموصل تقديم عماد الدين واستشارته في المهمات.

وقاتل عماد الدين زنكي مع جيوش بك ومسعود ضد السلطان محمود الذي خلف أباه محمداً، غير أنهم فشلوا في جعل مسعود يتسلم السلطنة واستقر الأمر لمحمود، وفي عام ٥١٤ حاول جيوش بك أن يجدد المحاولة لمسعود غير أن عماد الدين زنكي لم يوافقه، وعندما فشلت المحاولة الثانية عزل جيوش بك عن الموصل، وعرف السلطان محمود موقف عماد الدين زنكي، لذا فقد أوصى والي الموصل الجديد آق سنقر البرسقي بتقديم زنكي وإكرامه.

عين آق سنقر البرسقي على العراق عام ٥١٦ ورافقه عماد الدين زنكي واشترك معه في حرب دبيس بن صدقة غير أنهما قد هزما، وولّى البرسقي عماد

الدين زنكي على واسط وكلفه بقتال دبيس فانتصر عليه، وهذا ما جعل البرسقي يضيف إليه البصرة. واشترك الخليفة والبرسقي وزنكي في قتال دبيس، واتبع زنكي خطة كان لها دور في التغلب على دبيس.

وعندما ترك زنكي البصرة كلف أميراً لحمايتها تمكن دبيس من العودة إلى البصرة وقتل أميرها، فرجع زنكي إلى البصرة ففر منها دبيس والتحق ببلاد الشام عام ٥١٧.

أعيد آق سنقر البرسقي والياً للموصل ليعمل على قتال الصليبيين فطلب من زنكي أن يسير معه، غير أن زنكي فضّل غير ذلك فقد ترك البصرة وسار إلى أصبهان ليلتحق بحاشية السلطان محمود.

وفي عام ٥١٨ كلفه السلطان محمود بأن يسير إلى البصرة إذ غدت مسرحاً للحوادث بعده، وأقطعه إياها وكلفه في الوقت نفسه بالاشراف على واسط، وأن يصد عنها جيوش الخليفة إذا ما اتجهت نحوها. وفعلاً فقد صدّ جيوش الخليفة عنها عام ٥١٩.

ووقع الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان محمود وسار الأخير نحو بغداد وطلب من زنكي دعمه ضد الخليفة فلبى الدعوة وسار بمقاتليه نحو بغداد واضطر الخليفة إلى الصلح. ورشح عماد الدين زنكي لتولية أمر العراق عام ٥٢٠، وصدر الأمر بتوليته وغادر السلطان محمود بغداد بعد أن أمن العراق ما دامت بيد عماد الدين زنكي.

توفي عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي والي الموصل بعد أبيه وذلك عام ٥٢١ وتولى مكانه أخوه الصغير واستبد بالأمر جاولي الوصي على الأمير الصغير غير أن السلطان عين عماد الدين زنكي على الموصل فسار إليها ولم يتول أمر العراق سوى أربعة أشهر. وقد أعطي عماد الدين زنكي ولاية الموصل لقتال الصليبيين الذين استأسدوا بعد وفاة والي الموصل آق سنقر البرسقي عام ٥٢٠ وقيام ابنه عز الدين مسعود مكانه.

تقدم عماد الدين زنكي إلى حلب عام ٥٢٢ ودخلها.

سار دبيس بن صدقة إلى الملك سنجر سلطان السلاجقة في خراسان وهو عم السلطان محمود، وقد تقرب دبيس من سنجر، وفي الوقت نفسه وصل السلطان محمود لتصفية الخلاف بينهما، وقد تم ذلك، وعندما أراد السلطان محمود العودة طلب منه عمه سنجر أن يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل وأن يولي دبيس بن صدقة مكانه فوافق، وأخذه معه.

طلب السلطان محمود من الخليفة تناسي الخلافات والسماح لدبيس بدخول بغداد، ووصل الخبر إلى عماد الدين زنكي فترك الموصل واتجه إلى بغداد، واستغرب كيف يعطي ولاية الموصل من ساعد الصليبيين وحاصر معهم حلب، وإمارة الموصل من مهمتها قتال الصليبيين! ووافقه الخليفة بسبب كراهيته وكراهية أهل بغداد لدبيس، ووافق السلطان محمود الذي من مصلحته أن يكون عماد الدين زنكي على الموصل ولا يكون دبيس الذي قد يكون عيناً عليه.

توفي السلطان محمود عام ٥٢٥ وتولى مكانه ابنه داود واختلف السلاجقة بعضهم مع بعض، ووقف زنكي بجانب سنجر، وقاتل الخليفة وهزم وعاد إلى الموصل. وتمكن مسعود السلجوقي من الانتصار على أقربائه وجلس على كرسي السلطنة.

اختلف الخليفة مع زنكي، وسار الخليفة إلى الموصل وحاصرها، واضطر أن يرفع الحصار عندما سار السلطان مسعود إلى بغداد، وتصالح الخليفة مع زنكي عام ٥٢٨، وربما كان الصلح للخلاف مع مسعود، بل اشترك زنكي مع الخليفة في صراعه مع السلطان مسعود عام ٥٢٩.

استمرت العلاقات غير طيبة بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكي غير أن المهادنة قد وقعت لانشغال عماد الدين زنكي بقتال الصليبيين ومطالبة رجالات مسعود بإبقاء إمارة الموصل حاجزاً ضد أطماع الصليبيين.

في الوقت الذي كان عماد الدين زنكي فيه يدخل في الصراعات الدائرة في العراق وبين الأسرة السلجوقية بعضهم مع بعض لم يكن ليولي وجهه نحو المشرق فقط بل كان أكثر الأيام متجهاً نحو الغرب يعمل على قتال الصليبيين أولاً ومن هذا الجهد كان يعمل على توحيد البلاد وتجميعها تحت إمرة واحدة ليمكن مقاومة الصليبيين وطردهم من البلاد إذ كانت بلاد الشام يومذاك مجزأة بين أمراء المدن، وكان أشهر هؤلاء الامراء حكام دمشق أكبر مدن بلاد الشام ومقرها الرئيسي وكانت بيد أسرة طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقي، وقد كان في الأصل مملوكاً لتتش بن ألب أرسلان الذي كان والياً على الشام عند وفاة أخيه ملكشاه وطمع أن يمد نفوذه إلى حلب والجزيرة واذربيجان، وقد قتل عام ٤٨٨ أثناء صراعه مع ابن أخيه بركيارق، وبعد مقتله خلفه ابنه دُقاق الذي أناب عنه طغتكين في حكم الشام، فاستمر في ذلك حتى عام ٤٩٧، فجاء بعد ابنه تاج الملوك بوري حتى عام ٥٢٢ فشمس الملوك اسماعيل حتى عام ٥٢٩، فشهاب الدين محمود حتى عام ٥٣٣، فجمال الدين محمد حتى عام ٥٣٤ فمجير الدين أبق حتى استولى على دمشق نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي عام ٥٤٩.

توسع سلطان عماد الدين زنكي فقد ضم إليه بعد أن تولى أمر الموصل جزيرة ابن عمرو عام ٥٢١، وحلب ٥٢٢، وسنجار والخابور وحران عام ٥٢٣، واربيل عام ٥٢٦، والرقة عام ٥٢٩، وعانة والحديثة عام ٥٣٨، وقد أسدى حكام تكريت لعماد الدين زنكي معروفاً وهما الأخوان نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، فلما أبعدوا عن تكريت انتقلوا إليه فأكرمهم وسلمهم بعلبك حينما استولى عليها عام ٥٣٤، وفي الوقت نفسه فقد ضم دياربكر وماردين ونصيبين إليه وكذلك منطقة الأكراد.

ضم عماد الدين زنكي إليه مدينة حماه عام ٥٢٤ غير أن اسماعيل بن بوري حاكم دمشق قد استردها منذ عام ٥٢٧ ثم دخلها عماد الدين زنكي ثانية عام

٥٢٩ وألقى الحصار على دمشق في ذلك العام، وفكر كثيراً في حكم دمشق وخاصة أن حاكمها مجير الدين يتسلط عليه (إنر) ويتعاون مع الصليبيين ضد زنكي بل قد سلّمهم مدينة بانياس عندما كان نائبها يعطي الطاعة لزنكي، وفشل عماد الدين زنكي في كل محاولاته لدخول دمشق.

هادن عماد الدين زنكي في أول أمره أمير الرها الصليبي جوسلين وذلك من أجل توسعة منطقة نفوذه وتقوية سلطانه، ثم اتجه إلى حصن الأثارب جنوب غربي حلب حيث كان الصليبيون فيه يقاسمون سكان حلب ضواحي المدينة الغربية، ويقومون بغارات دائمة عليهم. ولم علم الصليبيون في بلاد الشام نية عماد الدين اتجهوا بقوات كبيرة نحوه، فترك حصار الحصن والتقى بهم بعيداً عنه وجرت بين الجانبين معركة عظيمة انتصر فيها المسلمون وقتلوا الكثير من الصليبيين وأسروا الكثير، ثم اتجه عماد الدين إلى الحصن وفتحه عنوةً، ثم تقدم إلى حارم وحاصرها فهادنه أهلها ودفعوا له نصف دخل بلدهم.

فتح عماد الدين زنكي عام ٥٢٩ معرة النعمان، وكفرطاب. وعندما كان يحاصر حمص عام ٥٣١ حشد له الصليبيون حشداً كبيراً ضم جموعهم في بيت المقدس بقيادة ملكهم (فولك)، وجموعهم في طرابلس بقيادة أميرهم ريموند، فترك عماد الدين حصار حمص والتقى بهم في معركة قاسية انتصر فيها عليهم، وأسر عدداً كبيراً منهم كان من بينهم ريموند أمير طرابلس الصليبي. أما (فولك) ملك بيت المقدس فقد هرب إلى حصن بعرين، ثم استطاع عماد الدين أن يتسلم حصن بعرين، وأن يستمر في قتاله للصليبيين، حتى أخذ إمارة الرها عام ٥٣٩، واستمر صراعه مع الاعداء حتى قتل عام ٥٤١ وهو يحاصر قلعة جعبر على نهر الفرات.

خلف عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي على الموصل على حين خلفه على حلب ابنه الثاني نور الدين محمود وقد عمل محمود نور الدين على قتال الصليبيين وفق سياسة أبيه بتوحيد بلاد الشام، وحاول الصليبيون استرداد الرها

غير أن نور الدين لم يمكنهم من ذلك، وكانت ذات أهمية كبيرة بنظر الصليبيين حتى قامت أوربا بإرسال الحملة الصليبية الثانية لاسترداد الرها غير أن هذه الحملة قد تركت هدفها الرئيسي واتجهت إلى دمشق حلفهم القوي ضد نور الدين محمود الأمر الذي جعل نور الدين محمود يتمكن من دخول دمشق عام ٥٤٩ لإنقاذ المدينة من أن تقع بأيدي الصليبيين بناءً على رغبة أهلها الذين كانوا يخالفونه من قبل، كما فتح عام ٥٤٥ مدينة اعزاز وأسر (جوسلين)، وابنه في المعركة التي جرت معها، واستمر في سياسته حتى توفي عام ٥٦٩.

أما الموصل فقد حكمها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي حتى عام ٥٤٤ حيث تولى أمرها بعده أخوه قطب الدين مودود، وبقي حتى عام ٥٦٥.

٦ - العبيديون:

بدأ الضعف على الدولة العبيدية يظهر بوضوح إذ بدأ الصراع بين الوزراء والخلاف بين الجنود، وكان الخلفاء يتولون الأمر وهم صغار فلم يكن بأيديهم من الأمر شيء.

في عام ٥٣١ هرب الوزير النصراني بهرام فطلبه الخليفة حتى أخذه وسجنه، ثم أطلق سراحه، فاعتزل وصار راهباً. واستوزر الخليفة بعد بهرام رجلاً اسمه رضوان وكان شجاعاً وشاعراً، ولقبه الملك الأفضل غير أنه لم يلبث أن عزل ففر إلى بلاد الشام وطلب من عماد الدين زنكي مساعدته، فخشي الخليفة الحافظ فأرسل إليه أسامة بن منقذ فأمنه واسترضاه وأعاده إلى الخليفة، فسجنه الخليفة عشر سنوات تمكن بعدها من الفرار من السجن وجمع حوله جماعة قاتل بها جنود الخليفة غير أنه هُزم وقُتل.

وفي عام ٥٤٤ توفي الخليفة الحافظ بعد يومين من مقتل الوزير رضوان، وخلفه ابنه الظافر اسماعيل وكان صغيراً لا يزيد عمره على السادسة عشرة وقام

الخلاف بين الجند ، ثم امتد إلى الوزراء إذ عزل هذا الخليفة الجديد الوزير الملك العادل ابن سلار وقلّد الوزارة نجم الدين بن مصال الذي كان مكروهاً من الرعية ، فجمع ابن سلار جماعته وسار بهم نحو الجيزة ففر منها نجم الدين بن مصال ولم يكن قد مضى على وزارته أكثر من خمسين يوماً ، وسار ابن مصال نحو الصعيد وجمع قوةً فسار إليه جند ابن سلار والتقى الطرفان في معركة قتل فيها ابن مصال ، واضطر الخليفة أن يقلّد ابن سلار الملك العادل الوزارة ، غير أن هذا الاضطرار يعني الكراهية والمنافسة بينهما .

طلب الملك العادل سيف الدين ابن سلار من نور الدين محمود أمير حلب مساعدته لقتال الصليبيين بحيث يغزو نور الدين طبريا في الوقت الذي يسير فيه الملك العادل سيف الدين إلى غزة وعسقلان ، وبهذه الطريق يمتنع الصليبيون من غزو مصر . وكان ابن سلار يطمع في دعم نور الدين محمود عسكرياً كما يطمع في مساعدته للقضاء على العبيديين الاسماعيليين إذ كان هو ينتمي إلى الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة وفي الطلب أحس نور الدين محمود أن الدولة العبيدية قد أصبحت ضعيفة غير قادرة على حماية نفسها وربما طمع الصليبيون فيها وهاجموها فيتسع نفوذ الصليبيين في الوقت الذي يريدون تقويض إماراتهم وطردهم من بلاد الشام .

وأحس الخليفة العبيدي الظافر بما يدبر ابن سلار فعمل على الكيد له ، وعمل على أن يتولّى نصر بن عباس اغتياله . واغتيل ابن سلار عام ٥٤٨ ، ثم تلاه قتل الخليفة الظافر ، وكان عباس بن نصر قد تولى الوزارة إثر قتل ابنه نصر لابن سلار ، كما عمل نصر لقتل الخليفة ولما ثارت الرعية على عباس فر وابنه نصر إلى بلاد الشام ، فلاحقته جماعة من الصليبيين أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فقتل عباس ، وأخذ ابنه نصر إلى القاهرة حيث قتل هناك أو صلب حيّاً .

تولى بعد الظافر ابنه الفائز أبو القاسم عيسى عام ٥٤٩ وكان صغيراً لا

يزيد عمره على الخامسة . وجاء الأمير طلائع بن رزيك أحد الولاة إلى القاهرة وتسلّم الوزارة وأعاد الأمن ، وتلقب بالملك الصالح، غير أن الصليبيين قد احتلوا مدينة عسقلان من العبيديين ، ولكن لم يتمكنوا إلى أن يسيروا إلى أبعد من ذلك بسبب قيام نور الدين محمود الذي دخل دمشق عام ٥٤٩ وقويت دولته وكان يقف في وجه الصليبيين فإذا ما سار الصليبيون نحو مصر اتجه نور الدين محمود نحو بيت المقدس .

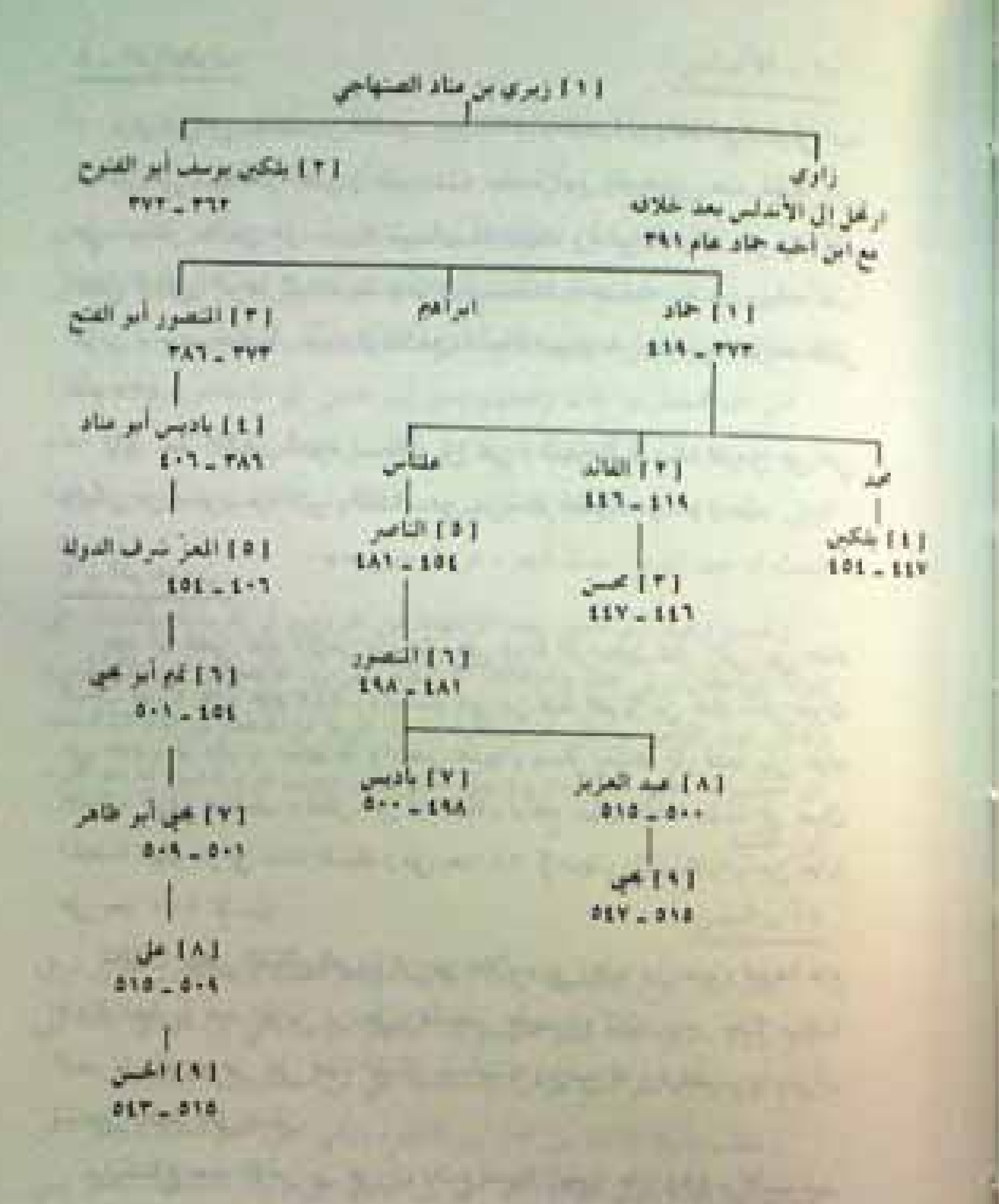
وفي عام ٥٥٥ توفي الخليفة الفائز بنصر الله فاختار الملك الصالح ابن رزيك خليفةً بعده ابن عمه عبدالله بن يوسف بن الحافظ وكنيته أبو محمد ، ولقبه العاضد لدين الله وكان في ذلك الوقت مراهقاً قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوّجه ابنته (ابنة الملك الصالح ابن رزيك) .

٧ ـ آل زيري :

كان الحسن بن علي الصنهاجي أمير آل زيري منذ أن تولّى أمر المهدية عام ٥١٥ ، واستمر الصراع بينه وبين روجر النورماندي حاكم صقلية ، ثم جرى بينهما عهد . وفي عام ٥٤٠ خرج أسطول للنصارى الصقليين واستولى على جزر قرقنة المقابلة للساحل التونسي ، فأرسل إليهم الحسن من يذكّرهم بالعهود بينه وبينهم . وفي عام ٥٤١ أرسل روجر أسطولاً استولى على طرابلس الغرب وما استطاع دخولها إلا بعد خلاف بين أهلها أدّى إلى قتال بعضهم مع بعض إذ وقع قتال بين بني مطروح الذين كانوا يحكمون البلد وبين الملثمين ، فأخذ النصارى الرهائن من المسلمين ، ثم أعادوهم ، وولّوا على طرابلس أحد بني مطروح وأجبروا أهلها على أن يسمحوا لسفن صقلية بالمرور من بلدهم .

وفي عام ٥٤٢ استبد بمدينة قابس مولى اسمه يوسف فأرسل إليه الحسن بن علي ينذره ، فاتصل يوسف بحاكم صقلية روجر وبذل له الطاعة ، فأرسل له الحسن جيشاً فما كان من يوسف إلا أن خلع طاعة آل زيري ، وزادت صلته

بروجر، أما أبناء المدينة فقد قاوموا يوسف وتصرفاته وسلموا بلدهم لجند الحسن بن علي آل زيري، وأخذ يوسف أسيراً. وسار أهل يوسف إلى صقلية واستنجدوا بروجر فأرسل روجر أسطولاً بإمرة وزيره جورج وصل إلى جزيرة قوصرة رغم العهد بين الحسن وروجر، ثم انتقل جورج إلى مدينة المهدية فغادرها الحسن بن علي واتجه إلى بني حماد فحصروه في جزيرة بني مزغنان مقابل مدينة الجزائر اليوم وذلك عام ٥٤٣، وبقي هناك حتى دخل عبد المؤمن ابن علي أمير الموحدين المنطقة فسار معه إلى المهدية عام ٥٥٤ فولاه عليها وهكذا زالت دولة بني زيري بعد حكم دام تسع ومائتي سنة، وتوالى عليها تسعة حكام من آل زيري: تسعة من أبناء المنصور ومثلهم من أبناء حماد في أشير، وقلعة بني حماد، وبجاية، كما هو مبين في الجدول التالي:



٨ - المرابطون:

تولى علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧ وخلفه ولده تاشفين، فولّى ابنه ابراهيم على مدينة مراكش وأخذ بنفسه متابعة أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي، وسار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها، والتقى الطرفان في معركة، انتقل تاشفين إثرها إلى مدينة وهران ليتخذها قاعدة له، فسار وراءه عبد المؤمن وحاصره فيها، فحاول تاشفين النجاة فهوى عن صخرة بجواده فقتل عام ٥٣٩.

تولى بعد تاشفين أخوه اسحاق بن علي، فسار إليه عبد المؤمن بن علي وتمكن من دخول مراكش والقضاء على دولة المرابطين عام ٥٤١ هـ.

٩ - الموحدون:

بعد أن قضى عبد المؤمن بن علي على دولة المرابطين سار إلى بني حماد فملك مدينة بجاية عام ٥٤٧، واستسلم يحيى بن عبد العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد، ثم حارب صنهاجة وانتصر عليها، وسار بعدها إلى قلعة بني حماد جنوب غربي صطيف وتمكّن من احتلالها، وتقع شمال شط الحضنة في جبال الحضنة شمال شرقي بلدة المسيلة وعلى بعد ٢٥ كم منها، وإلى الجنوب من بجاية على بعد ١٠٠ كم منها.

تحالفت بعض القبائل العربية من بني هلال وبني زغب من سليم وغيرها عام ٥٤٨ لمحاربة عبد المؤمن بن علي، فانتصر عليهم، وكان روجر حاكم صقلية النصراني قد عرض على هذه القبائل مساعدته ودعمه لها، فرفضت وأبت أن تستعين بكافر على مسلم.

واستطاع عبد المؤمن بن علي أن يفتح مدينة المهدية عام ٥٥٤ وكانت بيد النورمانديين منذ عام ٥٤٣، وبذا دانت المغرب كلها للموحدين أيام عبد المؤمن بن علي الذي بقي حتى عام ٥٥٨.

١٠ - الأندلس:

استطاع النصارى أن يدخلوا شنترين، وباجة، وماردة، واشبونة عام ٥٤٠ إذ ضعف أمر المرابطين. وفي عام ٥٤١ بينما كان عبد المؤمن بن علي يحاصر مراكش إذ جاءه وفد من أهل الأندلس يطلب منه مناصرة المسلمين في الأندلس، فسيّر معهم جيشاً وأسطولاً فسار الجيش نحو اشبيلية ودخل الأسطول النهر إليها فحاصرها ثم أخذها عنوة من يد المرابطين.

غير أن النصارى كان وضعهم يسير إلى تحسن في الاندلس، وقد ملكوا المرية عام ٥٤٢، ثم أخذوا عام ٥٤٤ كلاً من طرطوشة ولاردة، وفي العام التالي حاصر ملك طليطلة النصراني وهو الأذفونش الملقب بالسليطين قرطبة فبعث له عبد المؤمن جيشاً أجبره عن الرحيل عنها.

وتحسن وضع الموحدين بعد الانتهاء من حروبهم في إفريقية والقضاء على دولة المرابطين وبني حماد وامتلاك كل بلاد المغرب، فانصرفوا نحو الأندلس، وتمكن عبد المؤمن بن علي أن يستعيد مدينة المرية من النصارى عام ٥٥٢ بعد أن حكموها عشر سنوات، ولم يبق للمرابطين سوى جزيرة ميورقة مع حمود ابن غانية.

١١ - اليمن:

كان بنو نجاح يحكمون تهامة وكان أميرهم فاتك بن منصور الذي توفي عام ٥٤٠، وفي أيامه ظهر المهديون، فهاجموا بإمرة علي بن مهدي بلاد بني نجاح عام ٥٣٨ غير أنهم هزموا وانسحب علي بن مهدي إلى الجبال.

وخلف فاتكاً فاتك بن محمد بن فاتك، وبقي حتى عام ٥٥٥، وهو آخر ملوك بني نجاح، وفي عهده أغار علي بن مهدي على زبيد فاستنجد أهلها ببني الرس وكان إمامهم المتوكل أحمد بن سليمان فأنجدهم، ودفع عنهم غارات علي ابن مهدي الذي استطاع أخيراً دخولها عام ٥٥٣.

وفي عدن كان يحكم بني زريع الداعي سبأ بن أبي السعود منذ عام ٤٨٩ حتى عام ٥٣٣ حيث توفي وخلفه ابنه محمد بن سبأ حتى عام ٥٥٠ فخلفه ابنه عمران ابن محمد بن سبأ ولقب بالمكرم وبقي حتى عام ٥٦٠ .

وفي صنعاء حكم حاتم بن أحمد بن عمر اليامي ، وهزم أحمد بن سليمان إمام بني الرس في صعدة ٥٤٦ غير أن أحمد بن سليمان قد عاد واحتل صنعاء عام ٥٥٠ ، وذهب حاتم إلى حصن جنوب صنعاء ، وبقي فيه حتى توفي عام ٥٥٦ هـ .

وبالنسبة إلى بني الرس فإن أحمد بن سليمان قد برز في صعده وبقي حتى عام ٥٦٦ ، ولم يكن وضعه مستقراً .

الصَّليبيّون

لقد قلّ عدد الصليبيين في بلاد الشام بسبب ما قُتل منهم ، وتوزّعوا في شريط طويل يمتد من الرها إلى انطاكية فطرابلس فبيت المقدس ، وحلّت بهم هزائم كثيرة ، فطلبوا معونة أوربا والكنيسة ، وكان البابا اربان الثاني قد توفي ، ولم يعد تأييد الكنيسة ذا أثر ، وبخاصة أنه قام نزاع بين رجال الكنيسة على كرسي البابوية ، وزادت ثروة أوربا ، وزادت قوة الملكية في بعض الدول مثل فرنسا وألمانيا وصقلية ، ولهذا لم تستطع الكنيسة كما لم تستطع أوربا تلبية نداء الصليبيين كما حدث في جمع الصليبيين في المرة الأولى .

لقد نشأت قوة جديدة للمسلمين تزعمها عماد الدين زنكي ، وبدأ يسعى لتوحيد كلمة المسلمين ولتوسعة رقعة البلاد التي يسيطر عليها في سبيل الوقوف في وجه الصليبيين ومحاولة طردهم من بلاد المسلمين ، غير أن وجود هذه القوة الجديدة قد دفع نصارى أوربا للمناداة للدفاع عن البلاد التي احتلوها من بلاد الشام والتي كلفتهم كثيراً ، واستطاع أحدهم أن يجمع أعداداً كبيرة من النصارى الحاقدين على المسلمين تحت شعار الدفاع عن المكتسبات التي حصلوا عليها ، ولما كانت الملكية قد قويت في ألمانيا وفرنسا وتريد منافسة الكنيسة لذا فقد انضم إلى هذه الجموع كل من ملك ألمانيا كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا ، وسارت حملة كبيرة متجهة نحو الشرق .

أما روجر ملك صقلية وجنوبي ايطاليا فقد اتجه نحو شمالي إفريقية ودخل طرابلس الغرب ، كما دخل المهدية أولاهما عام ٥٤١ والثانية ٥٤٣ غير أن

اختلافاً قام بينه وبين امبراطور القسطنطينية عام ٥٤٤ ، ثم مات وزيره جورج عام ٥٤٦ الذي قام بحملات الصليبية في شمالي إفريقية فاستراح منه الناس ، كما مات هو عام ٥٤٨ بعد أن هاجم بونه ودخلها .

أما الحملة الصليبية الثانية فقد شجعها على الانطلاق فتح عماد الدين زنكي لإمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩ ، وعندما انطلقت هذه الحملة عام ٥٤٢ كان عماد الدين زنكي قد توفي عام ٥٤١ ، واتجهت الحملة إلى بلاد الشام عن طريق البحر للخلاف الذي كان قائماً بين امبراطور القسطنطينية وبين الصليبيين. اتجه الفرنسيون نحو انطاكية على حين سار الألمان نحو عكا .

رغبت قادة هذه الحملة الصليبية أن يحتلوا دمشق حاضرة بلاد الشام ولتقطع الصلة بين المسلمين شمال بيت المقدس وجنوبه فارتكبوا بذلك خطأً كبيراً ، وهو أن أمير دمشق يومذاك وهو مجير الدين كان يخشى من سيطرة آل زنكي على مدينته ويعتمد على الدعم الصليبي فيما إذا اتجه آل زنكي نحوه . بالاتجاه الصليبي نحو دمشق جعل أميرها مجير الدين يستنجد بنور الدين محمود آل زنكي ضدهم وهذا ما هيأ لنور الدين باحتلال دمشق عام ٥٤٩ وأضاع على الصليبيين مخططاتهم، واضطر ملك ألمانيا كونراد الثالث بعدها العودة إلى بلاده كما تبعه ملك فرنسا لويس السابع بعد مدةٍ وجيزة . وهكذا فشلت هذه الحملة الصليبية الثانية .

أما نور الدين محمود فقد حمل مهمة والده في قتال الصليبيين ، وقد استطاع أن يفتح عدة حصون على الساحل الشامي عام ٥٤٢ كانت للصليبيين .

وفي عام ٥٤٣ حاصر الصليبيون مدينة دمشق بجيشٍ قوامه مائة ألف يقوده كونراد الثالث ملك ألمانيا ، فاستنجد أميرها مجير الدين بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وجاء محمود نور الدين وانتصر على الصليبيين في بصرى ، ولما سمع الصليبيون بقدوم ولدي زنكي إلى دمشق رحلوا عنها .

وفي عام ٥٤٤ دخل نور الدين محمود حصن أفاميا وسار نحو انطاكية ، وحاصر في طريقه مدينة حارم ، وصالحه أهلها على نصف أرزاقهم . غير أنه هزم عام ٥٤٦ عندما سار لقتال جوسلين أمير الرها الصليبي ، ثم تمكّن من أسر جوسلين فيما بعد ، واستطاع أن يأخذ اعزاز ، وعينتاب ، ومرعش .

واستنجد مجير الدين بنور الدين محمود ضد الصليبيين فجاءه ودخل دمشق عام ٥٤٩ ، ثم سار إلى بعلبك ودخلها عام ٥٥٠ ، كما أخذ شيزر عام ٥٥٢ .

وأخفقت الحملة الصليبية الثانية ، وظهر ضعف الصليبيين في بلاد الشام ، وقوي شأن المسلمين إذ أصبحت أكثر بلاد الشام تحت إمرة نور الدين محمود وانحصر الصليبيون في المناطق الساحلية وبيت المقدس ، وقلّ أملهم في مساعدة بعض أمراء المسلمين ضد بعض ، وقلّ عدد النصارى الذين كانوا يأتون لزيارة بيت المقدس ، ولم تعد أوربا تفكر بإرسال حملةٍ جديدة الى بلاد الشام لدعم الصليبيين هناك .

-٣٢-

المستنجد بالله
يوسف بن محمد المقتفي
٥٥٥-٥٦٦

هو يوسف أبو المظفر المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله، ولد سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وأمه أم ولد كرجية تدعى «طاووس».

كان المستنجد أسمر طويل اللحية، كان من خيار الخلفاء، وأعدلهم وأرفقهم بالرعايا، ومنع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكساً، وكان شديداً على المفسدين، سجن رجلاً كان يسعى بالناس فساداً مدة، وقد شفع له بعض أصحابه وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلّني على آخر مثله لأحبسه، وأكفّ شرّه عن الناس. كان أماراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر.

قال ابن الجوزي: وكان المستنجد موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والأسطرلاب وغير ذلك.

ومن شعره:

عيّرتني بالشيب وهو وقار ليتها عيّرتني بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني فالليالي تزينها الأقمار(١)

بويع بولاية العهد وعمره تسع وعشرون سنة أي عام ٥٤٧، وبويع بالخلافة يوم موت أبيه يوم الأحد الثاني من ربيع الأول من عام ٥٥٥.

(١) الكامل في التاريخ.

وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين، وكانت الساحة بلاد الشام ومصر ويقود القتال محمود نور الدين في كلا الساحتين حيث ضعفت الدولة العبيدية لدرجة كبيرة وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولى أمر الدفاع عن مصر.

وفي أيامه هاجت الكرج عام ٥٥٧ بلاد المسلمين ونهبوا وسبوا وقتلوا كثيراً فاجتمع لهم حكام أذربيجان ومراغة وخلاط وثأروا منهم.

وتوفي في ثمان ربيع الثاني من سنة ست وستين وخمسمائة وبهذا تكون خلافته قد زادت على إحدى عشرة سنة.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

ضعف أمر السلاجقة كثيراً، وقوي أمر الخلفاء نسبياً، وإن كانت السلطة الحقيقية إنما هي بيد أمراء الولايات أو الذين عرفوا باسم الأتابكة، حيث تعني كلمة أتابك الوالد الأمير.

تولى السلطان ملكشاه بن محمود عام ٥٥٥، وحرص على تسلم السلطنة عمه سليمان بن محمد بن ملكشاه غير أنه قتل عام ٥٥٦، وبويع ابن أخيه أرسلان شاه ابن طغرل.

٢ ـ خوارزم:

كان ايل إسلان بن اتسز هو شاه خوارزم، وكانت الأمور مستقرة له، والبلاد التي يسيطر عليها واسعة الأرجاء، وبقي في حكمه حتى توفي عام ٥٦٨.

٣ ـ الغوريون:

توفي علاء الدين حسين عام ٥٥٦ فخلفه ابنه سيف الدين محمد الذي طرد من عرف من الاسماعيلية من بلاده، وسار إلى محاربة الغز الأتراك في بلخ فهزم وقتل عام ٥٥٨، ولم يتجاوز من العمر العشرين عاماً. وتولى بعده ابن عمه غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام الذي أرسل جيشاً كبيرة بإمرة أخيه شهاب الدين فأنقذ غزنة من الأتراك الغز وقد حكموها خمس عشرة سنة، كما سار

إلى السند، غير أن الترك الغز قد عادوا إلى غزنة وحكموها. وسار شهاب الدين عام ٥٥٩ مع جيش قوي فاستولى على لاهور بعد حصار لها، وقضى على الدولة الغزنوية إذ أسر فيها خسروشاه وأرسله إلى أخيه غياث الدين فقتله.

اتسعت دولة غياث الدين وقوي أمره، وامتدت أيامه.

٤ - آل زنكي:

تابع نور الدين محمود مهمته في قتال الصليبيين وقد كان القتال بينهما سجالاً في المرحلة الأولى ثم حرص على حصرهم بين جبهتين عندما ضعف العبيديون فنال منهم كثيراً.

لقد هزم نور الدين محمود أمام الصليبيين عام ٥٥٨ عند حصن الأكراد حيث فاجأته قواتهم واضطر المسلمون إلى الفرار. وسار الصليبيون في العام التالي ٥٥٩ إلى مصر بأعداد كبيرة نجدة لشاور وفي نيتهم التسلط على مصر فهاجمهم نور الدين محمود عندها في الشمال وأرسل قائده أسد الدين شيركوه بن شادي الى مصر. لقد سار نور الدين محمود الى حصن حارم وأسر صاحب انطاكية (بيمند) وصاحب طرابلس (القومص) وأمير جيوش القسطنطينية إذ تجمع كلهم ضده فنصره الله عليهم، واتجه نحو بانياس ففتحها وكان معه أخوه نصر الدين أمير ميران وفقد يومها إحدى عينيه في المعركة.

وبعد أن ضعفت الدولة العبيدية وجّه نور الدين محمود جهده إلى الجنوب لدعم مصر ضد الصليبيين الذين ركّزوا جيوشهم إلى تلك الجهات ليبسطوا نفوذهم على مصر بإيجاد الفرقة بين المتنازعين في مصر وفي الوقت نفسه لم ينس نور الدين محمود تقديم الجهد للقتال في الشمال للتخلص من الصليبيين في إماراتهم الشمالية وجعل الصليبيين في بيت المقدس بين جبهتين فيضعف امرهم ويمكن القضاء عليهم وهذا ما تم بالواقع عندما أصبح مصر وأكثر بلاد الشام تحت نفوذ نور الدين محمود.

٥ - العبيديون:

توفي الخليفة العبيدي الفائز عام ٥٥٥ وعمره أحد عشر عاماً، وكان يدبر أمر دولته الوزير الملك الصالح فارس الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك، وتولى بعد الفائز ابن عمه العاضد أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، واستمر طلائع به رزيك في تسيير أمور الدولة غير أنه قتل عام ٥٥٦ وتسلم بعده ابنه رزيك أبو شجاع الملك العادل، وكان يحذر نائبه على الصعيد شاور بناء على وصية أبيه، وهو الذي قدّمه، وشاور هو أبو شجاع بن مجير الدين السعدي.

استطاع شاور أن يخلع رزيك بن طلائع وأن يحلّ محلّه في الوزارة، وفي عام ٥٥٨ قتل علي بن شاور رزيك بن طلائع، وكان لهذا القتل أثره في نفوس الأهلين، فأجمع أنصار الملك العادل على القيام بثورة ضد شاور، واستغل هذا الحقد أحد المقدمين وهو ضرغام وقام بحركة ضد شاور الذي فرّ إلى بلاد الشام، وتمكن ضرغام من الانتصار وقتل ولدي شاور وسجن الثالث، وتسلّم ضرغام الوزارة مكان شاور.

طلب شاور بن مجير الدين الغوث من نور الدين محمود، وتعهد له بدفع نفقات الحملة وتقديم ثلث خراج مصر إلى نور الدين محمود لقتال الصليبيين فوافقه نور الدين محمود وفي رغبته حكم مصر ليستطيع تنفيذ مهمته في حصار الصليبيين وخاصة أنه يعلم أن العبيديين على درجة من الضعف لا يستطيعون معه الوقوف أمام الصليبيين. فأرسل مع شاور حملة بقيادة أسد الدين شيركوه بن شادي.

كان المصريون يدفعون أتاوة للصليبيين واختلف ضرغام مع عموري ملك بيت المقدس الصليبي، فسار عموري الى مصر عام ٥٥٩ ليفرض أتاوة سنوية كبيرة على مصر وليفرض رأيه وانتصر على ضرغام في بلبيس وأراد ضرغام أن يتجنب الهزيمة الأكبر ففتح السدود على النيل وكان وقت الفيضان بل في

أوسع مدىً له، فأفرقت الدلتا واضطر عموري أن يعود إلى مقره، وتم لضرغام ما أراد.

بعد أن رجع عموري وصل إلى مسامع ضرغام اتفاق شاور مع نور الدين محمود فأسرع إلى عقد حلف مع عموري وزاد من قيمة الأتاوة التي يدفعها للصليبيين. غير أن شاور وصل وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن نجم الدين أيوب قبل أن يصل عموري، والتقى الفريقان في بلبيس وانتصر أسد الدين شيركوه واستولى شاور على الفسطاط بينما كان ضرغام في قصر القاهرة وقد قتل وهو يُحرّض الناس إذ تخلّى عنه أنصاره. وتسلّم شاور الوزارة، وتصالح مع الخليفة العبيدي العاضد، وشعر بقوته فرفض أن يدفع لأسد الدين شيركوه نفقات الحملة بل نقض عهده معه وطلب منه أن يرجع إلى بلاد الشام فلم يستجب أسد الدين لطلبه. فحالف شاور الصليبيين وحاصروا أسد الدين شيركوه في بلبيس فاضطر أن يعود إلى بلاد الشام بعد حصار دام ثمانية أشهر، ولم يتمكن من فك الحصار عنه إلا بعد أن قام نور الدين محمود بهجوم على الأجزاء الشمالية التي بيد الصليبيين، وانتصر على جموعهم، وأسر أمراءهم - كما ذكرنا - وفتح حارم وبانياس، فأجبر الصليبيون في بلبيس إلى فك الحصار والاتجاه نحو الشمال للوقوف في وجه نور الدين محمود.

أفاد أسد الدين شيركوه من هذه الحملة حيث عرف أوضاع مصر وطبيعة أهلها، واختلاف أبنائها ورأى من الضرورة بمكان امتلاكها كي يستطيع أن يقضي على الصليبيين فبدأ يعد العدة، واستمر في إعداد حملة قوية مدة عامين.

سار أسد الدين شيركوه بن شادي بجيش كبير إلى مصر، ووصل إلى بلبيس وهزم المصريين، غير أن شاور قد استنجد بالصليبيين فجاءوا إلى مصر بأعداد كبيرة، وحاصروا شيركوه في بلبيس وأجبروه على العودة إلى الشام. وبعد مدة رجع الصليبيون أيضاً إلى مناطقهم في فلسطين.

وقامت ثورة يحيى بن الخياط الذي طلب الوزارة لنفسه، وهو من أنصار

طلائع به رزيك، وقد قمع هذه الثورة شاور لكن قامت ثورات متعددة لكنها كانت كلها أقل أهمية من ثورة ابن الخياط. وبلغ شاور أن نور الدين محمود يعد العدة لغزو جديد لمصر، ورأى شاور أن يستنجد ثانية بالصليبيين، ووعدهم بموطن دائم في بلده.

سار أسد الدين شيركوه من الشام عام ٥٦٢ وفي الوقت نفسه اتجه الصليبيون نحو مصر أيضاً ومشى الجيشان على شاطىء نهر النيل، والتقيا في معركة جنوب مدينة المنيا، وقد انتصر شيركوه، وانسحب الصليبيون نحو القاهرة حيث كان معسكر أميرهم عموري. ولم يجد أسد الدين شيركوه نفسه قادراً على السير إلى القاهرة لذا فقد وطد أقدامه في الصعيد، وجبى الخراج، ثم سار عن طريق الصحراء إلى الإسكندرية فدخلها من دون مقاومة، فولى عليها ابن أخيه صلاح الدين وترك معه نصف الجيش، وعاد هو إلى الصعيد. وسارت القوات المصرية والصليبية نحو الإسكندرية وحاصرتها براً وبحراً إذ جاء أسطول صليبي إلى مياهها، واستمر الحصار أربعة أشهر، واستنجد صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه فجاء إليه مسرعاً، وجرى صلح بين الطرفين ينسحب بموجبه أسد الدين شيركوه من مصر مقابل خمسين ألف دينار، ولم يقبل الصليبيون بالصلح إلا لأن قوتهم ضعفت ورأوا من المصلحة السير بقوتهم إلى الشمال حيث سار نور الدين محمود ومعه أخوه قطب الدين مودود إلى البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون في منطقة طرابلس حيث فتحا صافيتا وأغارا على عرقة وحلبا.

قرر الصليبيون احتلال مصر إذ رأوا أن الوقت مناسباً لهم، فزحفوا عليها فما كان من شاور إلا الاستنجاد بنور الدين محمود فأرسل إليه حملة بإمرة أسد الدين شيركوه ومعه أخواه وابن أخيه صلاح الدين، وقد وجد نور الدين في التعاون مع شاور الانتصار على الصليبيين ثم يمكن بعدئذ التخلص من شاور وحكم مصر، وعندها تقوى جبهة المسلمين حيث تصبح واحدة ويمكن وقتئذ

طرد الصليبيين من المناطق التي سيطروا عليها.

سار الصليبيون في صفر عام ٥٦٤ إلى مصر، ودخلوا بلبيس وأساءوا إلى الأهالي، ثم اتجهوا إلى القاهرة فأحرق شاور الفسطاط كي لا يدخلها الصليبيون، فالتجأ أهلها إلى القاهرة، وخاف الناس من وصول الصليبيين إليهم لما سمعوا من أفعالهم في بلبيس والمناطق التي مروا عليها لذا أخذ الحماس أهل القاهرة وقرروا محاربة الصليبيين بكل إمكاناتهم.

بدأ شاور يفاوض عموري قائد الصليبيين ووصل شيركوه إلى القاهرة في جمادى الآخرة ولا يزال عموري على أسوارها وقد رأى أنه لا قبل له بقتال شيركوه لذا فضل الانسحاب والعودة إلى فلسطين دون قتال، ودخل شيركوه القاهرة فاستقبله المصريون بالترحاب كعادتهم مع كل قادم قوي.

رأى شيركوه أن الأمر لا يستقر إلا بالتخلص من شاور وقد قام صلاح الدين بهذه المهمة وتخلص من شاور عام ٥٦٤، وولّى العاضد الوزارة إلى شيركوه الذي توفي عام ٥٦٥ فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب ولُقّب بالملك الناصر.

وفي الوقت استولى نور الدين محمود في بلاد الشام على قلعة جعبر وأخذها من أيدي الصليبيين.

كسب صلاح الدين ثقة أهل مصر، غير أن الخليفة العبيدي العاضد كان يخشى من صلاح الدين للخلاف بينهما في العقيدة لذا بدأ يحيك المؤامرات ضده ومنها محاولة قتل صلاح الدين بيد نجاح، وهذا ما جعل صلاح الدين يقتل نجاحاً، وعندما ثار أتباعه انتصر عليهم غير أن حركتهم بقيت عدة سنوات.

اتفق الصليبيون والبيزنطيون على القيام بحملة مشتركة ضد مصر، وساروا بحملة بحرية نزلت بالقرب من دمياط، فأسرع صلاح الدين إلى دمياط وتحصن فيها، كما أن نور الدين محمود قد أسرع إلى غزو البلدان التي يسيطرون عليها.

يحاصر الكرك، وأرسل نجدة إلى صلاح الدين وكانت القوة تتحرك إثر القوة وكان على رأس إحداها أبو صلاح الدين يوسف نجم الدين أيوب وقد نصحه نور الدين محمود عندما أرسله أن يأمر ابنه صلاح الدين بالدعاء للخليفة العباسي المستنجد.

استمر حصار الصليبيين لمدينة دمياط خمسين يوماً اضطروا بعدها إلى رفع الحصار عنها نتيجة الامدادات التي كانت تصل إليها من نور الدين محمود، وشدة مقاومة صلاح الدين، ودعم الخليفة العبيدي العاضد، واستيلاء نور الدين محمود على أجزاء من مملكة الصليبيين في بيت المقدس.

غادر الصليبيون دمياط، وتفرغ صلاح الدين لتوطيد أقدامه، فجاءت أسرته من بلاد الشام، وعيّن أباه على بيت المال، وأسند مناصب القضاء إلى جماعة من المسلمين بدلاً عن العبيديين، وضعف بهذا أمر الخليفة العبيدي العاضد، وخاصة بعد أن أسند صلاح الدين إلى أنصاره بعض قيادات الجيش وعزل من يشك في إخلاصهم له.

وأقام صلاح الدين على قصر الخليفة العاضد بهاء الدين قراقوش، وحصر الأسرة العبيدية في جناح خاص من القصر، وعقد مجلساً للأمراء واستشارهم في الخطبة للخليفة العباسي المستضيء فوافقوهم وتم ذلك، وتوفي العاضد في مطلع عام ٥٦٧، ولم يدر ما تم، وبذا انتهت الدولة الفاطمية بموت العاضد، وتسلم صلاح الدين أمر مصر كلها.

٦ ـ الموحدون:

توفي عبد المؤمن بن علي عام ٥٥٨ وهو يستعد للإبحار إلى الأندلس للجهاد فيها وخلفه ابنه الأكبر محمد غير أن أمره قد اضطرب، فاتفق الموحدون برأي أخويه يوسف وعمر على خلعه وتولية يوسف بن عبد المؤمن غير أن إخوته الآخرين لم يقبلوا بهذا الرأي ومنهم أبو عبد الله صاحب قرطبة

وأبو محمد صاحب بجاية، وبقيا على خلافهما مدة سنة ثم أعلنا الخضوع والطاعة.

وعندما بويع يوسف أبو يعقوب سار على سياسة أبيه في الجهاد. ونازعه «مزدغ» الصنهاجي فقضى على ثورته عام ٥٥٩. وأرسل أخاه أبا حفص للجهاد في الأندلس فسار على رأس عشرين ألفاً عام ٥٦٥ فغزا طليطلة، وأحرز النصر، وحصل على غنائم كثيرة وسبي.

كما حدث قتال بين يوسف أبي يعقوب وبين محمد بن سعيد بن مردنيش الذي كان يحكم شرقي الأندلس وقد امتنع على عبد المؤمن وعلى ابنه من بعده وذلك عام ٥٦٥.

٧ - اليمن:

لم يتغير شيء في اليمن إذ بقي بنو زريع في عدن، وبنو حاتم في صنعاء، وبنو مهدي في زبيد، وبنو الرسي يسيطرون أحياناً على صعده، وبرز منهم يومذاك المتوكل أحمد بن سليمان.

٨ - برزت أسر في جهات مختلفة من الجزيرة العربية فقد حكمت الحجاز أسرة بني موسى التي تنتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عام ٣٥٩ بعد زوال القرامطة وبقيت حتى عام ٤٥٣ وتعد هذه الأسرة من عمال العبيديين، وقامت بعدها أسرة بنو فليتة (بنو هاشم) وتنتسب أيضاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبقيت حتى عام ٩٥٨، وقد سارت في الناس في بداية أمرها سيرة حسنة ثم أساءت المعاملة ونهبت قوافل الحجاج، وخاصة في عهد آخر أمراء هذه الأسرة وهو مكثر.

وفي اليمامة زال حكم الأخيضريين عمال القرامطة عام ٤٦٧ وتجزأت المنطقة إلى عدد من الإمارات.

وفي البحرين حكم العيونيون بعد زوال القرامطة عام ٤٦٧، وكان عبد الله ابن علي العيوني أول أمرائهم وينتسب إلى بلدة العيون، وهو من قبيلة بني عبد القيس المعروفة.

الصليبيون

ضعف أمر الصليبيين بعد الانتصارات الواسعة التي أحرزها نور الدين محمود، وبعد السيطرة على مصر، وبقيت قواتهم محصورة بين قوات نور الدين محمود من كل جهة، وبقيت المناطق التي يسيطرون عليها عبارة عن شريط يمتد على الساحل الشامي من بدايته عند اسكندرون في الشمال إلى عسقلان في الجنوب وإن كانت بعض الجيوب التي تمتد نحو الداخل عند بيت المقدس، وكانوا يتوقعون الهجوم الإسلامي عليهم في كل وقت وطردهم وإلقائهم في البحر، لذا كانت أنظارهم تتجه دائماً نحو أوربا يطلبون منها الدعم محافظةً على أوضاعهم والمكاسب التي حصلوا عليها في خلال هذه الصراعات مع المسلمين والتي طالت أيامها حتى زادت على السبعين سنة والتي ضحوا فيها بالكثير من القتل.

ـ٣٣ـ

المستضيء بأمر الله
الحسن بن يوسف المستنجد
٥٦٦ ـ ٥٧٥

هو الحسن أبو محمد المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله، ولد عام ستة وثلاثين وخمسمائة، وأمه أم ولد رومية اسمها «غضة».

بويع بالخلافة يوم مات أبوه صبيحة يوم الأحد التاسع من شهر ربيع الثاني عام ٥٦٦، وكان من خيار الخلفاء، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مزيلاً عن الناس المكوسات والضرائب، مبطلاً للبدع والمعائب، وكان حليماً وقوراً كريماً[1].

قال ابن الجوزي: فنادى برفع المكوس ورد المظالم، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا[2].

وقال ابن الجوزي عنه أيضاً: واحتجب عن أكثر الناس، فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل عليه غيرهم[3].

وقال الذهبي: في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهى، وأمن الناس، ورزق سعادة عظيمة في خلافته[4].

وفي عهده انتهت الدولة العبيدية بمصر، وبذلك عاد الأمر الشرعي فلم يبق

---

(١) تاريخ الخلفاء ـ البداية والنهاية.
(٢) تاريخ الخلفاء.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق نفسه.

سوى خليفة واحد في ديار الإسلام، وذلك عام ٥٦٧.

وتوفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٦٩ في دمشق فخلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان صغيراً، فتحرك الصليبيون فصالحهم على مال يؤديه لهم.

وخطب للمستضيء في بلاد اليمن هذا بالإضافة إلى مصر وإفريقية وبلاد الشام.

وتوفي في شوال من عام ٥٧٥ فكانت خلافته تسعة أعوام.

- ٣٤ -

الناصر لدين الله
أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله
٥٧٥ - ٦٢٢

هو الناصر لدين الله أحمد أبو العباس بن الحسن المستضيء بأمر الله، ولد في العاشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة من أم ولد تركية تُدعى «زمرد».

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه في مستهل شهر ذي القعدة من عام خمسة وسبعين وخمسمائة. كان فصيح اللسان، بليغ البيان، شجاعاً، شهماً، ذا فكرة صائبة، وعقل رصين، ومكر ودهاء. وكان له من يأتيه بالأخبار من الجهات كافة، واشتغل برواية الحديث. وكان مع ذلك رديء السيرة في الرعية، مائلاً إلى الظلم، وأخذ الأموال، وكان يفعل أفعالاً متناقضة، ومال إلى التشيع.

لم يكن في أيامه خليفة سواه، وفي عهده ضعف أمر الصليبيين، وظهر الأيوبيون وعلا سلطانهم، وكان الجميع يخطب له، وفتح صلاح الدين القدس عام ٥٨٣، وعقد صلح الرملة عام ٥٨٨، ثم توفي عام ٥٨٩، فكانت مصر لابنه عماد الدين عثمان الملك العزيز، ودمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.

وقوي أمر خوارزمشاه وقضى على سلطان السلاجقة فزالت دولتهم وزال سلطانهم عام ٥٩٠، وسار خوارزمشاه على رأس خمسين ألفاً، وبعث إلى الناصر يطلب السلطنة، وإعادة دارها إلى ما كانت عليه، وأن يجيء هو إلى بغداد، ويكون الخليفة من تحت يده، كما كانت الملوك السلاجقة، فهدم

الخليفة دار السلطنة، وردّ رسول خوارزمشاه بلا جواب، وكان خوارزمشاه قد وصل إلى همدان في طريقه إلى بغداد، فتساقط على المنطقة التي هو فيها ثلج عظيم مدة عشرين يوماً، فأثر على جيشه، كما بلغه أن شعوب الترك قد تألبت عليه، وطمعت في بلاده، فما كان عليه إلا أن يرجع، وكفى الله الخليفة القتال.

وتوفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة فكانت مدة خلافته سبعاً وأربعين سنة.

-٣٥-

الظاهر بأمر الله

محمد بن أحمد الناصر لدين الله

٦٢٢ - ٦٢٣

هو الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن أحمد الناصر لدين الله، ولد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وبويع بالخلافة عند وفاة أبيه سنة اثنتين وعشرين وستمائة فكان عمره يومذاك اثنتين وخمسين سنة. وقد أحسن إلى الرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرّق الأموال.

قال ابن الأثير: لما ولي الظاهر أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل: إنه ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنه أعاد من الأموال المغصوبة، والأملاك المأخوذة في أيام أبيه وقبلها شيئاً كثيراً[1].

وتوفي - رحمه الله - في الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاث وعشرين، فكانت خلافته تسعة أشهر وعدة أيام، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة.

---

(١) الكامل في التاريخ.

الإمارات

١ - السلاجقة:

زاد أمر السلاجقة ضعفاً، وتولى أمرهم بعد أرسلان شاه بن أرطغرل ابنه طغرل الثاني غير أنه لم يكن قادراً على تنفيذ ما يريد، وقد غدت منطقة نفوذه ضيقة، على حين كانت تتسع رقعة الدولة الخوارزمية، واستطاع علاء الدين تُكُش أخيراً أن يستولي على البلاد التي كان يسيطر عليها السلاجقة، وأن يقتل طغرل الثاني هذا عام ٥٩٠ وينهي أمر السلاجقة.

٢ - خوارزم:

توفي إيل ارسلان بن اتسز عام ٥٦٨ فخلفه ابنه الأصغر سلطان شاه محمد وكان صغيراً فكانت أمه وصية عليه، فخرج عن طاعته أخوه الأكبر علاء الدين تُكُش فاستولى على بلاد خوارزم، وقضى على السلاجقة في العراق عام ٥٩٠ إذ قتل طغرل بن ألب أرسلان، وتوسع في نفوذه في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكانت الري منطقة نزاع بينه وبين الخليفة الناصر العباسي. وبقي في الحكم حتى توفي عام ٥٩٦ فخلفه ابنه علاء الدين محمد.

وفي عام ٦٠٤ أسر علاء الدين محمد في حروبه في بلاد الخطا شرق ما وراء النهر، فأعلن أخوه علي شاه استقلاله في طبرستان وجرجان وكان عاملاً لأخيه عليها. وأخذ هراة وقاتل الغوريين عام ٦٠٥ وقتل غياث الدين محمود، وهزم

أهل الخطا هزيمة منكرة.

واستولى على كرمان ومكران وبلاد السند عام ٦١١، ثم استولى على غزنة عام ٦١٢، وحاول أن يحلّ محل السلاجقة فرفض الخليفة الناصر، فحاربه وقطع الخطبة له، وأظهر التشيع، ونصّب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه خليفة.

وقتل التجار الذين أرسلهم جنكيزخان، بل قتل رسله وهذا ما جعل جنكيزخان يهاجم بلاد خوارزم ولم يتمكن علاء الدين من صد الهجوم المغولي فانهزم أمامهم، فدخلوا خراسان، واتجه إلى جهة الغرب ومات في إحدى جزر بحر الخزر عام ٦١٧ وخلفه ابنه جلال الدين منكبرتي، فهرب إلى الهند ثم عاد بعد سنتين إلى بلاده، وقاتل المغول وهزم فعاد هارباً مع جيشه الصغير إلى الهند فلاحقته جموع المغول فقاتلهم، وغرق أكثر جيشه في نهر السند. وفي الوقت نفسه قاتل أخاه غياث الدين، وحارب الخليفة العباسي، وقاتل الحشاشين، والتركمان، وحاكم كرمان. وعاد فرجع إلى بلاده وفتح جورجيا ودعا أمراء المسلمين للتحالف ضد المغول، وفاجأه المغول فهرب منهم وقتل في قرية كردية من قبل أحد الفلاحين عام ٦٢٩ وهو لا يعرفه.

٣ - الغوريون:

توسع نفوذ غياث الدين محمد الغوري، وقاتل خوارزمشاه علاء الدين محمد واسترد منه خراسان ثم اختلف مع أخيه شهاب الدين، وهذا ما جعل خوارزمشاه يسترد خراسان، وتوفي غياث الدين محمد عام ٥٩٩ وخلفه أخوه شهاب الدين فكثر غزوه في بلاد الهند وقتل عام ٦٠٢ ولم يكن له ولد فمال وزيره والأتراك إلى تولية ابن أخيه وهو غياث الدين محمود.

واختلف الغوريون على الحكم كما كثر المتمردون عليهم وهذا ما مكّن لعلاء الدين محمد خوارزمشاه أن يقضي على الدولة الغورية بعد أن ملكت

الهند، ووصلت إلى البنغال.

٤ ـ آل زنكي:

سار نور الدين محمود إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقي في آسيا الصغرى حيث يعرفون هناك باسم سلاجقة الروم وذلك عام ٥٦٨ فأصلح ما وجد من خلل ثم سار ففتح مرعش وغيرها.

وسار أيضاً نور الدين محمود عام ٥٦٩ إلى بلاد الروم ومعه ملك الأرمن وصاحب ملاطية فهزم الروم وحاصرهم فصالحوه، وعاد إلى دمشق فتوفي في العام نفسه، وخلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل، وكان صغيراً فتحرك الصليبيون فصالحهم على مال يؤديه لهم.

وعزم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٠ إلى السير إلى الشام لما ظهر من سوء الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ومن ابن عمه سيف الدين غازي أمير الموصل وكان من قبل لا يجرؤ أن يقوم بأي عمل أيام عمه نور الدين محمود، واستناب مكانه أخاه الملك العادل أبا بكر فدخل دمشق وانتقل الملك الصالح اسماعيل إلى حلب.

وولى صلاح الدين على دمشق أخاه سيف الإسلام طغتكين وسار إلى حلب، وأخذ في طريقه حمص وحماه وقاومت حلب واستنجدت حاشية اسماعيل بالقومص ريموند صاحب طرابلس الصليبي الذي أسرع لاحتلال حمص ومناصرة أمير حلب، وهذا ما أجبر صلاح الدين عن رفع الحصار عن حلب، ورجع إلى حمص فهزم ريموند صاحب طرابلس الصليبي ورجع إلى حلب فدخلها واعترف الملك العادل اسماعيل بسلطان صلاح الدين على بلاد الشام كلها.

توفي الملك العادل اسماعيل عام ٥٧٧، ولم يكن له ولد فأوصى لأمير الموصل عز الدين فأصبحت حلب والموصل له. فطلب ابن عمه عماد الدين

صاحب سنجار أن يأخذ حلب ويسلم عز الدين سنجار فتكون أملاكه متصلة، وقصد عماد الدين محاربة صلاح الدين وهذا ما أجبر صلاح الدين على العودة إلى حلب ودخولها فتنازل عنها عماد الدين مقابل تسليمه سنجار، وأصبحت حلب ضمن أملاك صلاح الدين وآلت من بعده إلى ابنه الظاهر، وبقيت بأيدي الأيوبيين حتى جاء المغول فملكوها منهم.

أما في الموصل فقد تولى أمرها بعد وفاة عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي الذي توفي عام ٥٤٤ فخلفه أخوه قطب الدين مودود الذي استمر في حكمه لها حتى توفي عام ٥٦٥ وخلفه ابنه سيف الدين غازي الثاني والذي بقي يسلك مسلكاً معتدلاً مدة حياة عمه نور الدين محمود فلما توفي عمه عام ٥٦٩ تبدل مسلكه حتى توفي عام ٥٧٦ وخلفه عز الدين مسعود، فنور الدين أرسلان شاه عام ٥٨٩، ثم عز الدين مسعود الثاني عام ٦٠٧، ثم نور الدين ارسلان شاه الثاني عام ٦١٥، ثم نور الدين محمود عام ٦١٦ ثم بدر لؤلؤ عام ٦٣١ فاسماعيل بن لؤلؤ ٦٥٧ ثم جاء المغول عام ٦٦٠.

وفي سنجار تولى عماد الدين زنكي الثاني به قطب الدين مودود الأمر عام ٥٦٦ وخلفه قطب الدين محمد عام ٥٩٤ ثم عماد الدين شاهنشاه عام ٦١٦ وخلفه ابنه محمود عام ٦١٧ ثم دخلها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف ثم خربها المغول عام ٦٢٨.

وفي الجزيرة تولى آل زنكي حكمها أيضاً وعندما توفي سيف الدين غازي الثاني عام ٥٧٦ أوصى لابنه سنجر شاه بأمر الجزيرة وكان سيئاً وخلفه عليها ابنه الذي قتله معز الدين محمود ثم خضع معز الدين محمود لصلاح الدين الذي وحد البلاد لقتال الصليبيين.

٥ ـ الأيوبيون:

ذهب صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ لفتح بلدة الكرك في الأردن واستناب أباه مكانه على مصر، فتوفي أثناء غيابه، وكان أبوه نجم الدين أيوب

ابن شادي كثير الصلاة والصدقة والصيام، كريم النفس، جواداً.

وفي عام ٥٦٨ أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه إلى بلاد النوبة ففتحها، واستولى على معقلها وهو حصن يقال له «ابريم»، ولما رأى توران شاه بلاد النوبة قليلة الخيرات لا يكفي خراجها بكلفتها، استخلف على الحصن المذكور رجلاً كردياً اسمه ابراهيم، وأبقى معه جماعة من الأكراد أيضاً فكانوا يشنون الغارات على بلاد النوبة وما جاورها ويحصلون على الغنائم.

وفي عام ٥٦٩ أرسل صلاح الدين فرقة إلى اليمن بإمرة أخيه شمس الدولة توران شاه فاستطاع أن يملكها وأن ينهي حكم آل مهدي في زبيد وآل حاتم في صنعاء وآل زريع في عدن. وبقي في اليمن حتى عام ٥٧٠ فاستخلف عليها ورجع إلى الشام ومات عام ٥٧٦ بالاسكندرية، ثم خلفه أخوه السلطان العزيز طغتكين الذي اتخذ صنعاء حاضرة له ثم انتقل إلى تعز، واتسع نفوذه إلى حضرموت، وبقي من عام ٥٧٩ - ٥٨٣ وقد أرسله أخوه صلاح الدين من الشام إلى اليمن.

وعندما توفي السلطان العزيز طغتكين سيف الإسلام خلفه ابنه اسماعيل الملقب بالمعز، وتبنّى الاسماعيلية أيام أبيه فطرده، ولكن الوالد لم يلبث أن توفي فعاد المعز ودخل زبيد، وظلم فثار عليه الأكراد وقتلوه عام ٥٩٨. وفي أيامه ظهر المنصور عبدالله بن حمزة الرسي واشتبك مع المعز في عدة معارك.

وتولى أمر اليمن بعد المعز أخوه أيوب بن طغتكين وتوفي مسموماً عام ٦١١، ويعرف باسم الناصر. وخلفه يوسف (المسعود، صلاح الدين، أبو المظفر) ابن محمد (الكامل) ابن الملك (العادل) أبي بكر محمد بن أيوب، سيّره جده العادل إلى اليمن عام ٦١٢ فضبط أمورها، وقاتل شريف مكة حسن بن قتادة وهزمه، وسافر إلى مصر فأناب عنه عام ٦٢٠ عمر بن علي بن رسول (وبنو رسول جماعة من التركمان جاءوا إلى اليمن مع الأيوبيين) ثم بلغه خبر قوة بني رسول فخاف من استقلالهم فعاد إلى اليمن عام ٦٢٤ فعاقب بعض بني

رسول وسجنهم إلا عمر بن علي نائبه، وسافر إلى دمشق، واستخلف عمر بن علي، ومات في مكة وهو في طريقه إلى دمشق عام ٦٢٦ وهو آخر ملوك بني أيوب في اليمن. وقامت بعده دولة بني رسول.

وعندما وفاة المسعود الأيوبي استقل عمر بن علي باليمن ولقب بالمنصور نور الدين وبقي في الحكم حتى عام ٦٤٧، وقد قاتل الإمام الرسي أحمد بن الحسين (أبو طير) وعندما توفي خلفه ابنه المظفر يوسف بن عمر.

أما الملك الناصر يوسف صلاح الدين بن أيوب فقد كان في مصر عند وفاة نور الدين محمود ولما عزم السفر إلى الشام وصل أسطول للصليبيين من صقلية ونزل بالاسكندرية فتصدى له أهلها وانتصروا على من فيه وذلك عام ٥٧٠. كما أن أحد أنصار العبيديين قد جمع الناس حوله في أسوان فأرسل إليه صلاح الدين أخاه العادل محمد أبو بكر فهزمه وقتله. وامتد نفوذ صلاح الدين نحو الغرب إذ أرسل سرية عام ٥٦٨ إلى إفريقية فاستطاعت أن تدخل مدينة طرابلس الغرب.

وسار صلاح الدين إلى دمشق فدخلها، وهادن الصليبيين وهو في مرج الصُفّر عام ٥٧١، ثم ملك حلب غير أنه أبقاها للملك العادل اسماعيل بن نور الدين محمود الذي اعترف له بسلطانه عليه ثم رجع إلى مصر، وأخذ يستعد لقتال الصليبيين.

وفي أثناء غياب صلاح الدين في مصر حاول الصليبيون عام ٥٧٣ أخذ مدينة حماه فلم يتمكنوا فارتدوا لأخذ حصن حارم فلم يستطيعوا ذلك.

وفي عام ٥٧٥ كان صلاح الدين في تل القاضي قرب بانياس عند منابع نهر الشريعة فجاءه الصليبيون بقوة كبيرة فهزمهم عند مرجعيون هزيمة منكرة. وأرسل سرية مؤلفة من ثمانمائة فارس إلى بلاد الروم فانتصرت على جيش رومي قوامه عشرون ألفاً.

وتوفي الملك العادل اسماعيل بن نور الدين محمود عام ٥٧٧ فسلط صلاح

الدين نفوذه على حلب والموصل، وبذا أصبحت المناطق التي تحت سلطان صلاح الدين متصلة وعلى امتداد أملاك الصليبيين وتحيط بها من كل جهة وتحصرها في الساحل.

وبلغه خبر إغارة (رينولد) صاحب حصن الكرك على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج، وأخذه بعض القوافل المسلمين الحجاج، عندها هاجم صلاح الدين المناطق الصليبية وهزمهم هزيمة منكرة في حطين ٢٥ ربيع الثاني عام ٥٨٣، ثم استولى على طبريا، وتابع طريقه إلى عكا فاستولى عليها، ثم دخل نابلس، والرملة، وقيسارية، ويافا، وبيروت وما حولها، وعسقلان وبذا أصبحت المناطق الصليبية قسمين إحداها في انطاكية في الشمال، والثاني في الجنوب وهو بيت المقدس الذي أصبح داخلياً معزولاً عما حوله ويحيط به صلاح الدين من كل جهة، وأخذ يستعد للهجوم عليه، فسار إلى القدس بجيش عظيم، ورأى الصليبيون أنفسهم عاجزين عن المقاومة لذا فقد طلبوا الصلح على أن يسلموا بيت المقدس ويخرجوا منه بأموالهم وأولادهم مقابل فدية يدفعها كل منهم، فكان يأخذ من الرجل عشرين ديناراً، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن الطفل دينارين، وضمن لهم الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس، ودخل صلاح الدين القدس في ٢٧ رجب عام ٥٨٣.

وجاءت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥، وأحرز ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا انتصاراً على جيش صلاح الدين في أرسوف وتابع زحفه نحو عسقلان فوجد نفسه أمام قوة كبيرة فبدأ في اجراء مفاوضات حتى تم صلح الرملة عام ٥٨٨ الذي ينص على وقف الحرب لمدة ثلاث سنوات بين الطرفين، وأن تبقى القدس بيد المسلمين ويسمح للنصارى بزيارة الأماكن المقدسة عندهم فيها، وأن تكون سواحل بلاد الشام من صور إلى يافا تحت حماية الصليبيين.

وتوفي صلاح الدين - رحمه الله - عام ٥٨٩ في دمشق وخلفه ابنه عثمان

العزيز عماد الدين[١] وقد حكم ست سنوات حتى توفي عام ٥٩٥ حيث خلفه ابنه المنصور محمد ولم يبق سوى سنة وعدة أيام إذ خلع عام ٥٩٧ حيث تسلم السلطة الذي خلعه وهو وزيره وعم أبيه أخو صلاح الدين وهو الملك العادل سيف الدين وبقي حتى عام ٦١٥ وفي أيامه استولى الصليبيون الجرمان بإمرة جان دي بريين على دمياط، وتوفي العادل في ذلك العام، وأوصى خليفته ابنه محمد الكامل بإخراج الصليبيين منها، وقد عمل الكامل بنصيحة أبيه فطلب النجدات فجاءته من بلاد الشام فسار إلى الصليبيين فالتقى بهم عند مدينة المنصورة فأغرق الكامل السفن في نهر النيل فقاض فلم يستطع الصليبيون التقدم وحلت بهم الهزائم واضطروا إلى طلب الصلح فأجابهم إلى ذلك عام ٦١٨ فانسحبوا من مصر بعد أن بقوا في دمياط ثلاث سنوات وأربعة أشهر. وكانت مدة الصلح ثمان سنوات.

اختلف الكامل محمد مع أخيه الملك المعظم صاحب دمشق، في حين خرج امبراطور ألمانيا فريدريك الثاني بحملة إلى فلسطين وتزوج بابنة الملك جان دي بريين التي ورثت من أبيها بيت المقدس حسب الزعم النصراني، وهذا ما أجبر الملك الكامل محمد أن يعقد صلحاً مع فريدريك وأن يتنازل بموجبه عن بيت المقدس بشرط أن يبقى مسجد عمر وما جاوره بيد المسلمين، وأن يطلق الملك الكامل الأسرى الصليبيين جميعهم وذلك عام ٦٢٦. وتوفي الكامل عام ٦٣٥، وكان قد أرسل ابنه الملك المسعود إلى مكة فدخلها عام ٦٢٠، وامتد نفوذه من الجزيرة الفراتية إلى الحجاز ومصر وتوفي بدمشق، فبايع الأمراء بمصر ابنه محمد العادل بن محمد الكامل بن محمد العادل أبا بكر سيف الدين، ونافسه نجم الدين أيوب أبو الفتوح الملك الصالح وهو أخوه الأكبر، ودخل إلى مصر، وقبض على العادل وسجنه عام ٦٣٧، وتولى هو السلطة.

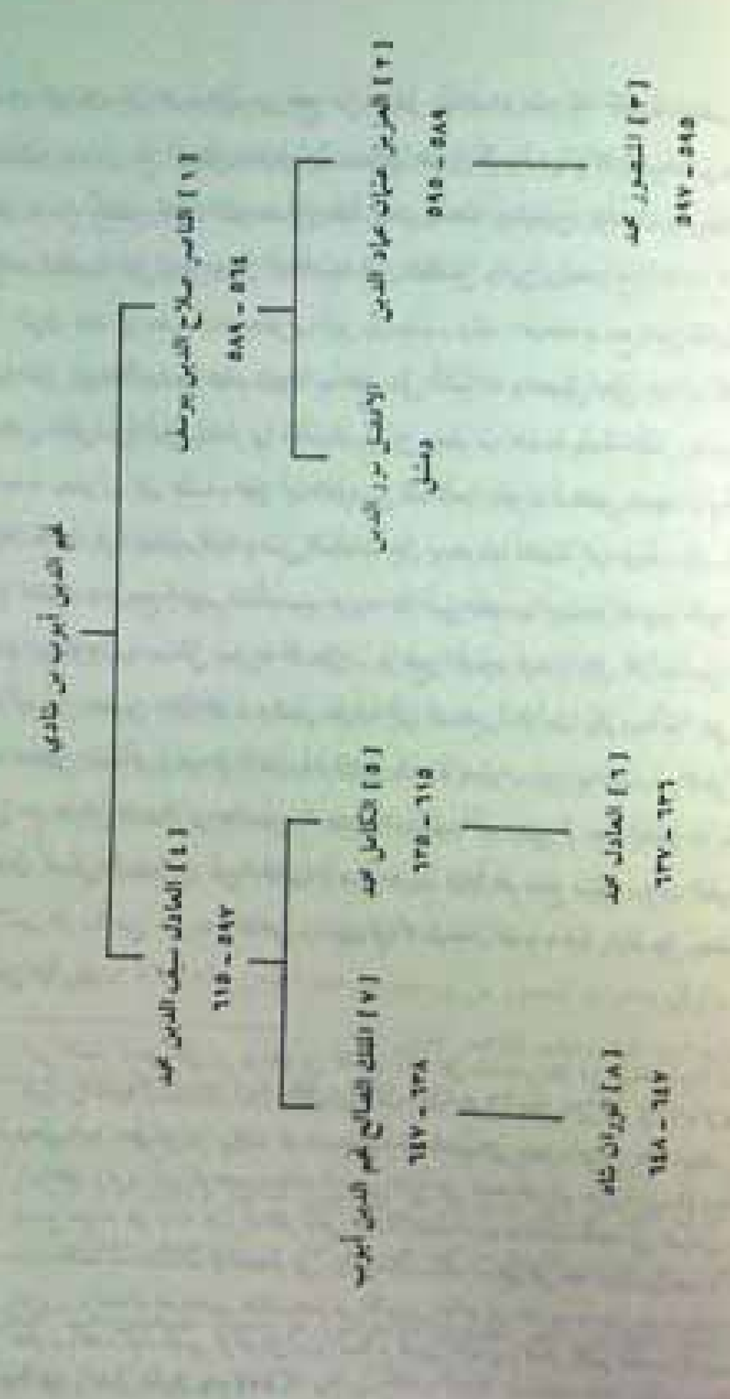
(١) أبو الفتح: كان نائباً عن أبيه بمصر فلما توفي أبوه بدمشق استقل بمصر وحاول أخذ دمشق من أخيه الأفضل فلم ينجح مرتين ونجح في الثالثة عام ٥٩٢.

وفي عهد الملك الصالح شن لويس التاسع ملك فرنسا هجوماً على دمياط واستولى عليها، وتقدم نحو المنصورة، وانتصر في بداية الأمر ثم رده المماليك بقيادة الظاهر بيبرس، وفي هذه الأثناء توفي الملك الصالح فكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته ٦٤٧، وبقيت تدير هي الأمر بنفسه باسمه، وارسلت إلى ابنه توران شاه تستقدمه، وعندما وصل إلى القدس انتقلت إلى القاهرة، واختلفت مع ابن زوجها، وقتله بعض المماليك في (فارسكور) ولم يصل إلى القاهرة، وإنما جاء مباشرة إلى ميدان المعركة وقاتل الصليبيين واسترد دمياط، وكانت وفاته عام ٦٤٨، ومدة سلطنته أربعون يوماً. وبموته انتهى أمر الدولة الأيوبية.

تابعت شجرة الدر حكم الدولة وكانت توقع باسم «أم خليل» و«المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين» ولم يستقر أمرها سوى ثمانين يوماً، وخرجت الشام عن طاعتها، وجعلت عز الدين أيبك وزيراً لها وكان وزير زوجها، ثم تزوجته، وتنازلت له عن السلطنة، لكنها كانت هي المسيطرة عليه، ولقب عز الدين أيبك بالملك المعز، وعندما أراد أن يتزوج عليها، قتله مماليكها، وعلم ابنه علي فعمل على قتلها عام ٦٥٥.

٦ ـ الموحدون:

سار يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٨٠ بجيش كثيف إلى الأندلس، فاستولى على المدن في طريقه، واتجه إلى أشبونة في غربي الأندلس، وحاصرها، وأشاع النصارى في إحدى الليالي أن يوسف قد ارتحل عائداً إلى المغرب فسرى هذا الخبر في صفوف الجيش الإسلامي فسادة الاضطراب وبدأ الناس بالرحيل أيضاً، وفك النصارى الحصار بذلك وخرجوا نحو خيمة يوسف فاستقبلهم وقاتلهم فقتل عدد من حرسه وأصيب هو بطعنات بليغة، وشعر المسلمون بما تم



فعاد الناسك إلى صفوفهم ورجع من غادر ونشبت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون، ورجع الجيش وتوفي يوسف في طريق العودة، وكان يوسف - رحمه الله - من أعظم خلفاء الموحدين حباً للعلم وأهله وتقديراً لرجاله، وعاش في أيامه الطبيب ابن زهر ومن الفلاسفة ابن الطفيل وابن رشد.

تولى بعد يوسف ابنه يعقوب أبو يوسف، وقد اصطدم مع ابن غانية[1]، كما سار إلى الأندلس عام ٥٨٥ وأغار على أشبونه وحصل على غنائم كثيرة. وطلب الفونس أمير نصارى الأندلس من يعقوب هدنة لمدة خمس سنوات، فأجابه يعقوب إلى طلبه، غير أن الفونس قد شعر بقوته فنقض العهد، وأرسل إليه كتاباً فيه تهديد فلما وصل الكتاب إلى يعقوب أعاده إليه وبعد أن كتب على ظهره «ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون» - من سورة النحل - وجمع الجنود وسار إلى الأندلس حتى اقترب من حصن الأرك، وقسم جيشه إلى قسمين: الأول يقوده أبو يحيى بن أبي حفص الهنتاني وهو في المقدمة والثاني يقوده يعقوب بن يوسف، والتقى أبو يحيى مع جيش النصارى فانتصروا عليه واستشهد أبو يحيى ثم جاء يعقوب بقوته وطوق جيش النصارى من الخلف وعمل فيهم قتلاً فلم ينج منهم سوى الفونس وثلاثين فارساً من حرسه الخاص وذلك في ٣ شعبان عام ٥٩١. ودخل يعقوب حصن الأرك.

(١) ابن غانية: أرسل علي بن يوسف بن تاشفين والياً على بلنسية رجلاً من قبيلة مسوفة يدعى يحيى بن غانية (نسبة إلى أمه) وكان يحيى هذا بطلاً مغواراً وفقيهاً ورعاً، ثم ولاه قرطبة، وبقي فيها حتى مات، وكان قد استعمل أخاه محمداً على بعض أعماله، فلما ضعف أمر المرابطين وقوي أمر الموحدين خاف محمد بن غانية على نفسه ففر إلى جزيرة ميورقة وملكها ووسع نفوذه على بقية جزر البليار وهي منورقة ويابسة، ودعا هناك للخلفاء بني العباس، ولما مات خلفه ابنه إسحاق ثم حفيده علي بن إسحاق، وقد استغل علي هذا موت يوسف بن عبد المؤمن، وانشغال الموحدين بقتال نصارى الأندلس فاتجه إلى المغرب واحتل بجاية وقلعة بني حماد وساعده بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين الأيوبي، فسار إليهم يعقوب بن يوسف وقاتلهم وانتصر عليهم عام ٥٨٤.

عاد الفونس فجمع حشوده وسار إلى قتال يعقوب الذي كان قد طلب أيضاً نجدة من المغرب والتقى الفريقان، وانتصر المسلمون وغنموا كثيراً عام ٥٩٢، وفي العام نفسه أغار يعقوب المنصور على طليطلة وما جاورها ورجع بعدها إلى اشبيلية، وصالح بعض أمراء النصارى الذين طلبوا تجديد مدة الهدنة معه ورجع بعدها إلى المغرب.

كان ابن غانية في هذه الأثناء قد قصد المغرب ويعقوب المنصور مشغول بحروبه في الأندلس، وعاث ابن غانية الفساد في شمالي إفريقية، فسار إليه يعقوب المنصور بعد أن هادنه النصارى وانتصر عليه.

في هذا الوقت كانت الحروب الصليبية على أشدها في المشرق وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يُخلّص القدس من أيدي الصليبيين عام ٥٨٣، وجاءت بعدها حملة صليبية كبيرة إلى بلاد الشام فما كان من صلاح الدين الأيوبي الناصر إلا أن أرسل هدية وكتاباً إلى المنصور يعقوب بن يوسف يطلب منه الدعم لرد الصليبيين عن بلاد المسلمين غير أن المنصور لم يكن بوسعه ذلك إذ لم تقل الحروب الصليبية في الأندلس شأناً عن الحرب الصليبية في المشرق ومع ذلك فقد أرسل له مائة وثمانين سفينة لتكون عوناً لأسطول المسلمين في المشرق ضد الأسطول الصليبي.

وتوفي يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٩٥ ودفن في تينمال، وخلفه ابنه محمد ولقب الناصر لدين الله.

سار محمد الناصر إلى حرب ابن غانية وكان قد استولى على المهدية وانتصر على الموحدين في تونس، فهزمه وخلّص مدن شمالي إفريقية منه الواحدة تلو الأخرى حتى فرّ ابن غانية ورجع إلى جزر البليار وذلك عام ٦٠٢، وولى الناصر على تونس الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني.

أغار الفونس أمير نصارى الأندلس على ثغور المسلمين فيها فسار إليه الناصر وقد جمع جيشاً كبيراً وانتقل إلى الأندلس عام ٦٠٧ ووصل إلى

اشبيلية، وقسم جيشه إلى خمس فرق وأمر كل فرقة أن تنزل في ناحية من الأندلس لاضعاف معنويات النصارى بإظهار كثرة حشود المسلمين، ووقع الرعب في نفوس النصارى وقد طلب أمير بنبلونة الصلح من الناصر، وسار الناصر إلى حصن «سلبطرة» فحاصره مدة ثمانية أشهر حتى ضعف أمر المسلمين المحاصرين وشعر الفونس بما حل بجنود المسلمين نتيجة حصارهم للحصن فسار إليهم واحتل قلعة «رباح» من الموحدين، فاقتحم الناصر الحصن عندئذ وسار نحو الفونس والتقيا في حصن العقاب فانتصر النصارى عليه في تلك المعركة التي جرت في ١٥ صفر عام ٦٠٩ وكانت هذه الهزيمة ضربة شديدة على المسلمين.

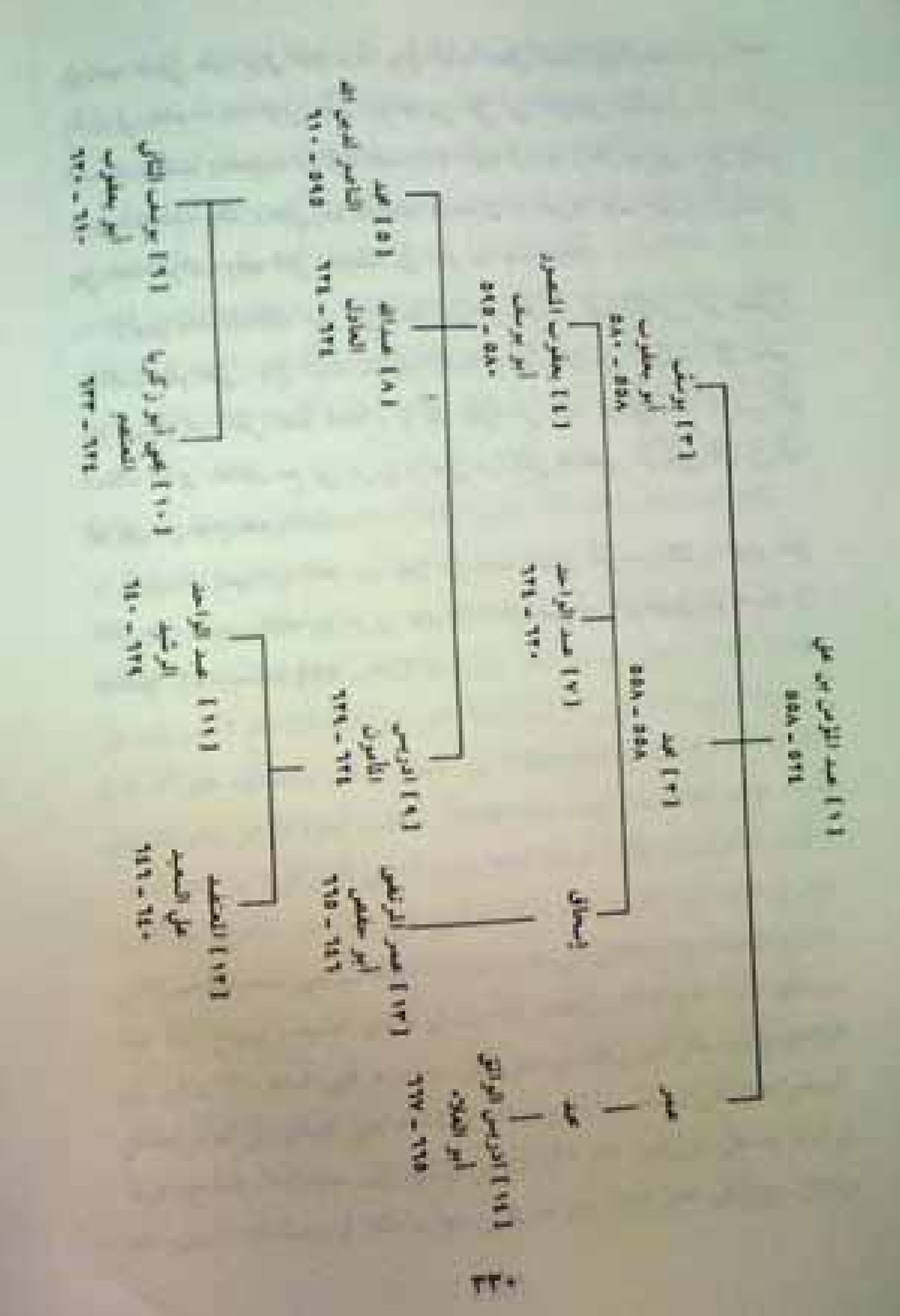
توفي محمد الناصر عام ٦١٠ وتولى مكانه ابنه يوسف أبو يعقوب وقد عرف باسم يوسف الثاني، وكان في السادسة عشرة من عمره، فطمع بعض أفراد أسرته في الحكم لصغره، وأصبح المتسلطون من الأمراء وغيرهم من الوزراء يولون الصغار ليبقى لهم نفوذهم. وولي بعد يوسف الثاني عم أبيه عبد الواحد ابن يوسف بن عبد المؤمن، وكان رجلاً كبيراً فلم يلبث أن خلع لأنه لم يقو على القيام بأعباء الحكم، ونُصّب عبدالله بن المنصور ولُقّب بالعادل، غير أنه عُزل وبعد عزله بثلاثة عشر يوماً مات مخنوقاً، ونُصّب أخوه الآخر وهو ادريس ولُقّب بالمأمون، ثم نكثوا بيعته ٦٢٤ وبايعوا يحيى أبا زكريا بن محمد الناصر فخرج عليه عمه المأمون عام ٦٢٦ وهزم يحيى، ودخل المأمون مراكش، وخرج المأمون من مراكش في بعض حروبه فاقتحم يحيى مدينة مراكش ودخلها ثانية عام ٦٢٩، وهلك المأمون في وادي العبيد، وبويع ابنه عبد الواحد ولُقّب بالرشيد وهاجم مراكش، وهزم يحيى عام ٦٣٠ وفر إلى الصحراء، ودخل الرشيد مراكش، وبعد مدة عاد يحيى بجيش من البربر وقاتل الرشيد ودخل مراكش عام ٦٣٢، وفرّ الرشيد إلى سجلماسة، فجمع جيشاً ودخل مراكش عام ٦٣٣ وهرب يحيى منها ولكنه لم يلبث أن اغتيل. أما

الرشيد فبقي حتى توفي عام ٦٤٠ وفي أيامه دخل النصارى قرطبة عام ٦٣٦.

وفي عام ٦٤٠ تولى أمر الموحدين علي بن ادريس المأمون أبو الحسن السعيد ولقب بالمعتضد وذلك بعد وفاة أخيه الرشيد وحارب بني مرين الذين قوي أمرهم، وقد وصل إلى تلمسان فتصدى له أميرها يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد، وقد قتل المعتضد في المعركة عام ٦٤٦.

وتولى بعد المعتضد عمر بن اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن، أبو حفص، ولقب بالمرتضى، وفي أيامه استولى النصارى الإسبان على اشبيلية، كما حاصر بنو مرين مراكش عام ٦٥٥، ثم ثار عليه ابن عمه الواثق بالله ادريس أبو العلاء، الذي تحالف مع بني مرين واحتل مراكش فاختفى المرتضى فأرسل إليه الواثق من قتله عام ٦٦٥.

تولى ادريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن أمر مراكش، فقوي أمر الخارجين عليه، وقتله بنو مرين عام ٦٦٧ فانقضى أمر الموحدين بموته بعد أن حكموا ١٥٢ سنة (٥١٥ - ٦٦٧).



الصَليبيّون

بعد الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - على الصليبيين عام ٥٧٥ في مرجعيون، ومهاجمة أسطول المسلمين لمدينة عكا اضطر بالدوين الرابع إلى عقد صلح مع المسلمين، كما قام صلاح الدين بالهجوم على انطرطوس الأمر الذي أرعب ريموند الثالث واضطر إلى عقد هدنة مع صلاح الدين.

انصرف صلاح الدين بعد هذه الهدنة إلى تعزيز أوضاعه الداخلية وتقوية جيوشه غير أن أرناط أمير حصن الكرك الصليبي استغل فرصة انشغال صلاح الدين لأمور بلاده فاتجه إلى تيماء راغباً في الوصول إلى المدينة المنورة، واستولى في طريقه على قافلة للحجاج المسلمين وسلب الأموال وأسر الرجال ووصل إلى ساحل البحر الأحمر فأغضب بذلك صلاح الدين فذكّر الصليبيين بالهدنة، وطلب من ملك القدس الصليبي أن يأمر أرناط بالكفّ عن تعدياته فلم يستمع أرناط، ولا حزم الأمر بالدوين الرابع، وهذا ما حدا بصلاح الدين أن يسير من مصر للهجوم على حصن الكرك في الأردن، وأن يسير نائبه على دمشق ابن أخيه فرخشاه للهجوم على طبريا وعكا وقد استولى على الشقيف والتقى الجيشان المسلمان مع الصليبيين في معركة كان النصر فيها حليف المسلمين.

وصل صلاح الدين إلى دمشق ثم خرج منها عام ٥٧٨ وأرسل ابن أخيه للهجوم على بيسان، وسار هو بعده وهزما الصليبيين هزيمة منكرة.

رأى صلاح الدين أن أهم أمر لديه هو أن يفصل الإمارات الصليبية بعضها عن بعض، وحشد جنده من دمشق ومصر وحلب والجزيرة وسار عام ٥٧٩ إلى بيسان فاستولى عليها، وحاصر الكرك والشوبك وانتصر على الصليبيين قرب صفورية وتجمع الصليبيون هناك فسار هو إلى طبريا واحتلها، ثم عسكر قرب حطين وتقدم إليه النصارى وهم متعبون عطشى فاستقبلهم المسلمون فعملوا فيها قتلاً وأسراً فكان ممن أسر الملك وأخوه وأرناط وأمير جبيل، وقتل صلاح الدين أمير الكرك بيده نتيجة ما اقترف، وكانت معركة حطين في ٢٥ ربيع الآخر عام ٥٨٣ وهي من أعظم الانتصارات، ثم تقدمت الجيوش الإسلامية على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ويافا والرملة وغزة وبيت جبرين، وعرض على الصليبيين تسليم القدس فدخلها عنوة في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣، ثم استولى على عسقلان وعكا، واستسلمت صرفند وصيدا وبيروت وجبيل. ولم يبق للصليبيين بعد هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين من إمارة بيت المقدس سوى صور فكانت مركزاً لتجمعهم، ومن إمارة طرابلس سوى المدينة نفسها وحصن الأكراد وانطرطوس، ومن إمارة انطاكية سوى المدينة نفسها والسويدية وحصن المرقب.

وكان لفتح صلاح الدين للقدس وللانتصارات الواسعة التي حققها أثر كبير في أوربا إذ أخذت الصيحات الصليبية تتعالى، والنصارى يتنادون للسير إلى بيت المقدس لدعم إخوانهم ومهاجمة المسلمين، ووجه البابا غريغوري الثامن كتباً إلى ملوك فرنسا وألمانيا وانكلترا يحثهم على حرب المسلمين، واستجاب هؤلاء لهذا النداء، وحشدوا جموعهم وتحركوا نحو ديار الإسلام فكانت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥.

سارت الحملة الصليبية الثالثة بإمرة ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فيليب أغسطس، وامبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا. وقد

انطلق ملكا انكلترا وفرنسا إلى جزيرة صقلية عن طريق البحر وقضيا فصل الشتاء، وأما امبراطور ألمانيا فسار وانطلق براً ماراً على القسطنطينية رغم خلافه مع الامبراطور البيزنطي اسحاق الثاني كذلك عبر أراضي سلاجقة الروم في قونية، ولقي ترحيباً من الأرمن في كيليكيا غير أنه غرق وهو يعبر نهر سيحان في كيليكيا فتفرق جنده، وأصاب المرض بعضهم، وتابعه ابنه الطريق بعد أن عوفي واتجه نحو عكا فالتقى الحصار عليها عام ٥٨٦، ثم وصل إلى عكا ملكا انكلترا وفرنسا مع جندهما وقاومت مدينة عكا، والتقى صلاح الدين مع الصليبيين في عدة معارك غير أنه اضطر أن يغادر المنطقة بسبب الأوبئة التي انتشرت، وضيّق الصليبيون الحصار على عكا فاضطرت إلى الاستسلام بعد حصار دام عامين، وبرز ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا بين الصليبيين لما عرف عنه من قسوة وسوء فقد قتل أسرى عكا جميعاً، وعاد ملك فرنسا إلى بلاده. وطمع ريتشارد قلب الأسد في دخول القدس فاستولى على حيفا وأرسوف بعد أن انتصر في الثانية منها على صلاح الدين بعد معركة حامية، ثم اتجه نحو اللد والرملة فوقف صلاح الدين في وجهه وأحكم الدفاع عن القدس حتى يئس ريتشارد قلب الأسد من الوصول إلى هدفه، وانتشرت الأمراض بين الصليبيين، واضطربت الأمور في انكلترا فاضطر ريتشارد قلب الأسد إلى عقد صلح مع صلاح الدين عام ٥٨٨ عرف باسم صلح الرملة، وبذا تكون الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت ولم تصل إلى هدفها.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - عام ٥٨٩ رأى البابا أن أمر المسلمين سيتفرق لذا فيجب الاستعداد لانطلاق حملة صليبية رابعة تسترد القدس ثم تأخذ كل ما قد سبق واحتلوه، ودعا البابا انوسنت الثالث أمراء النصارى إلى هذا عام ٥٩٤ وتولى عدد من الأمراء هذه الدعوة وعلى رأسهم الفرنسيون، ورأوا أن تسير الحملة إلى مصر ومنها تنطلق إلى القدس، كما رأوا أن يستعينوا بالأسطول البندقي لنقل المحاربين بحراً فاشترطت البندقية مساعدة

الصليبيين لها لاسترداد مدينة (زارا) من الهنغاريين فاستجاب الصليبيون لذلك من غير موافقة البابا، وتم للبنادقة ما أرادوا، وبينما كان الجميع يستعدون للانطلاق إلى مصر إذ يثور في القسطنطينية الأمير الكيسوس على أبيه الامبراطور إسحاق الثاني وتفشل ثورته فيفر إلى الغرب، ويطلب من البابا ومن الصليبيين مساعدته ضد أبيه ويتعهد في حالة نجاحه إخضاع الكنيسة البيزنطية للبابوية، كما يتعهد بمساعدة الصليبيين في حملتهم ولقي هذا المطلب هوى في نفس البابا ومن الصليبيين فساروا براً نحو القسطنطينية واحتلوها عام ٦٠٠، وخربوها، وتمنى أهلها أن يكون المحتلون المسلمين لا النصارى لأنهم كانوا يجدون الرحمة المعروفة عند المسلمين والمنزوعة من نفوس النصارى. وهكذا فشلت الحملة الصليبية الرابعة ولم تؤد غرضها وإنما أظهرت للناس جميعاً أن الحملات الصليبية كانت وحشية معبأة بالحقد والضغينة على المسلمين، وكان من نتائجها أن ترك بعض الصليبيين بلاد الشام واتجهوا إلى قبرص أو اليونان ليعيشوا حياة رغيدة بعدما عاشوا حياة مليئة بالأحداث الدامية. كما زادت من الخلاف بين النصارى البيزنطيين والنصارى الغربيين.

وحاول الصليبيون في حصن الأكراد الاستيلاء على حمص عام ٦٠٤ فاستنجد صاحبها أسد الدين شيركوه الثاني بصاحب حلب الملك الظاهر وقاوموا الصليبيين. وهاجم القراصنة الصليبيون في قبرص بعض السفن المصرية وأخذوا من فيها أسرى فسار الملك العادل الأيوبي نحو عكا، وأجبر الصليبيين أن يردوا الأسرى المسلمين، ثم سار الملك العادل إلى حمص لدعمها وأغار على حصن الأكراد وعلى طرابلس فاضطر صاحب طرابلس الصليبي بوهيمند الرابع إلى عقد صلح مع العادل، كما عقد الملك حنا برين صلحاً مع الملك العادل لمدة ست سنوات ولكنه في الوقت نفسه كان يراسل البابا ويطلب منه الدعم والعمل لإرسال حملة صليبية جديدة تصل إلى بلاد الشام مع انتهاء الصلح الذي يمتد من ٦٠٨ - ٦١٤.

دعا البابا أنوسنت الثالث إلى تعبئة جيش صليبي جديد يتجه إلى بلاد الشام مباشرة، وسارت الحملة بقيادة دوق النمسا ليوبولد، وملك هنغاريا أندريه الثاني ثم لحق بها ملك قبرص هيواير ووصلت هذه الحملة الصليبية الخامسة إلى بلاد الشام ٦١٥ واجتمعت جموعها في عكا وساروا فاستولوا على بيسان في الغور ووصلوا إلى بلدة نوى. ولم يتفق ملك هنغاريا مع دوق النمسا لذا قرر العودة إلى بلاده.

وخرج حنا برين للهجوم على دمياط وجاءته جموع صليبية بإمرة مندوب البابا الكاردينال «بلاغيوس» وجموع من قبرص. وتوفي الملك العادل وخلفه ابنه الكامل الذي جاءه دعم من أخيه المعظم صاحب دمشق ولكن بدأ في هذا الوقت الهجوم المغولي فعرض الكامل الصلح فلم يقبله الصليبيون الذين استولوا على دمياط وشعروا بنشوة الظفر، فقرروا الهجوم على القاهرة لكنهم فشلوا بسبب الفيضانات التي حدثت بقطع المسلمين السدود فطلبوا الصلح وسلموا رهائن وهم صاغرون حتى يجلوا عن دمياط وتم الجلاء عام ٦١٨ وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة ولم تحقق شيئاً.

ضعف أمر الصليبيين واهتز مركزهم وهذا ما جعل بعضهم يتجه إلى البابا ويطلب منه العمل على إرسال حملة تعيد لهم وضعهم السابق غير أن البابوية كانت في صراع مع الأمراء والمتنورين فلم يكن بإمكانها تلبية الطلب سريعاً. ومن ناحية ضعف مركز الأيوبيين وبدأت خلافاتهم بعضهم مع بعض تظهر فقد دب الخلاف بين أبناء الملك العادل أخي صلاح الدين، وتسلم الكامل السلطة واختلف مع أخويه الأشرف والمعظم، فخاف الكامل على سلطانه، وفي الوقت نفسه فقد هددت العراق والشام من قبل الخوارزميين الذين تجمعوا في أصفهان بعد أن شردهم المغول، وهذا ما جعل الملك الكامل يطلب نجدة من امبراطور ألمانيا فريدريك الثاني الذي وافق على ذلك إذ عرض عليه الكامل تسليمه القدس وشجعه البابا هنريوس الثالث ثم البابا غريغوري الذي جاء بعد

الأول، فأخر فريدريك من جنوبي إيطاليا ثم رجع عن رأيه وعاد مظهراً المرض فأصدر البابا قرار الحرمان ضده عام ٦٢٤، وخاف الامبراطور من غضب البابا وانطلق نحو الشرق متجهاً نحو عكا ووصل رجاله إليها عام ٦٢٥ بينما تخلف الامبراطور في قبرص ثم لحق بهم بعد مدة.

لم يكن لوصول هذه الحملة الصليبية السادسة أية آثار إذ أن الامبراطور فريدريك لم يرغب في محاربة المسلمين وإنما يرغب في الحصول على بيت المقدس، والملك المعظم قد مات ولم يعد الملك الكامل يخشاه، ولم يرغب في قتال الصليبيين لأن استعداداته قليلة، والصليبيون لم يتقبلوا مجيء الحملة لأن قائدها على خلاف مع البابا. غير أن الكامل قد وافق وسلّم الامبراطور القدس، فتوّج فريدريك نفسه على غير رضىً من الكنيسة، وعقد هدنة مع الكامل لمدة عشر سنوات وذلك في يافا عام ٦٢٦. ورجع فريدريك إلى بلاده إلا أن البابا حرّض على التعدي على أملاك فريدريك في ايطاليا، ووصل فريدريك إلى إيطاليا عام ٦٢٦، وهكذا انتهت الحملة الصليبية السادسة وإن لم تقاتل إلا أنها تسلمت القدس من الكامل الذي أضاع ما بذله عمه صلاح الدين.

ضعف الأيوبيون، وشجع تسليم الكامل بيت المقدس الصليبيين فهاجموا صاحب حماه الملك المظفر، وكان يدفع أتاوة لهم غير أنه انتصر عليهم، ولكنهم بقوا يغيرون على بلاده، وزاد من ضعف الأيوبيين قتالهم لخوارزمشاه، وملاحقة الروم بقيادة علاء الدين كيقباد، ثم انقسام بعضهم على بعض إذ عمل إخوة الملك الكامل على الإطاحة به غير أنهم فشلوا، وتوفي عام ٦٣٥، وهذا كله أطمع الصليبيين في ديار المسلمين إذ توقعوا أن يحصلوا على نصر حين فدعت الكنيسة إلى إعداد حملة صليبية جديدة، وهي الحملة السابعة، فاستعد الفرنسيون وانطلقت بقيادة تيبوب الرابع فوصلت إلى عكا عام ٦٣٧. ولما كان الناصر داود أمير الأردن قد هاجم القدس وفتحها لأن الصليبيين نقضوا ما عاهدوا عليه من عدم تحصينها وبهذا رجعت منطقة مسلمة.

واختلف الصليبيون فيما بينهم على جهة السير فمنهم من يرى القدس، ومنهم من يرى دمشق، ومنهم من يريد عسقلان، وآخر يبغي مصر. ثم اتحدت كلمتهم إلى السير إلى عسقلان ولكنهم هزموا أمام المسلمين فرجعوا هاربين إلى عكا.

وفي عام ٦٣٧ عزل العادل الثاني وتسلم الأمر الصالح نجم الدين أيوب، فغضب من ذلك الصالح اسماعيل وتحالف مع الصليبيين ضد بقية أمراء بني أيوب، وسلّم الصليبيين مقابل هذا الاتفاق القدس وعسقلان وطبريا، إلا أن العز بن عبد السلام قد انسحب من جيشه ومعه عدد كبير، وانضم إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب فهزموا الصليبيين هزيمة كبيرة، وبهذا فشلت الحملة الصليبية الفرنسية واضطرت إلى العودة إلى بلادها بعد أن عقدت صلحاً عام ٦٣٩ مع الصالح نجم الدين أيوب.

وبعد عودة الحملة الفرنسية جاءت حملة انكليزية بقيادة ريتشارد كورنول أخي ملك انكلترا هنري الثالث، غير أن الصالح نجم الدين أيوب تحالف مع الخوارزميين ضد أمراء بني أيوب الذي اتفقوا مع الصليبيين فاتجه الخوارزميون نحو بلاد الشام ودخلوا القدس عام ٦٤٢، وانتصروا على الصليبيين في غزة انتصاراً باهراً، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بجانب الخوارزميين ويقود جيوشه الظاهر بيبرس، وغدا الصالح نجم الدين أيوب صاحب النفوذ في مصر والشام وفلسطين وأظهر أمراء بني أيوب له الطاعة.

وحاول بطريق القدس أن يستقدم حملة صليبية بإلحاحه المستمر غير أنه لم يوفق، وفي عام ٦٤٦ قاد ملك فرنسا لويس التاسع حملة صليبية فرنسية بعد أن شفي من مرضه، ومرت الحملة على قبرص، وراسلت المغول ثم اتجهت إلى مصر فاحتلت دمياط، وجاءت نجدة فرنسية بإمرة ألفونس أخي لويس التاسع، وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وملكت الأمر زوجته شجرة الدر واستدعت ابنه توران شاه فجاء مباشرة إلى أرض المعركة فانتصر على الصليبيين وقتل أخا الملك لويس التاسع وهو روبرت، فانسحب الصليبيون إلى

دمياط، وفاوض الملك لويس التاسع توران شاه في أن يسلم الأيوبيين دمياط مقابل تسليمهم القدس له فرفض طلبه، ودارت معركة ثانية بين الطرفين انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً وأسر ملك فرنسا لويس التاسع، ولم يطلق سراحه حتى أمليت الشروط على الصليبيين فوافقوا عليها وانسحبوا إلى عكا، ثم انسحب لويس التاسع إلى فرنسا عام ٦٥٢ بعد أن فشل في التحالف مع بعض الأمراء الأيوبيين بل ومع المغول الذين كانوا لا يزالون بعيدين عن ساحة المعركة، وبعد أن جاء المماليك قضوا على ما بقي للصليبيين من آثار في بلاد الشام.

الحملات الصليبية

في هذه المرحلة

٤٨٩ ـ ٦٥٦

الحملة الصليبية	عام البداية	القيادة	الأسباب	النهاية
الأولى	٤٨٩	بطرس الناسك ـ وأمراء	الحقد الصليبي	استقرت
الثانية	٥٤١	كونراد الثالث ملك ألمانيا لويس السابع ملك فرنسا	استعادة الرها	٥٤٩
الثالثة	٥٨٥	ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا فيليب المعظم ملك فرنسا فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا	استعادة بيت المقدس وما أضاعه الصليبيون بحروبهم مع صلاح الدين الأيوبي	
الرابعة	٥٩٤	أمراء فرنسيون		
الخامسة	٦١٥	ليوبولد دوق النمسا اندريه الثالث ملك هنغاريا هيابر ملك قبرص	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام	٦١٨
السادسة	٦٢٥	فريدريك ملك ألمانيا	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام	٦٢٦
السابعة	٦٣٧	ليوب الرابع الفرنسي	دعت الكنيسة الى هذه الحملة عندما رأت ضعف المسلمين واختلاف بعضهم مع بعض	٦٣٩
	٦٣٩	ريتشارد كورنول الانكليزي	اتجهت الى تونس	٦٥٢
	٦٤٩	لويس التاسع ملك فرنسا		

-٣٦-

المستنصر بالله
منصور بن محمد الظاهر بأمر الله
٦٢٣ـ٦٤٠

هو منصور، أبو جعفر بن الظاهر بأمر الله ولد من جارية تركية عام ثمانية وثمانين وخمسمائة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله في شهر رجب من عام ثلاثة وعشرين وستمائة، فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرّب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والمدارس، والمستشفيات وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وأحبه الناس، وكان ذا شجاعة وإقدام، وقد هزم جنود التتار في الوقت الذي خافهم البشر. وكان له أخ شجاع أيضاً صاحب همة عالية يقال له الخفاجي، فكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم غير أنه لم يتولّ، وإنما الذي تولّى الخلافة بعد المستنصر ابنه عبد الله أبو أحمد المستعصم حيث فيه ضعف مكّن للوزراء الذين عملوا على توليته أن يُسيّروا أمور الدولة من دونه.

توفي المستنصر في العاشر من جمادى الآخرة من عام أربعين وستمائة فكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت خلافته ست عشرة سنة وعشرة أشهر. وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة، كثير الصدقات والبر والصلات، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه. وكان يبني الرُبُط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان. وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث وحماماً ودار طب،

ووقف فيها كتباً نفيسة.

وكان المستنصر - رحمه الله - كريماً حليماً رئيساً، متودداً إلى الناس، وكان جميل الصورة، حسن الأخلاق، بهي المنظر(1).

(1) انظر البداية والنهاية.

-٣٧-
المستعصم بالله
عبد الله بن منصور المستنصر بالله
٦٤٠ - ٦٥٦

هو عبد الله، المستعصم بالله، أبو أحمد بن منصور المستنصر بالله، آخر خلفاء بني العباس في بغداد، ولد سنة تسع وستمائة من أم ولد اسمها هاجر، بويع بالخلافة عند وفاة أبيه يوم الجمعة في العاشر من جمادى الآخرة عام أربعين وستمائة. خرّج له الشرف الدمياطي أربعين حديثاً. أجيز له بالحديث، وأجاز جماعة بالحديث عنه.

كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكن لم يكن مثلهما في الحزم والشجاعة وعلو الهمة، وكان فيه لين وضعف، وركن إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي الذي كان يوجّه الخليفة بشكل غير صحيح، ويسير به بطريق غير مستقيمة، وقد أطمع التتار بالسير إلى العراق وأخذ بغداد ونصح لهم، وإذا جاء خبر عنهم كتمه عن الخليفة على حين كان يخبرهم بأحوال الخليفة وأوضاع البلاد، وكان يريد أن يقضي على الدولة العباسية ويقيم خليفة من آل علي، وكانت الرسل تتنقل بين العلقمي والتتار خفيةً، والناس في غفلة عما يُراد بهم، والخليفة تائه لا يطّلع على الأمور.

كان الخليفة المستنصر والد المستعصم قد استكثر من الجند ليدافع بهم عن دولته، ومع ذلك كان يصانع التتار ولكن إذا تعدوا قاتلهم وقهرهم، وعندما جاء المستعصم أشار عليه العلقمي بأن يُقلل من الجند ولا فائدة لهذه الأعداد يرافقه، كما أشار عليه بمصانعة التتار وإكرامهم، وفي الوقت نفسه كان الوزير

يتصل مع التتار ويشجعهم على القدوم إلى العراق، وطلب منهم أن يكون نائبهم والمقدم عندهم فوعدوه بذلك، وساروا إلى بغداد. وكان قد استوزره عام ٦٤٢، وكان من قبل أستاذاً بدار الخلافة فجعل مكانه ابن الجوزي.

قتل المستعصم بالله على يد التتار يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر من سنة ست وخمسين وستمائة. وقد كان حسن الصورة، جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه المستنصر في العدل وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد. وكان - رحمه الله - سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه.

وبمقتله انتهت دولة بني العباس في العراق، فهو آخر خلفاء هذه الدولة، والسابع والثلاثون منهم.

التتار

في الوقت الذي بدأ يضعف فيه المد الصليبي في بلاد الشام وينحسر عن مناطق سبق له أن سيطر عليها، وترحل بعض الجماعات من الصليبيين عن جهات كان لها أن سيطت عليها لما أصابها من يأس في الاستقرار، ولما حلّ بها من هزائم، وقبل أن يودع الصليبيون إماراتهم التي أسسوها بعد أن ألقوا بوحشيتهم عليها، وأذاقوا همجيتهم لسكانها قبل الرحيل الأخير بدأت تظهر في شرق ديار الإسلام قوة عظيمة تتمتع بقدرة كبيرة على الحركة وعندها إمكانات قتالية ضخمة، تلكم هم التتار.

لقد خشي الصليبيون أن يُسلم التتار باحتكاكهم مع المسلمين كما حدث لأبناء عمومتهم من الترك من السلاجقة والغزّ وغيرهم وإذا ما حدث هذا فإن المسلمين يزدادون قوةً إلى قوتهم ويُخشى على أوربا وليس على الصليبيين في بلاد الشام فحسب، لذا يجب أن يكون عمل الصليبيين بالدرجة الأولى الحيلولة دون حدوث ذلك، ثم العمل لجعل التتار يقاتلون المسلمين الذين يقعون عندئذٍ بين نارين: نار التتار في الشرق، ونار الصليبيين في الغرب، ومن هذا المنطلق فقد أرسل الصليبيون الرسل إلى التتار، وحدّثوا لهم ديار الإسلام وغلاتها، ومنتجاتها، وخيراتها، وإمكاناتها، وحالها، وأهميتها، وإمكانية الإفادة منها، وحرّضوهم على غزوها وامتلاكها هذا بالإضافة إلى الرسل كانت النساء النصرانية التي دخلت بيوتات التتار على شكل حليلات أو خليلات تعمل عمل الرسل بشكل مستمر، وهذا ما أوجد الفكرة عند التتار للانطلاق

نحو الغرب والاستيلاء على ديار الإسلام ولم يبق عندهم إلا وجود مبرر للقيام بهذا العمل أو تعرض له دوافعه المباشرة.

والتتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي. «أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان براري، ومشهورون بالشر والغدر»(١) حياتهم رعوية، ونظامهم قبلي، يطيعون رؤساءهم طاعة كبيرة، ويحبون الحرب والسلب، يعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، يأكلون لحوم الحيوانات جميعها حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف دياناتهم القديمة بالشامانية، يُقدمون الأضاحي لبعض الحيوانات الشريرة ويُقدسون أرواح الأجداد.

والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعاً من مغول وترك وسلاجقة وغيرهم. وقد يكون سيطرة قبيلة المغول على التتار في مرحلة من مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع. وهناك من يقول: إن التتار والمغول أخوان وقد سيطر المغول مع الفرعين عندما قام جنكيزخان بدك الدول، وعلى كلٍ فإن كلمة تتار اليوم تطلق على القبائل الموجودة في شرق روسيا وسيبيريا وشبه جزيرة القرم. على حين تطلق كلمة المغول على القبائل الموجودة في الصين وأفغانستان. وكان المغول هم المسيطرون أيام جنكيزخان واسمهم يعمّ القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمورلنك وشمل اسمهم القبائل كلها.

ولما جمع جنكيزخان قبائل التتار حوله وانطلق نحو الشمال الشرقي في بلاد الصين يضم البلاد إليه بدأ التحريض من قبل الصليبيين على بلاد المسلمين، فاتجه جنكيزخان نحو الغرب. وظهرت جماعة من التتار حوالي عام ٦٠٦ في بلاد فرغانة فحزب خوارزمشاه محمد تكش فرغانة والشاش وكاسان خوفاً من

(١) تاريخ الخلفاء.

أن يستولي عليها التتار. وبدأ التتار يتخطفون في تلك الجهات، واستمرت الحالة حتى عام ٦١٥.

أرسل جنكيزخان رسلاً للمهادنة بينه وبين خوارزمشاه محمد تكش ولسير التجار بين المملكتين فأجابه خوارزمشاه إلى ذلك، وجاء بعض التجار التتار إلى بلاد ما وراء النهر ليشتروا ثياباً لجنكيزخان الذي انطلق إلى بعض نواحي تركستان فلما وصلوا إلى بلاد خوارزم شاه أخبره نائبه على تلك البلاد بذلك فأمره بقتل التجار وأخذ ما معهم، وذلك لأن خوارزمشاه بعد أن ملك بلاد ما وراء النهر من الخطا قطع الطريق بينه وبين بلاد تركستان ليحول دون هجوم الخطا عليه ولينقطع عنهم البضائع والحاجيات فلما استولى التتار على تركستان بدؤوا يُغيرون على بلاد ما وراء النهر للحصول على حاجاتهم ورغبةً في السلب والنهب فلما جاء تجارهم أمر خوارزمشاه بقتلهم، وأرسل عيوناً له إلى تركستان ليعرف خبر التتار وأعدادهم فلما رجعت إليه الأخبار بكثرة التتار وقدرتهم القتالية وصنعهم بأنفسهم للسلاح الذي يقاتلون به ندم على ما بدا منه، وبدأ يستشير أصحابه وبينما هو في المشاورة جاءته رسالة من جنكيزخان مفادها التهديد إذ يقول: تقتلون تجاري وتأخذون أموالهم فإني قادم إليكم بجنود لا قبل لكم بها، فما كان من خوارزمشاه إلا أن قتل رسول جنكيزخان وحلق لحى من معه وأعادهم إلى جنكيزخان ليُعلموه بما فعل بهم، ويُخبروه أن خوارزمشاه قادم إليهم أيضاً، وسار خوارزمشاه فعلاً فأغار على بلاد التتار، ورجالها عنها غائبون مشغولون بقتال أحد أمرائهم، فقتل من وجد من الأطفال وسبى النساء، وعاد التتار وعلموا وهم على طريقهم بالخبر، فجدّوا السير فأدركوا خوارزمشاه ولم يغادر ديارهم بعد فوقعت بين الجانبين معركة رهيبة كادت تفنيهما لما صبروا وغادر كل صاحبه يائساً من الحرب لما ناله، ورجع خوارزمشاه إلى بُخارى وبدأ يستعد للقتال، فحصّن بخارى وسمرقند، وسار يجمع الجند من خوارزم وخراسان.

وجاء التتار وخوارزمشاه غائب للاستعداد فدخلوا مدينة بخارى بعد أن طلب أهلها الأمان، ولكن اعتصم من اعتصم بالقلعة فملكها عنوةً، وعمل الطاغية جنكيزخان بأهلها العجائب والمبيقات، ثم اتجهوا إلى سمرقند فتصدى لهم أهلها، وتراجع التتار وتبعهم أهل سمرقند ظناً بالنصر، وكانت الكمائن فأصيب أهل سمرقند، وفعل بهم الطاغية ما فعل ببخارى، ووجه عشرين ألف فارس في أثر خوارزمشاه فانطلق إلى مازندران ومنها الى همدان ثم رجع إليها ثم انتقل إلى جزيرة في بحر الخزر مات بها عام ٦٢٠.

وسار الفرسان التتار إلى مازندران فأخذوها ثم اتجهوا إلى الري، وهمدان، ثم ساروا إلى أذربيجان وأخذوها، وانتصروا على الأكراد والتركمان والكرج ودخلوا باب الأبواب (دربند)، وانطلقوا إلى بلاد القفقاس فقاتلوا اللان والجراكسة وانتصروا عليهم، وانطلقوا عام ٦٢٠ إلى بلاد روسيا فدخلوها ونهبوها، وقاتلهم البلغار فانتصروا عليهم، وقتلوا كثيراً من التتار، وعاد الباقي ممن بقي منهم إلى جنكيزخان وخلت أرض روسيا والقفقاس منهم.

أما جنكيزخان فقد بقي في سمرقند وأرسل قسماً ممن بقي معه إلى فرغانة، وآخر إلى ترمذ وكل احتل ما سار إليه وفعل بالسكان فعل التتار، ورجع إلى جنكيز خان، ولما اجتمعت لديه الجيوش ثانية أرسل جيشاً عظيماً بإمرة أحد أولاده إلى خوارزم، ووجه جيشاً آخر إلى خراسان فوصل إلى بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنهم، وعندما وصل إلى الطالقان لم يستطع دخول قلعتها فأخبر جنكيزخان فسار إليها بنفسه وملكها ورجع إلى سمرقند بينما اتجه الجند إلى مرو فحاصروها ثم نكثوا بعهدهم عندما دخلوها، ثم ساروا إلى نيسابور، ومنها إلى طوس، فهراة. ثم رجعوا إلى جنكيزخان بعد أن انتهوا من خراسان.

وأما الجيش الذي سار إلى خوارزم فقد دخلها ثم عاد إلى جنكيزخان. وعندما اجتمعت الجيوش لديه، جهز جيشاً قوياً وسيّره إلى غزنة وعليها جلال الدين بن خوارزمشاه فانتصر المسلمون وفرّ التتار عائدين إلى الطالقان. والتقى

المسلمون ثانية مع التتار في كابل وانتصر المسلمون مرة أخرى ثم اختلفوا ففارقهم سيف الدين الخلجي (والخلجيون من الأتراك) واتجه إلى الهند وملكها، وحاول جلال الدين إعادته بكل وسيلة فلم يتمكن. وشعر جلال الدين بضعف المسلمين فسار نحو السند، وشعر كذلك جنكيزخان فلاحقه، ولم يتمكن جلال الدين من عبور نهر السند فاضطر إلى قتال التتار، وهُزم المسلمون، واستطاعوا في النهاية اجتياز النهر، ورجع التتار إلى غزنة فملكوها وليس فيها جند فجعلوها أثراً بعد عين بناءً وسكاناً بعد أن مثّلوا وارتكبوا المنكرات التي لا تذكر من هولها.

ووجه جنكيزخان جماعةً من جنده إلى الري وهمدان وكان العمران قد عاد إليها فقتلوا من فيها وخربوها. وكان التتار يخرجون بالأسرى ويطلبون منهم القتال معهم وإلا قتلوهم لذا كانوا يضحّون بأعداد كبيرة، ويُوهمون الأعداء بكثرتهم، ويُخيفونهم بأفعالهم فيفرّون من المعارك، وتنقطع قلوبهم رعباً قبل لقاء التتار.

وصمد غياث الدين بن خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش في أصفهان وامتنع عن التتار الذين عجزوا عن دخول مدينته فلما انصرفوا عنها توسّع وملك أجزاء من فارس، وفي عام ٦٢٢ وصل إليه أخوه جلال الدين عائداً من الهند، واتجه من أصفهان إلى خوزستان ليملكها فلم يتمكن منها، وسار إلى العراق فقابله جند الخليفة ومنعوه، ثم سار إلى أذربيجان فملكها، وهُزمت الكرج أمامه فدخل بلادهم، وولّى عليها أخاه غياث الدين، وعاد هو إلى تبريز، ثم عاد إلى تفليس عاصمة الكرج وفرض الإسلام على أهلها، وتصرّف تصرف الفاتح الظالم.

والغريب أن المسلمين كانوا يواجهون التتار وفي الوقت نفسه يقاتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم أرض بعض إذا دخلها، والمحنة دائرة عليهم، والشدة نازلة بهم، ويتصوّر كل واحدٍ منهم أنه عمل لجمع المسلمين للوقوف في وجه

التتار ، وهذه هي المحنة في هذه المرحلة وبداية الضعف الذي جاء في المستقبل.

سار جلال الدين إلى كرمان حيث استبد بها نائبه وراسل التتار ، وبعد دخولها رجع إلى تفليس لنقمة أهلها عليه، ومنها سار إلى بلاد الأبخاز على ساحل البحر الأسود وقاتل الكرج، ثم قاتل الملك الأشرف في خلاط ، وحارب التركمان.

ورجع الكرج إلى تفليس وليس بها جند من المسلمين فدخلوها وأحرقوها.

وسار جلال الدين إلى التتار بالقرب من الري وقد وصل إليه خبر مسيرهم نحو بلاد المسلمين فالتقى بهم وهزمهم.

ومات جنكيزخان عام ٦٢٤ وخلفه ابنه الثالث أوجتاي، وتأثر بذلك الولد الأكبر منه جغطاي وهو الثاني لمخالفة ذلك التعيين لتقاليد المغول التي تقضي بتعيين الولد الأكبر ، وقد ذبح أوجتاي أربعين فتاة جميلة على روح أبيه وكثيراً من الخيل، وبقي في عاصمة المغول (قره قورم) في منغوليا.

اتجه أوجتاي فقضى على امبراطورية شمالي الصين ، كين ، بمساعدة امبراطورية جنوبي الصين ، سونغ ، ثم التفت إلى الغرب فأرسل جيشاً قوامه خمسين ومائة ألف مقاتل، وأمره بالتحرك نحو مملكة خوارزم ، وكان خوارزمشاه جلال الدين قد اختلف مع أخيه غياث الدين الذي التجأ إلى الاسماعيلية فحموه.

وصل التتار من جديد إلى جهات الري لقتال جلال الدين وقد ألهم توسعه الجديد بعد رجوعه من الهند وسار إليهم جلال الدين، وجرت حروب كثيرة بين الفريقين، كانت الدائرة في أغلبها تدور على خوارزم، وكان النصر في آخرها لجلال الدين، ثم هُزم فرجع إلى أصفهان، وقاتل التتار من جديد، وفارقه قبل المعركة أخوه غياث الدين مع فرقة من الجيش وظن التتار أنها خديعة فانهزموا، وكذلك كان ظنه هو أيضاً فانهزم، وشعر التتار بما كان فرجعوا يحاصرون أصفهان وجاء إليها جلال الدين وهزم التتار وتبعهم إلى

الري، ثم رجع إلى أرمينيا ونهبها ، وجاء جيش آخر من التتار ففر من وجهه، وهام على وجهه وقتله أحد الفلاحين عام ٦٢٩ في إحدى القرى الكردية.

وجاء التتار إلى أذربيجان عام ٦٢٨ فملكوها واتجهوا إلى ديار بكر والجزيرة ، ووصلت جماعة منهم إلى اربيل وحاصروها وأرسل الخليفة نجدة لأهلها فانشمر التتار راجعين عنها وقد أخضعوا الجميع وارتكبوا أبشع الجرائم ، وأفسدوا أعظم الفساد حتى خافهم الناس، وقتلوا الكثير من الأكراد والتركمان ، وفرّ من وجههم الخلق. قال الموفق عبد اللطيف في خبر التتار : هو حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوي الأخبار ، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تُصغّر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض ، وتملؤها ما بين الطول والعرض ، وهذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند ، لأنهم في جوارهم ، وبينهم وبين مكة أربعة أشهر ، وهم بالنسبة إلى الترك عراض الوجوه ، واسعو الصدور ، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة في الجسم والرأي ، تصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم ، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ، لأن الغريب لا يتشبه بهم ، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم ، ونهضوا دفعة واحدة ، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه ، ولا عسكر حتى يخالطوه ، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل ، وتضيق طرق الهرب ، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم ، والغالب على سلاحهم النشاب ، وأكلهم أي لحم وُجد ، ولا في قتلهم استثناء ولا إبقاء ، يقتلون الرجال والنساء والأطفال ، وكان قصدهم إفناء النوع ، وإبادة العالم ، لاقصد الملك والمال[1].

وقال ابن الأثير : لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين! ومن الذي يهون عليه ذكر

(١) نقلاً عن تاريخ الخلفاء.

ذلك! فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول هذا الفعل يتضمن الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو اسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجّال فإنه يُبقي على من تبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعمّ ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح[1]. ويقول: ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما دياناتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه[2].

(١) الكامل في التاريخ.
(٢) المصدر نفسه.

وجه أوجتاي بن جنكيزخان عام ٦٣٧ ثلاثة جيوش: أحدها إلى كوريا، والثاني إلى امبراطورية (سونغ) في جنوبي الصين التي ساعدته بالأمس ضد امبراطورية شمالي الصين (كين)، والثالث إلى شرقي أوربا، وجعل قائد هذا الجيش الثالث ابن أخيه (جوجي) أكبر إخوته، وهو (باتو بن جوجي)، فدخل باتو بلاد البلغار (قازان)[1]، ثم دخل التتار موسكو، واتجهوا إلى كييف أكبر مدن روسيا آنذاك فأبادوها. وانقسم جيش (باتو) بعدها إلى قسمين: قسم بإمرته وسار نحو بلاد المجر، والآخر بإمرة (بيدار) واتجه نحو بولندا، وقد انتصر الأول على المجر وذبح الجيش المجري كاملاً، وأحرق الثاني ما استطاع عليه من مدن بولندا، ومات أوجتاي عام ٦٤٤ فاستدعي ابن أخيه (باتو) للرجوع إلى بلاد المغول. وخلف (أوجتاي) ابنه (كيوك) الذي مات عام ٦٤٦ وخلفه ابن عمه مانجو بن تولوي بعد اضطرابات في قره قورم حول الملك، وقد وجه أخاه كوبيلاي إلى الصين فاتخذ عاصمةً له في بكين، وسيّر أخاه الآخر هولاكو لغزو بلاد فارس والعراق وبلاد الشام، وتوفي مانجو عام ٦٥٥ فخلفه أخوه (كوبيلاي) فأخضع الصين، وأصبحت بكين عاصمته حاضرة المغول بدلاً من قره قورم.

ووصل التتار إلى أذربيجان، واتجهت فرقة منهم إلى أربيل عام ٦٣٤ وحاصرتهم ثم دخلتها غير أن القلعة قد امتنعت عنها فأرسل الخليفة نجدةً لأهل أربيل فانهزم التتار، وسارت جماعات من خوارزم بعد هزيمتهم أمام التتار، وانطلقت إلى الغرب، ولعبت دوراً في أحداث بلاد الشام، وتحالفت مع بعض ملوك الأيوبيين ضد بعضهم الآخر.

وفي عام ٦٣٨ كتب (أوجتاي) خان التتار الأعظم إلى ملوك المسلمين يدعوهم فيها إلى الطاعة. ولما تولّى مانجو قيادة التتار جهّز حملةً بقيادة أخيه

(١) كانت بلاد البلغار في حوض نهر الفولغا الآن حيث تقع قازان اليوم.

هولاكو للاتجاه نحو الغرب ودخول فارس والعراق والشام. ولما تم إعداد الحملة انطلق نحو بلاد ما وراء النهر فجاءه الأمراء يعلنون طاعتهم، ثم سار إلى فارس وطلب من الأمراء معاونته للقضاء على الاسماعيلية، وجاءه أمراء من خراسان وأذربيجان وجورجيا، وقد تمكن من هزيمة الاسماعيلية وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله، واتخذ من مدينة همدان مقراً لقيادته، وكتب إلى الخليفة المستعصم يعاتبه على عدم مساعدته في قتال الاسماعيلية، كما طلب منه أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويتنازل لابنه عن السلطة، ويحضر هو لمقابلته، أو يرسل إليه نيابة عنه الوزير سليمان شاه، ويهدده إن لم يقبل النصح.

أرسل له الخليفة رسالة حملها إليه شرف الدين ابن الجوزي فيها شيء من إظهار القوة والاستعداد، واستشار هولاكو من معه من المسلمين فأشار عليه حسام الدين الفلكي بعدم التعرض للخلافة وبغداد، على حين أن نصير الدين الطوسي قد شجعه على المضي لبغداد. وانطلق إلى بغداد يقود هو قسماً من الجيش حصارها من الشرق ويرافقه عدد من المسلمين أمثال أمير الموصل، وأمير شيراز، ونصير الطوسي، وأعطى إمارة القسم الآخر من الجيش إلى «باجو» وعهد إليه بإلقاء الحصار على بغداد من جهة الغرب.

وكانت قد وقعت فتنة في بغداد عام ٦٥٥ بين أهل السنة والرافضة وسببها ممالأة الوزير ابن العلقمي الرافضي للطاغية هولاكو. وكان ابن العلقمي قد اجتمع مع هولاكو، وعندما استشاره الخليفة المستعصم أشار عليه بمصانعة التتار، وقال: أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح، فخرج وتوثق منهم لنفسه، وورد إلى الخليفة وقال: إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يريد إلا أن تكون الطاعة، كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف عنك بجيوشه، فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والرأي أن تخرج إليه، فخرج إليه في جمع

من الأعيان، فأنزل في خيمة.

ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء، والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم، وصار كذلك: تخرج طائفة بعد طائفة حتى قتل جميع من هناك من العلماء، والأمراء والحجاب والكبار، ثم مدّ الجسر، وبذل السيف في بغداد، واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً فبلغ القتل أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقتل الخليفة رفساً(١).

كان باجو قد أسرع للهجوم على بغداد من جهة الغرب، واشتبك مع قوات الخليفة في معركة ضارية يوم عاشوراء، فخلا الجو لهولاكو من ناحية الشرق فتقدم، وكان جيش التتار يقدر بمائتي ألف مقاتل، وتصدى جيش المسلمين للتتار واستمر في المقاومة مدة حتى التاسع عشر من شهر محرم، ورأى الخليفة أنه لا بد من الاستسلام فأرسل إلى الطاغية هولاكو مرة ثانية شرف الدين ابن الجوزي ويحمل له الهدايا معلناً التسليم والرغبة في وقف القتال، وخدعه المغول بالوعود الكاذبة.

وفي ٤ صفر خرج الخليفة لمقابلة هولاكو ومعه أولاده الثلاثة: أحمد أبو العباس، وعبد الرحمن أبو الفضائل، ومبارك أبو المناقب، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء، والأمراء وأعيان المدينة، وعندما اقتربوا من هولاكو أخذ الخليفة لخيمة، وحُجب البقية عنه، وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح ففعل، وما أن ألقى السكان السلاح حتى أمر هولاكو جنده بالانقضاض على المدينة وبدؤوا بالقتل والسلب وارتكاب المنكرات، وتهديم البيوت، وتخريب القصور، وإتلاف الكتب، واستمر ذلك أربعين يوماً.

وقد سيّر الخليفة إلى بغداد ومعه نصير الدين الطوسي وابن العلقمي ليدل جند هولاكو على أماكن الذهب والنفائس والجوهرات، ولما عاد إلى هولاكو

---

(١) تاريخ الخلفاء

قتل في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ست وخمسين وستمائة.

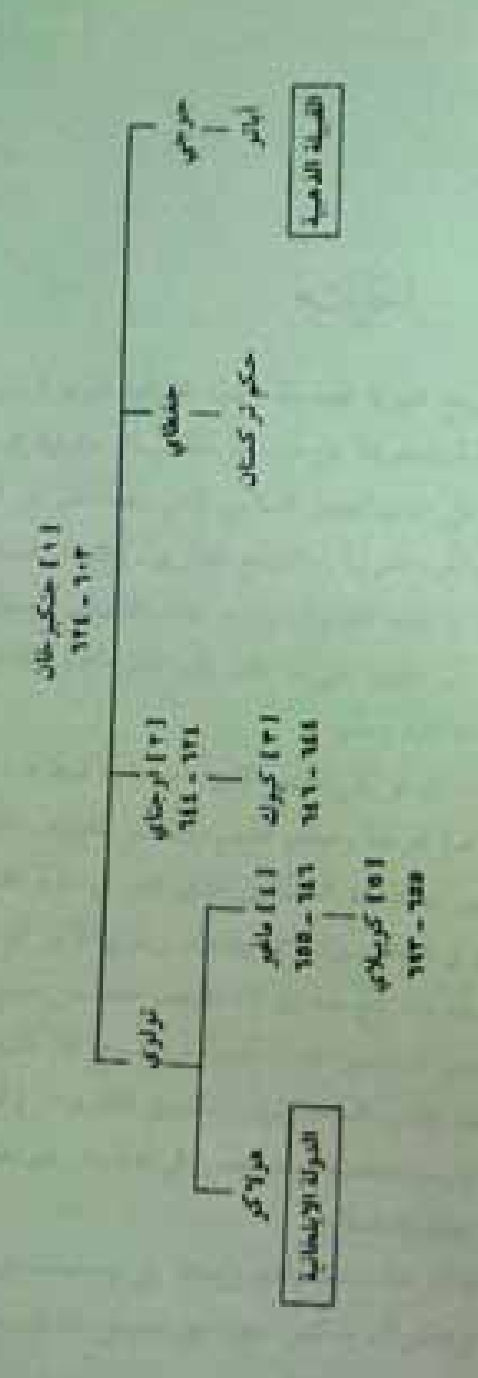
وأصبحت بغداد بعد الأربعين يوماً من التدمير خاوية على عروشها ثم أعطي الناس الأمان فخرج من خرج من الأقبية والآبار والمقابر كأنهم الموتى خرجوا من قبورهم، ولكن انتشرت الأوبئة والأمراض فأتت على أعداد كبيرة منهم أيضاً.

ورجع هولاكو إلى مقر حكمه في شهر جمادى الأول من العام نفسه، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادور ومعه ابن العلقمي[1].

وهكذا دالت الدولة العباسية بعد أن امتدت أيامها أربعاً وعشرين وخمسمائة سنة.

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن علي الوزير مؤيد الدين، أبو طالب، ابن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي وخادمه في زمن المستنصر، أستاذ دار الخلافة مدة طويلة، ثم صار وزير المستعصم، وكان وزير سوء مع أنه ذا شأن كبير في الأدب والإنشاء، وكان رافضياً خبيثاً، رديء الطوية على الإسلام وأهله. وبعد أن ساعد هولاكو ضد المسلمين ناله من الإهانة والذل الشيء الكثير على أيدي من ناصرهم من التتار، وقد مات وعمره ثلاث وستون سنة كمداً وضيقاً، وتولى بعده ابنه الخبيث الوزارة، ثم مات في العام نفسه، وذلك سنة ٦٥٦ هـ.



الخاتمة

من خلال قراءتنا لتاريخ الدولة العباسية، هذه القراءة الموجزة السريعة يتبين لنا أن الخلفية التاريخية المحفوظة عن هذه المرحلة ليست حقيقية إذ ليس هناك ضعف شامل يمتد على مدى العصر العباسي الثاني وهو أكثر من أربعة قرون، ويشمل الخلفاء، والقوة الحربية، والتوسع الفكري، والغلبة الحضارية، وقد لعب في هذه الخلفية ما كتبه أعداؤنا، وما درسناه باقتضاب، ومقارنتنا هذه المرحلة مع ما يجب أن تكون على ما كان عليه ذلك الجيل المثالي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد رأينا أكثر الخلفاء إن لم نقل جلهم كانوا أصحاب شجاعة، وهمة عالية، ودين وتقوى، ومحبة للرعية وعطفٍ عليهم، وتقديرٍ للعلماء، وتوددهم شعوبهم وتعطف عليهم غير أن التسلّط العسكري الذي كان في هذه الحقبة من الزمن قد أذلّ الرجال ولوى أعناقهم وتصرّف بالبلاد وبأولي الأمر كما شاء له هواه فنظرنا إلى هذا التسلّط وما نتج عنه وتركنا ما يضمّ خلفه من صور طيبة. ولعل القصاصين والمغرضين قد لعبوا دوراً كبيراً في تصوير ما كان يحدث داخل القصور فبالغوا فيه لجذب السامع إليهم وتشويق القارىء، والنيل من الحكم لأهدافٍ سياسيةٍ ودينيةٍ فعلقت هذه الصور في أذهاننا رغم بعدها عن الواقع وكذب مضمونها جملةً واحدةً.

وقد حدث في هذه المرحلة انتصارات واسعة بل وحاسمة في جهاتٍ متعددةٍ من ديار الإسلام يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال: معركة

ملاذكرت عام ٤٦٣ بين السلاجقة المسلمين والروم البيزنطيين النصارى، ومعركة الزلاقة عام ٤٧٩ بين المرابطين المسلمين ونصارى الأندلس ومن ورائهم أوربا، ومعركة الأرك عام ٥٩١ بين الموحدين المسلمين ونصارى الأندلس الذين يقف نصارى أوربا خلفهم، ومعركة حطين بين المسلمين والصليبيين عام ٥٨٣ و.....

ولم تكن هذه الانتصارات انتصارات عسكرية كما يتوهم بعضهم وإنما كانت انتصارات فكرية إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرت وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم²، وعم الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن قد دخلها أبداً من قبل. وبعد ست سنوات من هذه المعركة أي في عام ٤٦٩ استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة امبراطورية غانا (كومبي صالح)، وأن يفرضوا الإسلام على جميع البلاد وقد وافق ملك غانا (تنكامنين) على الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وقد دخل كثير من الشعب في الإسلام أيضاً، وبذا تكون ديار الاسلام قد امتدت في إفريقية على مساحة جديدة تقرب من نصف مليون كيلومتر مربع، وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي إذ نشر الغوريون الاسلام في الهند وفتحوا مساحات واسعة من شمال تلك البلاد، ووصلوا إلى بلاد البنغال وذلك عام ٥٩٧، وبذا فإن هذه المرحلة كانت مرحلة امتداد وتوسع أيضاً، ولم تكن مرحلة جمود وتوقف كما يتصور كثير من الناس ممن يقرؤون التاريخ الإسلامي على عجالة ويتوقفون عند نهاية العصر العباسي الأول ويجملون العصر الثاني بكلمات تدل على الضعف والتفكك والتوقف.

ولم يكن أعداء الإسلام يومذاك من نصارى ووثنيين من التتار ينظرون إلى المسلمين على أنهم دونهم أو يساوونهم في المستوى الحضاري فيقاتلونهم لينتهوا من بربريتهم وهمجيتهم، وليبقوا أمامهم خوفاً على حضارتهم، وإنما كانوا

يحاربونهم ليقضوا عليهم، ويتسلموا مكانهم، ويتعلموا ما حصلوا عليه. ففي الوقت الذي كان النصارى في أوربا يُحرّضون نصارى الأندلس لقتال المسلمين ويمدونهم بالرجال والمال ويدعمونهم بكل الإمكانات كانوا يرسلون أبناءهم إلى مدن الأندلس ليتلقّوا العلم على يد المسلمين ويتذوقون حضارتهم ومعارفهم. كما كان الصليبيون في بلاد الشام يتلقّون العلم في منارات العلم القائمة في المناطق التي سطوا عليها، وينهبون الكتب، ويتعرفون على الصناعة وإن كثيراً من الصناعات والكتب قد نقلت إلى أوربا في تلك الأثناء بعضها سرقة وبعضها بالممارسة والتعلم. وكذلك كان شأن المغول فقد كانت كتبهم إلى ملوك المسلمين تطفح بالاستشهاد بالآيات والأحاديث والحكم مما يدل على شعورهم بمدنية المسلمين وحضارتهم ففي كتب هولاكو إلى الملك الناصر صاحب دمشق توضيح ذلك فقد جاء في الكتاب الأول: «يعلم السلطان الملك الناصر ـ طال بقاؤه! ـ أنه لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقاتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكان فصارى كلامهم سبباً فلاك نفوس تستحق الإهلاك، وأما ما كان من صاحب البلدة فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء، كذبنا فيها، فاستحق الإعدام، وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً و.....».

وجاء في الكتاب الثاني: «...... فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وابد ما في نفسك: إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره، وتنل بره، واسع إليه بأموالك ورجالك، ولا تعوق رسلنا، والسلام».

وجاء في الكتاب الثالث: «أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر، إن عوتب تنمّر، وإن روجع استمر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد......»[1]

(١) تاريخ الخلفاء.

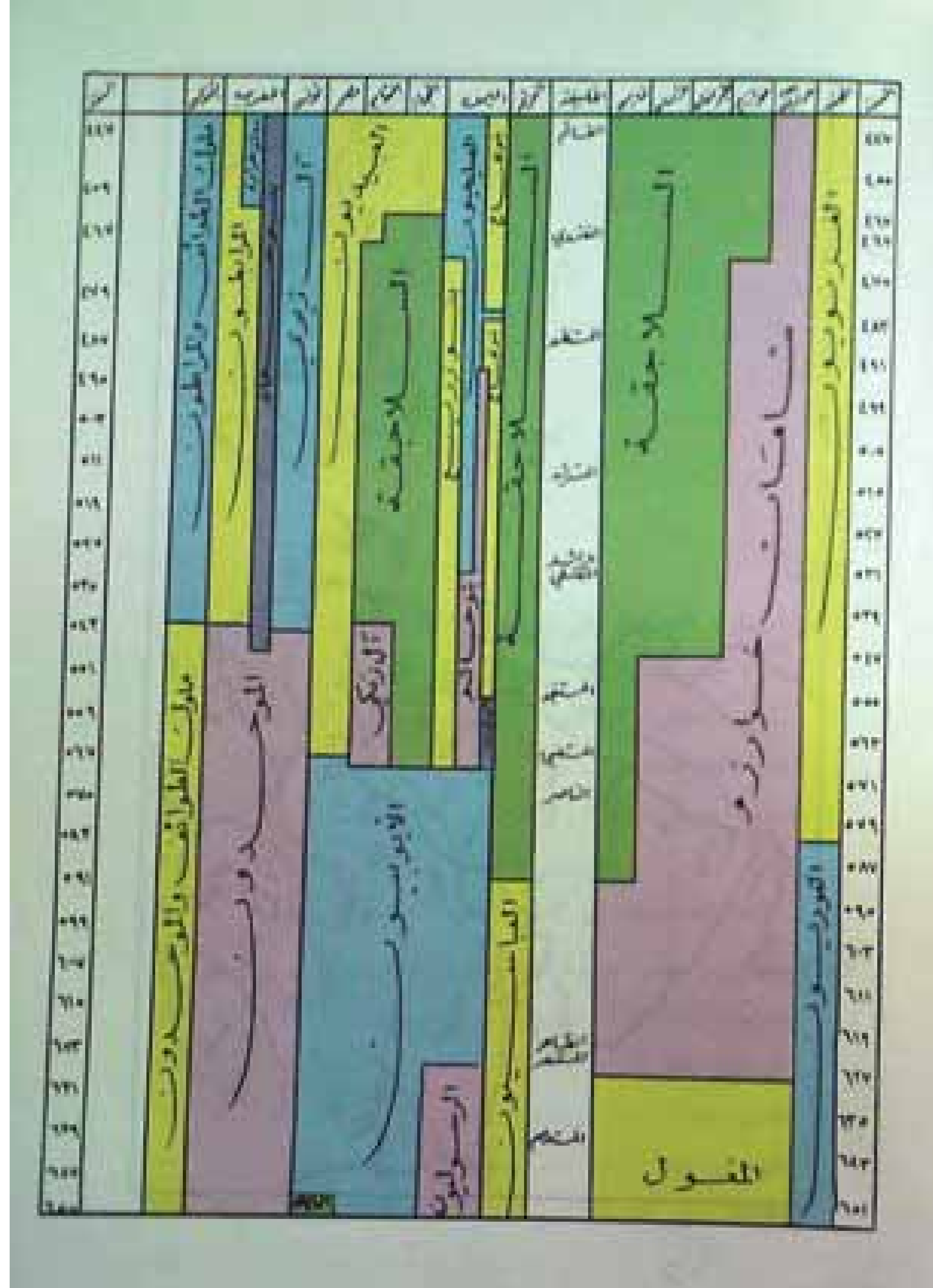
لا شك أن كتابة هذه الرسالة كانت من قبل كتّاب مسلمين ممن مالؤوا الطاغية هولاكو وعملوا عنده كتبةً مأجورين، راغبين في هوى، أو مجبرين على ذلك، كانت بلادهم محتلةً وهم على ذلك مقهورين، ولكن لم يكن ليتم هذا إلا برأي الطاغية، وكل كلمةٍ يعرف مصدرها ومراميها.

لقد كان النصارى والمغول يُدركون أنهم دون المسلمين، وأنهم متوحشون، وهذا ما بدا في قتال الأوائل وحروب الأواخر، وما فعلوه في الدور، والمدن، والزروع، وأمكنة الصناعة، والسكان، والتمثيل في القتل، والأعمال الوحشية، وإبادة كل ما لا قوة في طريقهم وأثناء تحركهم، ويعلمون أن المسلمين كانوا فوقهم ولم يكن قتالهم سوى قتال البرابرة الذين يُقبلون ليدكّوا معالم الحضارة لما يحملونه في صدورهم من حقدٍ وضغينةٍ وجهلٍ. فالنصارى كان يدفعهم الحقد الصليبي على الإسلام إضافةً إلى الضغائن التي تولدت في نفوسهم ضد الإسلام وانتصاراته، والجهل الذي يطغى عليهم فيحقدون على العلم الذي ينتشر في ديار الإسلام، وأما المغول فكان يدفعهم حقد البدوي على أهل الواحات، ومن يعيش في الشمس على من يتفيأ الظلال، والظمآن على المرتوي، والبائس على المترف. وقد دكّ كلا الجانبين كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، ونتيجة ضعف مستوى التتار الحضاري فقد ذابوا في المجتمع الإسلامي بعد مدةٍ وجيزةٍ، إذ كانوا يشعرون أن المسلمين أعلى منهم وأكثر مدنية.

أما بعد سقوط بغداد بيد التتار فقد ضعُف المسلمون كثيراً، وربما كان هذا التاريخ حداً مميزاً أو فاصلاً بين تاريخ الخلافة الإسلامية وبين تاريخ الضعف والانقسام وهذا ما نراه في الجزء السابع ـ إن شاء الله ـ وهو الذي يتحدث عن المماليك.

انتهى ـ بإذن الله ـ الجزء السادس

ويليه الجزء السابع ـ إن شاء الله ـ





الفهرس

